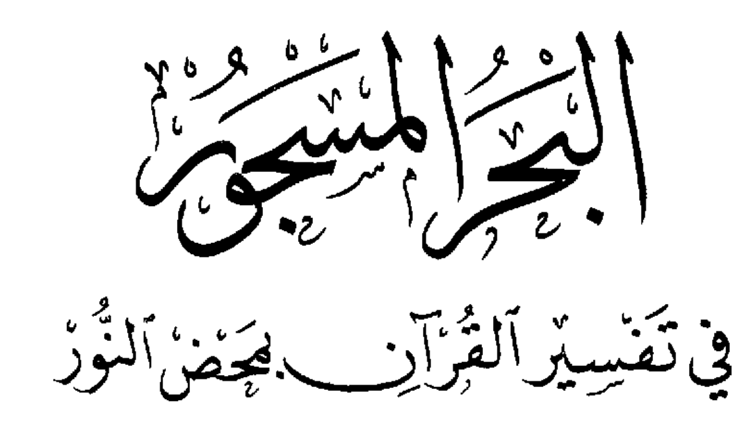


تأليف الأستاذ الشيخ :

أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي

الجزء الأول

الطبعة الثانية

المطبعة العلاوية بمستغانم

مقدمة الطبعة الثانية



وصلى الله على سيدنا محمد المصطفى من خلقه وآله وصحبه وسلم

نحمدك اللهم يا من ألهمت قلوب أولئك إلى أسرار معارفك، وملأتها بكؤوس شراب محبتك، فأشهدتهم سر عظمة ذاتك المتجلية في الأنفس والآفاق بأنوار صفاتك، وبدائع حكمتك، حتى شاهدوك واحدا في التصريف والتدبير، لا معقب لحكمك وأنت العزيز الحكيم.

ونصلي ونسلم على حضرة سيدنا ومولانا محمد سراج الهداية ومنبع المعرفة، وعين الرحمة الربانية المهداة، أخرج الناس من عماية الجهل والضلال، إلى نور الهداية والإيمان، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه البررة الأطهار، وصفوة أمته الأبرار، وسلم تسليما كثيراً.

« أما بعد » أخي المسلم وأختي المسلمة، فإن التفسير الذي نقدمه في طبعته الثانية جوهرة فريدة من جواهر الأستاذ العارف الأكبر، والقطب الأشهر، مولانا الشيخ «أحمد بن مصطفى العلاوي» المستغانمي – رضوان الله عليه، وقدس سره –.

نخرج هذا التفسير، العديم النظير، لما ينطوي عليه من

جواهر القرآن، كما تتجلى في قلوب أهل العرفان، ولا يتوصل إليها إلا المتقون الراسخون في العلم من عباد الرحمٰن، الذين أطلعهم الله على أسرار الحقيقة من بحر القرآن، بعد رسوخهم وتمكنهم من مقامات العرفان.

والأستاذ العلاوي - رضي الله عنه - من أولٰئك العلماء الربانيين المشار إليهم في الآية الكريمة بقوله: (**فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا، وعلمناه من لدنا علما**).

إنه العلم الذي أخذ منه الأستاذ العلاوي قبسا من بحار علوم القرآن، مستخرجا من أعماقه درراً، ومن مطالعه جواهراً، متدرجاً في تفسير الآيات على ما يقتضيه مفهوم اللفظ، والمعنى المتداول بين علماء الرسوم، ثم أتبعه مما يستنبط من أحكامها، ثم يرتفع الأستاذ في تفسيره محلقا في أجواء الآيات على ما تعطيه الإشارة بلسان الخصوصية، فجاء بإشارات وأذواق تثير الدهشة والإعجاب، يفهمها الراسخون في العلم اللدني المفاض من حضرة القرآن، على ما يقتضيه السر المصون.

ثم يختم التفسير بكلام أخص مما قبله وأذق، يحمل عنوان «لسان الروح» الذي يقصر عن إدراكه أهل الخصوصية فضلا عن العموم، فسماه «**البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور**».

وهكذا يسير الشيخ في تفسيره على هذا المنهج الفريد، والأسلوب الغريب، الذي لا دخل فيه لغيره من بقية المفسرين لكلام الله العزيز قديما وحديثا، غير أن الأستاذ عاجلته المنية،

ودعاه داعي الحق، فتوقف القلم من مداد بحره المسجور، والقلب من فيوضاته التي يتنزل بها الروح الأمين على من كمل استعداده من أمة محمد ﷺ وبالقدر المحتاج إليه حسبما تقدم في نزول ألفاظه، عند قوله تعالى: (**والله رؤوف بالعباد**).

- **الطبعة الثانية:** ولعل القارىء الكريم على دراية بالجزء المطبوع من هذا التفسير القيم، وهو جزء غير كامل معتمدين في نشره على مخطوطة ناقصة تنتهي عند تفسير قوله تعالى: (**وما لكم من دون الله من ولي، ولا نصير**). وقول الأستاذ –رضوان الله عليه– «في أفكار بعض المؤمنين بما مر على أسماعهم».

إلى هنا تنتهي المخطوطة المنقولة عن الأصل الذي أملاه الأستاذ العلاوي – رضوان الله عليه – على كاتبه الشيخ «محمد بن صالح التمساني» الذي فرغ من نسخها سنة: 1934.

هذا المخطوط الأصلي الذي خرمته الأرضة فتآكلت بعض أوراقه، وقبل أن تتعرض لمزيد من التلف، أمر الأستاذ الشيخ «الحاج المهدي» – رضي الله عنه – بانتساخه، وأوكل بهذه المهمة إلى كاتبه سيدي «عبد العزيز أعراب» – رحمه الله – وكنت أشاركه النسخ أحيانا، وأملي عليه أحيانا أخرى، غير أن ظروف حرب التحرير سنة: 1956 لم تسمح بإتمامه.

وبعد مرور اثنتي عشرة سنة من ظهور الجزء الأول، قد يسر الله لنا – بعونه وحسن توفيقه – من الحصول على المخطوط الأصلي للجزء الثاني من تفسير «البحر المسجور» الذي نقوم

بتحقيقه، واستدراك ما فاتنا من النقائص والهفوات أثناء الطبعة الأولىٰ، مع إدراج النصوص المفسرة أول كل تفسير مشكولة بالشكل التام.

ونحن بعد هذا الجهد المبذول تحقيقا وتصحيحا، نقدم أعظم امتنان وأجل تقدير لسيدي الفاضل، العامل الصادق، «رشيد محمد الهادي بن تونس» – مدير المطبعة العلاوية – الذي كان الساعد الأيمن في إخراج هذا التفسير القيم، بما بذله من جهود مضنية في جمع الأصول المخطوطة، وتقديمه على هذا الشكل القريب من الكمال المرجو، والتحقيق العلمي المنوط بعهدة المحقق والمشرفين على الطبع، مع اعتذارنا على ما يبدو فيه من الخلل والتقصير الذي لا يخلو منه إنسان، مهما أوتي من حسن التقدير وسلامة التفكير.

أسأل الله تعالىٰ أن يجازي الجميع جزاء العاملين المخلصين، وينفع به القارىء المسلم، والباحث المستنير، إنه ولي التوفيق عليه توكلت وإليه أنيب.

الأستاذ: يحي الطاهر برقة

وهران في: 16 / 3 / 1995 م



والصلاة والسلام على النبي الكريم وعلى آله وصحبه

الحمد لله الذي نزل الكتاب على عبده المصطفى من خلقه، بلسان عربي مبين، تبيينا لكل شيء، وهدًى ورحمة للمتقين. قرآنا يهدي إلى الرشد، فآمنا به، ونحن على ذلك من الشاهدين.

أحمده سبحانه وتعالى وأشكره، حيث لم يجعل فهمنا منه مرتهنا في فهم السابقين. فجل قدر القرآن أن يكون وقفا على أحد من العالمين، وإلا لكان خطابا له لا لغيره من المكلفين. كتاب أحكمت آياته، لينذر من كان حيا، ويحق القول على الكافرين. لن يزال غضا طريا في كل وقت وحين، لن تبليه مرور الدهور وتداول التالين، حتى كأنه الآن يتلقف من الروح الأمين، إن لم نقل من أرحم الراحمين. فهٰذه عقيدتنا في كتاب الله وما أنا من الممترين.

وأشهد أن لا إله إلا الله، شهادة أولي العلم به، وإنه الواحد الأحد في ذاته وصفاته وفعله، الظاهر في ملكه، الباطن في كنهه. أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله. سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته، وعن التابعين ومن ذبَّ على الدين، واعتنى بنصرته، وسلم سلاما جزيلا طيبا شاملا، تشملنا نفحاته.

أما بعد، فيقول كثير المساوي، المعترف بتقصيره القوي عبد ربه «أحمد بن مصطفى العلاوي»: إني لما عزمت على تسطير ما فهمت من كتاب الله تخيلت كأن القائل يقول: ما ترك الأول للآخر ما يقول، فظهر لي أن نقدم مقدمة أمام المقصود، فيها ما يفيدك الشعور بأنّ الفضل بيد الله، وأنه ليس بمحجور. ونسمي ما فهمته من كتاب الله:

بـ «البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور».

راجيا أن يطابق الإسم مسماه، واللفظ معناه ومبناه، ولا حولا ولا قوة إلا بالله.



تنبيه مهم

فمن أراد السلامة أن لا يشرع في هذا التفسير حتى يمر على فصوله حسب ترتيبها، لأنها كالسلم لتلقي أسراره وليتدرع بحسن الظن ما أمكنه، ولا يقيس ما يجد فيه على ما عنده، فإنه أبعد من التطابق، لأن كلام الروح يباين كلام البدن، فأكثره جاء بلسان الخصوصية الذي ليس لنا فيه كبير اكتساب، إلا ما كان من قبيل التوجه والتلقي من حضرة الله، والمعنى أنه ليس هو من قبيل التكلف والتعسف، وما أبرىء نفسي من التقصير، ولا أنساها من وجود الخير، (والله بما تعملون خبير).

ثم اعلم أنه ظهر لي في ترتيبه أن نذكر شيئا من «التفسير» الذي هو المقصود العام من كتاب الله، ثم نذكر ما «يستنبط من أحكامه»، وهو أخص مما قبله، ثم نأتي بشيء مما تتوسع فيه «الإشارة» على مصطلح أهل الله، ثم نذكر كلاما أخص منه، معبرا عنه بـ «لسان الروح» وهي أنهار أربعة، تراهم (قد علم كل أناس مشربهم).



تمهيد يشمل على فصول فيها من جواهر النقول

الفصل الأول

فيما يفيد الإنسان أن القائم بالحق موجود في كل زمان

وبمناسبة ما قدمناه، قال ابن عبد البر، وغيره من المحققين - رضي الله عنهم - فيما يرويه عن أسلافنا: « لا كلمة أضر بالعلم والعلماء والمتعلمين من قول القائل: ما ترك الأول للآخر شيئا »، نعم، هي كلمة قضت على النفوس الكريمة والعقول السليمة بالتعطيل. فحسبنا الله ونعم الوكيل. ولا مستند لقائلها ومعتقدها إلا سوء الظن بالباقيات الصالحات في المؤمنين. فمن أجل هذا استطردت من الآثار ما هو أولىٰ بالإعتبار قلت: حاشا الله أن يترك المحبوب أمة حبيبه سدًى، فلم تزل أمة قائمة بالحق، وبه يعدلون. ولو اعتمدنا مجرد الظن الحسن في الأمة المحمدية لكان كافيا، وأحرى مع وجود النقل الصحيح والنصر الصريح حسب الآتي ذكره:

قال أبو عمر عن أبي عثمان الخولاني: إن النبي ﷺ قال: **« إن الله تبارك وتعالى لا يزال يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم بطاعته »** قلت: وأنه تعالى لا يغرس غرسا إلا لحكمة الإنتفاع به.

وذكر السيوطي في الجامع الصغير: **« إن الله ليبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » - الحديث** - وفي ظني أن المجدد غير مقلد يأخذ من كتاب الله، وسنة رسوله الله، بحذف الوسائط، ولا يأخذ إلا ما يجدد الإيمان. ولا يخفى أن ما في

الحديث من صيغ العموم تصدق بالواحد والمتعدد.

وقال أيضا في الجامع الصغير : «**لكل قرن من أمتي سابقون**». وقال : «**لن تخلو الأرض من أربعين رجلا مثل خليل الرحمن، فبهم تسقون وبهم تنصرون، ما مات منهم أحدٌ إلا أبدل الله مكانه آخر**». وبالجملة إن من تتبع الآثار يجد في الأمة المحمدية ما يسره. قال ﷺ : «**مثل أمتي مثل حديقة قد قام عليها صاحبها، فاجتلب زَاكِيَّهَا وهيَّأَ مسالكها وحلق سعفها، فأطعمت عاما فوجا، ثم عاما فوجا، فلعل آخرها طعما يكون أجودها قنوانا، وأطولها شمراخاً. والذي بعثني بالحق ليجدن ابن مريم من أمتي خلفا من حوارييه**». نقله في «المباحث الأصلية». وقال أيضا : «**أمتي أمة مباركة، لا يدرى أولها خير أو آخرها**». وقال : «**أمتي مثل المطر لا يدرى أَيُّهُ أنفع أوله أو آخره**». وأخرج الطبراني عن ابن عباس مرفوعا، قال : قال رسول الله ﷺ : «**يا ليتني قد لقيت إخواني**، قالوا يا رسول الله! ألسنا إخوانك؟ قال : **بلىٰ، ولكن قوم يجيؤون من بعدكم، يؤمنون بإيمانكم، ويصدقوني تصديقكم وينصروني نصركم، فيا ليتني قد لقيت إخواني**». وعن ابن جمعة الأنصاري قال : قلت يا رسول الله، هل من قوم أعظم منا أجراً، آمنا بك واتبعناك؟ قال : «**وما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم، يأتيكم بالوحي من السماء كلا بل قوم يأتون من بعدكم، يأتيهم كتاب الله بين لوحين فيؤمنون به، ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجرا**». أخرجه أحمد والبخاري في تاريخه، ونقله في «فتح البيان».

قلت : ولا يلزم من هذا وجود التسوية فضلا عن أفضلية

المتأخرين للسابقين المهاجرين الأولين، حتى أقول به، إنما أقول : لا يجهل فضل السابقين إلا مغرور، ولا ينكر وجود الباقية إلا هالك مبتور، ولكن الغبي لا ينكر الوجود، إنما ينكر الوجدان بحيث لا يقدر أن يحققه في أي إنسان، والمعاصرة حرمان، ولعل القارىء لا ينكر وجود الباقية، إنما ينكر فينا وجود الأهلية، فهذا كتابي لمن خلفه آية، فإن لم يسر المعاصرين، **(قل ما أسألكم عليه من أجر، وما أنا من المتكلفين. ولتعلمنَّ نبأه بعد حين) (والعاقبة للمتقين).**



الفصل الثاني

فيما يفيد أن للقرآن وجوها وإنه لا تنقضي عجائبه حتى يستغنى بفهم المتقدمين منه عن فهم المتأخرين

فأقول: إن ما تمتعت به البصائر والأبصار، وجالت فيه العقول، وتعلقت به الأفكار، كتاب الله العزيز الغفار. فلن يزال روضة يانعة، ودوحة جامعة، حتى كأن الآخذ منه زاد فيه، لولا أن (**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**) غضا طريا في كل عصر وأوان، فحاله في السابق كحاله الآن. قال تعالى ولم يزل قائلا: (**أفلا يتدبرون القرآن**). جاء في الخبر على أن القرآن لا تنقضي عجائبه، وعلى أن له وجوها كثيرة. عن أبي الدرداء – رضي الله عنه – أنه قال: «لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها كثيرةً». وقيل: إنه حديث عن شداد بن أويس، نقله ابن عبد البر.

ومما يؤيده قوله ﷺ: «**إن للقرآن ظاهرا وباطنا وحدا ومطلعا**». نقله في«تاج التفاسير»، وعلى هذا فلا تستبعد الكلام الصادر من العلماء بالله في كتاب الله، وان لم تصل إليه عقولنا فنحمله من قبيل أحد الوجوه الأربعة، ولا تحسبن هذه الوجوه توجد في كتاب الله من حيث الإجمال، كلا، إنما هي في كل آية وكلمة، إن لم نقل في كل حرف. فالحرف قرآن، كما أن عموم الكتاب قرآن، ولهذا قال جل ذكره: (**سنلقي عليك قولا ثقيلا**). وقال: (**الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**). فعبر

بالقول دون اللفظ، والكلام ليشمل الكلمة والحرف، لأن القول عام في جميع ذلك، فكل جزء من كتاب الله - وإن تجزأ - فهو ثقيل، باعتبار ما جمع فيه من المعاني التي تفوق حد الحصر، ومما يدلك على أن الحرف قرآن، ما أخرجه الترمذي عن ابن مسعود مرفوعا: «**من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها**». فاتضح من هذا أن الحرف بانفراده قرآن بالنظر لما اشتمل عليه من المعاني. وفي رواية: «**لا أقول آلّمٓ حرفا، بل الألف حرف، واللام حرف، والميم حرف**».

ولهذا ورد: «أن ما في الكتاب في الفاتحة، وما في الفاتحة في لبسم الله الرّحمٰن الرّحيم». وورد أيضا: «أن ما في البسملة في بائها، وما في الباء في النقطة التي تحتها». وقد كنت جمعت رسالة فيما يتعلق بهذا المعنىٰ، ولولا ما اشتمل عليه كتاب الله من الغرائب، لم نؤمر بالتدبر فيه على مَمَرِّ الدهور. قال جلَّ ذكره: (**أفلا يتدبرون القرآن**). وقال ﷺ: «**أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه**». ولعل القائل يقول: قد كفانا الله ما أهمنا من استخراج جواهره على يد من تَقَدَّمَنَا. فأقول: وإذَنْ لضاع حظنا من التدبر فيه، - حاشا لله - لا يقول بهذا عاقل، ولا من هو بالإيمان حافل، وإن كان ذلك لِمَ لَمْ يكتف أهل القرن الثاني عن الكلام فيه بكلام من تقدمهم من أهل القرن الأول، وأهل الثالث بالثاني، وهكذا. فدل هذا على أن الحق جل ذكره لم يخصص بالتدبر فيه جيلا دون جيل، وأيضا لكان التخصيص يشعر بانقضاء معانيه، والحالة بخلاف ذلك. قال ﷺ: «**القرآن لا تنقضي عجائبه**» ومن عجائبه أن المتدبر فيه يرى من غرائبه

كل يوم ما لا يراه بالأمس. قال عبد الواحد بن سليمان: كان ابن عون يقول: «ثلاث أحبهن لي ولإخواني. وذكر منها أن هذا القرآن يتدبره الرجل ويتفكر فيه، فيوشك أن يقع على علم لم يكن يعلمه». ويدل على هذا ما أخرجه أبو نُعَيْم وغيره عن عبد الرحمٰن بن زيان قال: قيل لموسى عليه السلام: «إن مثل كتاب أحمد في الكتب بمنزلة وعاء فيه لبن، كلما مخضت أخرجت زبدته». ويشتمل هذا ونحوه ما ذكره أبو بكر بن العربي في «فنون التأويل»: «علوم القرآن خمسون علما وأربعمائة علم وسبعة آلاف علم، وسبعون ألف علم مضروبة في أربعة، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع، وهذا مطلق دون اعتبار التركيبات وما بينهما من الروابط وهذا ما لا يحصر، ولا يعلمه إلا الله». قلت: ولا يقع على علومه، ويتفرس في وجوهه إلا مفتوح عليه. وأما المحجوب فإنه ينادي من مكان بعيد، ويسمع من وراء حجاب حديد، فهو أبعد من أن يتناول الغاية من ظواهره، فكيف بباطنه، وأين هو من حده ومطلعه؟ ومن فتح الله عليه بالتوصل إلى شيء من ذلك لا يبعد أن يقول كما قال الإمام عَلِيٌّ - كرم الله وجهه -: «لو شئت لوقرت أربعين وقراً من شرح الفاتحة». أو كلاما هذا معناه. ولعلك تقول: أين الإمام عَلِيٌّ وأين علومه؟ فأقول: يا لِلَّهِ العجب! ومع ذلك لم يحتفل به من أهل زمانه إلا القليل، حتى كان يقول: «أنا جنب الله الذي فرطتم فيه» وهو على المنبر. والمفرط فيه هو المفرط الآن في أهل زمانه.

الفصل الثالث

فيما يدل على أن في القرآن علوما ليست متعاطية فيما بين العموم

ولعل المتجمد على الظواهر لا يرى من كتاب الله إلا ما وصل إليه من جهة بضاعته القليلة، وقريحته الكليلة، وينكر ما وراء ذلك، ولم يعلم أن ما عرفه من ظاهر الكتاب إلا كمن عرف القشر من اللباب، وما وراء ذلك ما لا عين رأت ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وهل يعتقد أن ما وصل إليه فهمه هو ما كانت عليه بواطن أصحاب رسول الله ﷺ في كتاب الله، كلاَّ، وليفتش نفسه إن كان ما أكنه فؤاده أعَزَّ مما تحدّث به، فهو على بينة من ربه، وإلا ما ضاع له أكثر مما حصل عليه. قال ﷺ: **« إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا أظهروه أنكرته أهل الغرّة بالله »**. وقال: **« علم الباطن سرٌّ من أسرار الله، يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده »**. وقال أيضا: **« العلم علمان: فعلم في القلب فذلك العلم النافع. وعلم على اللسان، فذلك حجة الله على ابن آدم »**. فدلّ هذا على أن العلوم الخفية غير العلوم المتعاطية. قال أبو هريرة - رضي الله عنه - فيما شاع عنه: « حفظت عن رسول ﷺ وعائين من العلم: أما أحدهما فبثثته. وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم مني هذا البلعوم ». نقله أبو عمر. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: « لو قلت لكم ما أعلم من تفسير قوله تعالى: (**يتنزل الأمر بينهن**)، لرجمتموني، أو لقلتم إني كافر ». ذكره الشعراني في

«اليواقيت والجواهر». ومما ينسب لزين العابدين رضي الله عنه:

يا رُبَّ جوهر علم لو أبوح به ☆ لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي ☆ يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وقال سلمان الفارسي – رضي الله عنه –: «لو حدّثتكم بكل ما أعلم لقلتم رحم الله قاتل سلمان». وقال الإمام عَلِيٌّ – كرم الله وجهه –: «إن بجانبي علما لو قلته لأزلتم هذا عن هذه. وأشار برأسه عن جثته». فدلَّ هذا على أن في الزوايا خبايا. وفي وصيته لسيدنا كميل بن زياد – رضي الله عنهما –، ما يلائم أكثر المشار إليه، ولنوردها مع طولها لما فيها من الحكم التي لا يستغنى عنها. قال – كرم الله وجهه –: «يا كميل، إن القلوب هذه أوعية، فخيرها أوعاها للخير، والناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، لم يستضيؤوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق. ثم قال: إن هٰهنا لعلما – وأشار بيده إلى صدره – لو أصبت له حملة، لقد أصبت لقنا غير مأمون، يستعمل الدين للدنيا، ويستظهر بحجج الله على كتابه، وبنعمه على معاصيه، أُفٍّ لحامل حَقٍّ لا بصيرة له، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، لا يدري أين الحق، إن قال أخطأ، وإن أخطأ لم يدر، مشغوف بما لا يدري حقيقته، فهو فتنة لمن فتن به. وإن من الخير كله من عرفه الله دينه، وكفى بالمرء جهلا أن لا يعرف دينه، كذلك يموت العلم بموت حامله. اللهم بلىٰ، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجته، إما ظاهر مشهوراً، أو خافيا مغمورا، لئلا تبطل حجج الله وبَيِّنَاتُهُ. وكم ذا، وأين أولئك! أولئك – والله – الأقلون عدداً، والأعظمون

قدرا، يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آهٍ، آهٍ، شوقا إلى رؤيتهم». والمحصول مما نقلناه أن جميع ما أشارت إليه الكتب هو بعض مما تضمنته القلوب، وما عند الله خير للأبرار.



الفصل الرابع

فيما يشعرنا نحن بأننا المقصدون بالقرآن، ولا واحد أولىٰ به من الآخر في كل زمان

فأقول: إن القرآن كلام الله، يكلم به عباده وهم لايشعرون، وكتاب بعث إليهم بالخصوص، وهم لا يدرون، لاهية قلوبهم، كأنهم يظنون أنه وجد اتفاقا، فصاروا يأخذون منه أحكامهم وليسوا بالمقصودين في علم الله، أو نقول الآن بالخطاب. إنما نزله الله على محمد ومن معه، وهم يأخذون منه بالتبعية، لا بالإستقلال، – وحاشا لِلَّهِ –. قال ﷺ: «**أنا رسول من أدركته حيا ومن يولد بعدي**». لا فرق بين المبعوث إليهم من جهة تعلق الخطاب، فقوله جل ذكره: (**يا أيها الذين آمنوا**) يشمل كل مؤمن ولا تقول إنه قال، بل هو الآن يقول، عرف من عرف، وجهل من جهل، فمن فتح الله بصيرته يراه الآن يتنزل به الروح الأمين. وإذا قرأه يقرأه من إمام مبين. وأعظمهم درجة من يتلقاه من أرحم الراحمين وقليل ما هم ولا تستبعد ذلك، فإن الكلام كلام الله، لا يتصف به غيره. نعم، الكُلُّ يعتقد أنه كلام الله، وما فاته إلا أن يسمعه من الله، ولا يسمعه من الله إلا إذا كان سمعه سمع الله، (**فإذا أحببته كنت سمعه... إلى آخر الحديث**). والصفة لا تنفك عن موصوفها، ولا تظهر إلا من وراء حجاب لبسها (**ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب**). موسى عليه السلام لما سمع خطابا من جانب الطور الأيمن لم يستدل على أنه كلام الله يكلمه به إلا به، من أجل ما أعطي من

سلامة الذوق وصحة الوجدان، وهكذا الواحد منا مهما تَقَوَّى يقينه وانشرح باطنه فيما يسمعه من ألفاظ القرآن، فلا يراه إلا كلاما يكلمه الله به في ذلك الحال، ولا يستدل عليه إلا به، لما يجده في قلبه من تأثير النزول ورعدة الزواجر. أخرج الطبراني عن النواس بن سمعان مرفوعا: «**إذا تكلم الله بالوحي، أخذت السماء رجفةً شديدة من خوف الله، فإذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا، وخروا سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل - عليه السلام - فيكلمه الله بوحيه بما أراد، فينتهي به على الملائكة، فكلما مر بسماء سأله أهلها: ماذا قال ربنا؟ قال: الحق. فينتهي به حيث أُمِرَ**». وهكذا لما ينزل به على محمد ﷺ يحصل له من تأثير النزول ما ترتعد به مفاصله، ولن يزال هكذا مهما مرَّ على قلب فارغ من الكدورات إلا ويحدث فيه من تأثير النزول، وقد كان لي نصيب من ذلك - والحمد لِلَّهِ - فكنت مهما يطرق سمعي كلام الله فترتعدبوادري عن الفحص، حتى كأني أسمع حسيسا من بقية صلصلة الجرس، وكنت إذا تناولت المصحف الكريم نتناوله بيد التبجيل والتعظيم، ونراه كتابا وصل إليَّ من حكيم عليم، مرقوما في أوله بعد الفاتحة و(**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، الٓمٓ ذَٰلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ**)، فنأخذ في الفحص فيه أشد من فحص الغريب إذا أتاه كتاب من أهله. فهو بالطبع يسكن إليه، ولا يطمئن إلا إذا استوعبه بأجمعه، وبهذه الخاصية - والحمد لله - أطلعني الله على البعض من جواهره، ولا تحسبن ما رسمته هو مجموع ما فهمته، بل ولا عشوره، ومصداقه: «**القرآن لا تنقضي عجائبه**».

تنبيه

إن القرآن الكريم نزل على أصحاب محمد منجما، وهذا باعتبار وصوله إليهم، وأما باعتبار وصوله ومجيئه إلينا، فقد جاءنا من الله جملة، بواسطة من حفظه الله بسببهم، والله هو الحافظ: (**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**). وهذا يجري فيمن قبلنا ومن بعدنا. وقولنا جاءنا من الله جملة، يؤيده ما تقدم من حديث أبي جمعة الأنصاري، قال قلت: «يا رسول الله، هل من قوم أعظم منا أجراً، آمنا بك واتبعناك؟ قال: **ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم، يأتيكم بالوحي من السماء، بل قوم يأتون من بعدكم، يأتيهم كتاب الله بين لوحين فيؤمنون**... إلى آخر الحديث». والشاهد في «**يأتيهم كتاب الله بين لوحين**»، فعلمنا يقيناً أننا مقصودون بكتاب الله إلينا، لا إننا قرأناه بالتبعية لغيرنا، وقولنا وصل إلينا جملة، هذا باعتبار ألفاظه، وأما باعتبار معانيه، فإنها لن تزال تحت أمين الوحي، يتنزل بها الروح الأمين على قلب من كَمُلَ استعداده من أمة محمد ﷺ، ولا يتنزل بها إلا منجمة، وبالقدر المحتاج إليه، حسبما تقدم في نزول ألفاظه. ولا تستبعد نزول المعنى على قلوب العارفين بواسطة الملك: (**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة**). وإن لم يتضح ذلك عندك، تذكر حديث: «**لن تخلو الأرض من أربعين رجلا مثل خليل الرحمن**» فما أقرب الملائكة من قلوب تماثل قلب خليل الله، فقلوب العارفين مسكنها الملأُ الأعلى، فلهذا أشركت الملائكة في المعارف، قال أحمد بن أبي الحواري للإمام أحمد بن حنبل - رضي الله عنهما -: سمعت

شيخي ابن سمعان يقول : « إذا اعتادت النفوس ترك الآثام جالت في الملكوت، ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة، من غير أن يؤدي لها عالم علما »، قال أحمد بن حنبل : صدقت يا أحمد، وصدق شيخك.

ثم أقول : إن الله جل ذكره لن يزال كفيلا ببيان معاني القرآن في كل عصر وزمان، قال ولن يزال قائلا : **(فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه)**. ومن بيانه المتكفل به ما يظهره الله من معانيه على ألسنة أصفيائه، ومن حكمته تعالى أن لا يجري على ألسنة علماء كل زمان إلا ما يليق بأهل ذلك الزمان، ونعني بالعلماء العاملين الوارثين القائمين بحجة الله على العالمين، الذين يحفظ الله بهم هذا الدين، حتى يبلغوه لمن بعدهم، لا المتشدقين الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، فإنها تتنزل عليهم الشياطين بما فيه انحلال عقدة الدين، لولا أن الله ينسخ ما تلقيه الشياطين ثم يحكم آياته.



الفصل الخامس

فيما يشعرنا بتعلق سائر ألفاظ القرآن بالمكلفين في كل وقت وآن

ومهما اعتبرنا ما بين دفتي المصحف كتابا من الله جل ثناؤه وصل إلينا بالخصوص، لزمنا أن لا نحمل ما أوعد الله أو وعد به على غيرنا من الأمم، فمهما ثبت الاستحقاق في شخص لشيء من ذلك فيكون هو المقصود نفسه بذلك الخطاب. وهكذا في سائر الأوامر والنواهي والترغيبات والترهيبات، وهذا وجه كون الكتاب إلينا. وأما كون الآية نزلت في فلان أو فلان، إنما ذلك الشخص سبب لابتداء تَهَيُّءِ الجنس المستحق لذلك الوصف أو الحكم. والمعتبر من خطاب الله عموم اللفظ لا خصوص السبب، والأرواح جنود مجندة متساوية في تعلق الخطاب بها، ليست متعاقبة الوجود كتعاقب الأجسام، فأرواح المنافقين مثلا من عهد رأس المنافقين الأولين إلى خاتمهم يشملهم وعد المنافقين، فتكون آية المنافقين نزلت في كل فرد من ذلك الجنس، وقِسْ على ذلك أنواع المخاطبين، وإلا كان الكثير من ألفاظ التنزيل في حيز التعطيل. وإني لا أرى من كتاب الله لفظا معطلا لم يكن مقرونا بمستحقه في كل زمان، إن لم نقل في كل آن. والمعنى أن سائر ألفاظه دائرة بين مخاطب ومخاطب في كل حين، واقعة موقعها من غير زيادة ولا نقصان. والأغرب من هذا، أن الخطاب المختص بالنبي ﷺ حقيقة، قد يتناول غيره من ورثته على سبيل الإشارة مجازاً. وأما ما فيه من التهديدات ونسبة

التقصير له، فيكون لوارثه حقيقة، لأنه أولى بالتقصير. فالقطب المحمديُّ، أو من هو على قلب سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، إذا أطرق سمعه قوله تعالى: (**يا أيها النبي**) أو (**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك**) لا يرىٰ ذلك إلا أمرا من الله، وهو المقصود به في تبليغ الشرائع، وهذه هي الحكمة - والله أعلم - في عدم ندائه في كتابه المجيد باسمه كأن يقول: «**يا محمد** أو **يا أحمد**»، كندائه من تقدم من المرسلين - عليهم صلوات الله وسلامه - إنما جاء النداء بـ(**يا أيها النبي**)، (**يا أيها الرسول**)، (**يا أيها المزمل**)، (**يا أيها المدثر**). وهكذا ليتناول ورثته من بعده، المبلغين عنه على سبيل الإشارة: «**العلماء ورثة الأنبياء**» والمبلغون ورثة الرسل. ألا ترى أن عيسى - عليه السلام - لما بعث مبلغين عنه إلى مدينة أنطاكية سماهم الله رسلا وأضاف إرسالهم لنفسه فقال: (**إذ أرسلنا إليهم إثنين فكذبوهما فعززنا بثالث**). فلا مانع أن ينادى المُبَلِّغُ من الأمة المحمدية على لسان القرآن بذلك الإسم، ويكون مقصودا به في علم الله. ألا ترى أنه نادى محمداً ﷺ في التوراة وغيرها من الكتب بما هو من هذا القبيل كقوله: (**يا أيها الجبار تقلّد سيفك**). وهذا الخطاب يحتمل أن يكون متناولا لغيره في ذلك العصر مجازا، مدخرا للمصطفى ﷺ حقيقة. والحكمة - والله أعلم - في عدم نداء الأنبياء بغير الإسم الصريح، لعدم استمرار شرائعهم، بخلاف شريعة نبيّنا الأحمدية، فإنها مستمرة، والنداء فيها يعم كل وارث، حتى ينتهيَ إلى المهدي، ثم لعيسى - عليهما السلام -. فإن أمر الله لمحمد ﷺ أمر لهما، وخطابه خطاب لهما، فلهذا جاء النداء في التنزيل بـ(**يا أيها**).

ثم اعلم أن المبلغ الحقيقي الآن، وقبل الآن، وبعد الآن، ليس هو إلا محمد ﷺ، فنوره الكامن في خلفائه هو الذي يسمع النداء المختص به. قال ﷺ: «**رحمة الله على خلفائي، رحمة الله على خلفائي**. قالوا: من خلفاؤك يا رسول الله؟ قال: **الذين يحيون سنتي ويعلمونها عباد الله**». نقله ابن عبد البر.

والذي يزيدنا شعورا بما قدمناه، هو عدم حذف كلمة (**قُلْ**) من التلاوة والرسم، مع أنها ليست داخلة في مَقُولِ القَوْلِ ضرورة، فإذا قال الله لنبيه: (**قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله**). فالمتبادر فهمه أن يقول: (**لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا**)، بحذف كلمة (**قُلْ**)، وما أثبتت هذه الكلمة إلا لأنها فعل متصل دائم التعلق كغيره من الأفعال، يتناول كل من يستحق القول، مهما فهم عن الله، ونعني به الوارث المحمدي، ولو حذفت كلمة (**قُلْ**)، لضاع حظنا، أو نقول فهمنا من كتاب الله،وما يعقلها إلا العالمون.



الفصل السادس

يذكر فيه أهم شيء يعتبره الإنسان في كتاب الله أن يراه واصلا إليه من حضرة الرحمن

وأهم شيء نعتبره من كتاب الله إذا تناولناه، هو أن نراه واصلا إلينا الآن من حضرة الله جل ذكره على الهيئة التي هو عليها بين دفتي المصحف وعلى عنوانه: (**ذلك الكتاب لا ريب فيه**). والشاهد في كونه واصلا إلينا من الله على تلك الهيئة، هو ما قدمناه في حديث أبي جمعة، ومن المعلوم أن كتاب الله لا يأتي إلا من الله، ولا يشكل عليك من أن جمع المصحف وتنظيمه على الهيئة الحاضرة، وبعثه للأمصار، هو من أثر الصحابة - عليهم رضوان الله - نعم كان ذلك، ولكنهم مسخرون. قال تعالى: (**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**). فقد تولى الله حفظه كما تولى إنزاله، فيكون هو الجامع له، والمنظم له في الحقيقة على الهيئة السابقة في علمه، وهذا باعتبار ترتيب السور مع بعضها هل كان ذلك توقيفيا، أو باجتهاد من الصحابة؟ وأما ترتيب الآي في سورها فهو بوحي من الله على ما جاء به الأثر، وانعقد به الإجماع. قال القاضي أبو بكر فيما نقله الجلال السيوطي عنه: أن الذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزله الله، وأمر بإثباته ورسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله، هو هذا الذي بين الدفتين، الذي حواه مصحف عثمان، وإنه لم ينقص منه شيء، ولا زيد فيه شيء، وأن تنظيمه وترتيبه ثابت على

ما نظمه الله تعالى ورتبه عليه رسوله. قلت:ونزلت الأنوار حافة به والملائكة من حوله، موصلة لمعانيه بوحي من الله للقلوب المستعدة.

أخرج أحمد في مسنده عن معقل ابن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «**البقرة سنم القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً**». وهل ترى أن الملائكة النازلة إلى الأرض مع هاته السورة بلغوها وتركوها بالأرض سدىً، كلا، لن يزال كتاب الله بعناية الله محفوفا مشيعا بالملائكة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وإلى الله تصير الأمور. ولا يوهمك عبث الشياطين ببعض أجزائه، فإن حفظه وتشييعه في الجملة من حيث وجوده بين أفراد الإنسان. وأما كون البقرة سنمه وذروته دليل على تنظيم الله له في سابق علمه، وعلم رسول الله ﷺ بهيئته الحاضرة.



الكـــلام فـي:

بِسْـمِ اللهِ الْرَّحْمَـٰنِ الْرَّحِيـمِ

أقول: إن افتتاح الكتاب العزيز بالبسملة لفظا وخطا، فيه ما يشعرنا بلطف الله بعباده، وإن مع إعراضهم عنه، وذلك أن التالي أو القارىء لكتاب الله مهما يرسل طرفه ويحرك لسانه إلا ويلتصق بِـ (**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ**). فيكون ذاكرا للإسم متبركا به من حيث لا يشعر، قصد أو لم يقصد، حب أم كره، بخلاف ما لو لم نؤمر برسمها لتشعبت المقاصد واستحكمت الغفلات، فقد ينساها قوي الإيمان، ويتعلل المنافق بالنسيان. ولما تعينت كتابة وقراءة رفع الإحتمال.

ثم إن الحكمة في مشروعيتها عند كل فعل ذي بال، يقضي برفع امتياز الجبابرة، حتى لا يبقى جبروت لأحد على الآخر، لأن الأمم غير الإسلام كانت قديما وحديثا تتبرك بذكر ملوكها وأمرائها، حتى إذا أراد أحدهم أن يتناول مشروبا مثلا يتناوله باسم الملك والأمير، وبالأخص إذا كان بحضرته. ولما جاء الإسلام بالتساوي بين أفراد الإنسان، وأن لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله. أمر الشارع أن لا يذكر إسم عند فعل ذي بال إلا إسم الله، إلا إذا كان الفعل غير مأذون فيه من جهة الشرع، فجل إسم الله أن يكون ذريعة لفعله، والحكمة في ذلك لكونه تعالى لم يأذن فيه، فكأنه يقول لفاعله: أنا ما شرعته لك، ولا أذنت فيه، فأنت شرعته لنفسك، فافعله باسمك لا بإسمي. فمن شرع شرعا نسب إليه.

ثم إن (**الباء**) في (**بسم الله الرحمٰن الرحيم**). جاءت للإلصاق، فهي ملتصقة بالله، لأن الإسم غير فاصل بينهما، لكونه عين المسمىٰ عند القوم وجمهور الأشاعرية، فصار الإبتداء بالله، فمنه بدأ الأمر، وإليه يعود.

الإستنبــــــاط

يستخرج من البسملة أربعة أحكام:

الأول: تعيين الإتيان بها على كل كاتب وقارىء، مهما كان المشروع فيه محموداً، ويؤخذ من تصديره تعالى بها أول الكتاب.

الثاني: فهمنا عنه تعالى أنه يريد أن يثنى عليه من عباده بالجمالية، أكثر منها من صفة الجلال، ويؤخذ من تصديره بالإسمين الشريفين (**الرحمٰن الرحيم**) نعتا للذات.

الثالث: علمنا أن بين الإسمين بونا، وإن مع اشتقاقهما من صفة واحدة، وإلا كان عطف الرحيم على الرحمٰن من قبيل التكرار.

الرابع: علمنا أن الإسم هو عين المسمىٰ، وإلا لما صحت الإستعانة به دون مسماه الذي هو الله.

الإشــــــارة

إن إلتصاق (**الباء**) باسم الجلالة مع أنها ليست من أبنيته، فيه ما يشعرنا بأن جميع ما في الوجود على اختلاف الحقائق وتباين الطرائق إلا وهو ملتصق (**بالله**)، ولا تفهم أنه مماس له، فجل ربنا أن يماسسه شيء من الحوادث، وإذن لتلاشى الحادث

لعدم ثبوته، مع من له وصف القدم، إنما نعني به التعلق والتحقق، والمعنى أنه قائم بالله لا بنفسه، فوجوده مستعار من وجود موجده على حد ما قيل:

من لا وجود لذاته من ذاته ☆ فوجوده لولاه عين محال

وأما استطالة الباء، وخروجها عن مقتضى عادتها، فليس ذلك إلا لاتّصالها بالإسم، فالمتصل بالمسمى من أهل الله أولى بالإرتفاع على أبناء جنسه. وأما نيابتها عن الألف المحذوفة من الإسم تشير إلى نيابة الوارث المحمدي عن الله في خلقه (**يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض**) (**ومن يطع الرسول فقد أطاع الله**). وأما مجيء البسملة في ذروة الكتاب وسنمه، يشير إلى ارتفاعه تعالى واستوائه على عرشه، ولما كان الإستواء على غير ما تفهمه العموم من الاحتواء، بل هو موجود في كل فرد من أفراد الوجود. جاءت البسملة على ذروة كل سورة، طالت أم قصرت، (**وهو معكم أينما كنتم**). ثم إن اندراج جميع ما في الكتاب تحت (**بسم الله الرحمٰن الرحيم**). على ما جاء في بعض الأثر، يشير إلى انطواء جميع الأشياء في وجود موجودها، والمعنى أن ما فيها مفرع عما فيه، (**وإن من شيء إلا عندنا خزائنه**).

وأما تقديم إسم الجلالة على غيره من أسماء الله الحسنى، يشير إلى تخصيص الذات بالسابقية، وكمون الأسماء والصفات في حال الكنزية. وأول إسم جاء بالبيان (**الرحمٰن فاسأل به خبيراً**). ولهذا جاء وصفا لِلّهِ في البسملة دون سائر الأسماء، ولولا سابقيته في الظهور لما حاز رتبة الاستيلاء (**الرحمٰن على

العرش استوى) فهو السابق من جهة الاستيلاء دون غيره من سائر الأسماء الجلالية والجمالية، وإليه الإشارة في بعض الأحاديث القدسية، الذي معناها الرحمة سابقة للغضب. فباستواء **(الرحمٰن)** على الأكوان، تنعم الكافر وتمرد الشيطان.

وأما إسمه **(الرحيم)** فهو آخر التنزيلات، فأثره مستتر في آثار المخلوقات، وإليه الإشارة في الحديث : « **الرحيمون يرحمهم الله** » « **ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله** »، فبرحيميته فيهم استوجبوا الشكر، والشكر لِلَّهِ. وأما كون الباء في البسملة تطلب متعلقا، وأنه فعل وأنه محذوف، فيه إشارة إلى طلب الصفة متعلقا يستوجب ظهورها، وأن ذلك المتعلق يكون فعلا للذات، غير أنه يكون محذوفا، أي مقدرا، فلا وجود له في نفس الأمر مع موجده، وهذا هو الفرق بين الوجودين، وهل يقدّر مقدما أو مؤخرا، فذلك باعتبار المتوجهين لِلَّهِ؛ فالمستغرق في عظمة الله لا يراه البتة، ولا يصفه، لا بوجود ولا بعدم، فضلا عن أن يراه مقدما أو مؤخراً. وأما المحصل على رتبة الشعور فهو يقدره مؤخرا، لأنه يراه تعالى قبل رؤية الفعل، فيستدل بالله عليه، وأما السائر فلابد له من تقديره ورؤيته قبل رؤية فاعله، ليتوصل به إليه، وشتان بين من يستدل به، وبين من يستدل عليه.

لســـان الـــروح

إن الضمير الساكن المفهوم من خفضة الباء المؤول في بعض الألسن على ما يقتضيه السر المصون : « بي كان ما كان، وبي يكون ما يكون » هو راجع للصفة الفعلية المعبر عنها بالقبضة

النورية في ألسنة الصوفية، فهي القائلة لحضرة القدم والكنز المطلسم على لسان الباء للإسم الأعظم: «فبي إسم الله، فأنت أظهرتني، كما أنا أظهرتك، فكما أنك رفعتني رفعتك، وعرّفتني عرّفتك»، وأنشد لسان حالها قائلا:

فلولاك ما كنا ولولاي لم تكن ☆ فكنت وكنا والحقيقة لا تدرى

فإياك نعني بالمعزة والغنى ☆ وإياي نعني بالفقير ولا فَقْرَا

فالقدير بالمقدور قادر، والبصير بالمبصور باصر. وهكذا النظائر.

ولما كانت الافعال مظهراً للأسماء والصفات دون الذات، التصقت الباء باسم دون المسمى الذي هو الله، لتكون إشارتها عائدة عليه في الإظهار. وأما الذات فهي التي أوجبت لها الاضمار، لأنه تعالى ظاهر بذاته، ما لم يعتبر الفعل، وإلا كان باطنا بذاته، ظاهرا بصفاته.



فاتحة الكتاب

سَبْعُ آيَتٍ، وَتُسَمَّىٰ أُمُّ الْكِتَابِ أَيْضاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ، مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّآلِّينَ

في كون البسملة آية منها أو هي آية من كل سورة، أو ليست آية إلا في سورة النمل، أو غير ذلك اختلفت الروايات، والأولى عدم القطع بذلك، والإتيان بها في أول الفاتحة في الصلاة احتياطا. ثم إن الإضافة في تسميتها على معنى اللام، أي فاتحة للكتاب، ولو كانت الإضافة على معنى من لصارت المعنى فاتحة من الكتاب، والحالة أن الكتاب منها لاشتمالها على معانيه، وإذا قلنا هي فاتحته وأمٌّ له، لزم أن تكون خارجة عليه خروج الأم على الإبن ضرورة، ولهذا لم ترسم في المصحف عند بعض الصحابة، وهو غير متناول للفكر العام من جهة كونها خارجة عنه موجودة فيه

الإشـــــارة

فذات الباري جل ذكره بائنة عن الكون موجودة فيه، فبينونيتها عنه من حيث الرتبة التنزيهية، والكينونية من حيث القيومية، ولا تقل بانفراد أحد الشقين، لأن الأول محط الإنفصال،

والثاني مظنة الإتصال، وكلاهما محال لعدم المنفصل عنه والمتصل به. ولا يوهمك وجود الظلال، فالمخيل لا يثنى بوجود الخيال، فكل شيء يشفع بمثله ويضم لشكله، والحق ليس كمثله.

الحكمة

إن تصدر الفاتحة في أول الكتاب، فيه رحمة من الله بالقاريء، وتعليم وتلقين وتوقيف للعبد على خطة الأدب، ليقوم بما وجب عليه من الشكر، حيث صيره أهلا لمواصلته تعالى: وهي نعمة لا يوازنها شكر، وكان العبد أبعد من أن يتفطن لمثل ذلك، وحتى لو تنبه، لم يدر ما هي صيغة الحمد، وما هي الكيفية التي تطلب منه عند تناوله الكتاب، والوقوف مع الله في حالة الإقتراب، فجاءت الفاتحة من الله تعالى كافلة بجميع ذلك، وأجراها الله على لسان كل متناول الكتاب، قصد أو لم يقصد، فهو آخذ بحظٍّ من الشكر على كل حال، فإنه أول ما يجريه الله على لسانه أن يخصصه تعالى بجميع المحامد، ثم يعترف له بالربوبية، وأن لا رب سواه في جميع العالمين على ما تقتضيه الإضافة. ولما كان المربوب قد يعترف لربٍّ بربوبيته عليه بدون ميلٍ ولا حنوٍّ عليه، فاستجلبه تعالى واستعطفه بجنابه ولطفه بأن قال له: إن الرَّبَّ الذي أنت مربوب من أجله (**رحمٰن رحيم**) لتتعلق العبودية بالربوبية تعلق رغبة لا رهبة، ولما استوثقت من حضرة التكريم، واستوطنت بين الإسمين (**الرحمٰن الرحيم**) خشي تعالى أن يغمرها من الرحمات ما يخرجها من مقتضى التعبدات، فأوقفها تعالى عند مركز الاعتدال، فاستجلبها

بالجمال، وهددها بالجلال، فأخذت حظا من التمكين بقوله تعالى: (**مالك يوم الدين**)، وبما أجراه على لسانها من صفة العدل، وأنه لابد من يوم الفصل، فلزم بالطبع أن تلتجيء إلى حصنٍ حصينٍ، فلقنها تعالى أن تقول: (**إياك نعبد وإياك نستعين**). فبالشق الأول تقاوم العدل، وبالثاني تستوجب الفضل. ولما كان الشق الأول لا يقوم بانفراده، لأنه في الغالب معلول. والشق الثاني متعذر الحصول، وفي الغالب يكون دعوة باللسان، والدعوة تحتاج إلى بيان، ألهمها تعالى أن تسأل الهداية إلى ذلك السبيل القويم بقوله: (**اهدنا الصراط المستقيم**)، ولما كان العبد قد اخترع لنفسه صراطا، قيده تعالى بقوله: (**صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**). فاتضح أن الصراط المسؤول في السورة لا يكون إلا بين أهل السنة والجماعة، ومن تمام لطفه تعالى بالعبد أن حذف كلمة (**قل**) من الفاتحة جريا على خلاف عادته من تصديرها في أوائل الخطاب، كقوله: (**قل هو الله أحد**)، (**وقل الحمد لله**) في غير الفاتحة. وكل هذا ليكون العبد هو الحامد حقيقة، قائلا: (**الحمد لله**)، حالة وقوفه مع الله، أو حالة تناول الكتاب بخلاف ما لو جاء في أولها (**قل الحمد لله**).

الإشـــــارة

تفيدنا أن في العبادة عبودة، وأن الحقائق في الشرائع موجودة، وهي سريرة خصصت بالخفاء، تدق عن البصائر فضلا عن الأبصار، وهي التي تصحح الوقوف مع الله الأحد، وإن كان يتواجد، وتنفيه عن الآخر، وإن كان يتعبد، ولولا أن في الصلاة

غاية، وفي السير نهاية، ما أجرى الله على لسان العبد وهو في الصلاة أن يسأل الصراط المستقيم، ففهمنا من هذا أن فعل الجوارح ليس هو بالغاية كافل، وإلا كان المسؤول من قبيل تحصيل الحاصل:

التفسير

(**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) الحمد هو الثناء بالجميل على من يستوجبه، والألف واللام فى الحمد للجنس، واللام في (**لِلَّهِ**) للإستحقاق، فتصير المعنى: إن الحمد من حيث هو، وعلى أي لسان برز راجع لله، شعر الحامد أو لم يشعر، فيكون شكرك زائدا لكرمه، ومدحك اللولؤ لصفائه راجع لِلَّهِ، ويكون هو المحمود تعالى بكل لسان، المعبود بكل جنان، لأن الجمال من حيث هو مستعار من جماله، فلا يرجع الحمد بهذا الإعتبار إلا إليه، (**ولله يسجد من في السموات والأرض، طوعا أو كرها**)، ولهذا يقال: «لو حمدوا، وأي شيء حمدوا، وما حمدوا غيره، ولو عبدوا، وأي شيء عبدوا، ما عبدوا غيره». ثم إن إسم الجلالة علم على الذات المستحقة لجميع المحامد، ولهذا كان الحمد له لا لغيره من الأسماء، لأن إسم الصفة لا يستوجب سائر المحامد من كل الوجوه كما يستوجبه إسم الذات.

وأما إسم الرب هو اللائق بالعالمين من غيره، فلهذا أضيف لها، فهو كافل بتربيتها كيفما تنوعت، وحيثما كانت وانتشرت، ومن رأفة هذا الإسم وتربيته للموجود أنه يشتغل بالعبد، حتى كأنه ليس له عبدٌ سواه، مع أن العبد يغفله ويخالفه، حتى كأن

له أرباب متفرقة، ولو تأمل تربيته له من حيث انفصاله من صلب أبيه نطفة إلى رحم أمه سلالة، إلى أن صار مضغة، ثم علقة، ثم وثم، إلى أن صار سميعا بصيرا، لقال: **(فتبارك الله أحسن الخالقين)**.

ثم إن العالمين جمع عالم، وهو عبارة عما سوى الله في الجملة، ومجيئه بهذه الصيغة يفيدنا أن له تعالى عوالم لا غاية لها من جهة الكثرة. قال ﷺ: «**إن لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم كعالمكم هذا**». وعن أبي سعيد الخدري: «**إن لله أربعين ألف عالم، الدنيا من شرقها إلى غربها عالم واحد**». ذكره الشبرخيتي. وقال كعب الأحبار: «ما يحصي عدد العوالم إلا الله». وعلى هذا يحمل الحصر في الحديث على التكثير، ولا وجهة لمن حصر العوالم في هذه الكرة الارضية، إلا عدم انتباهه لسعة ملك الله، ولو التفت الإنسان من خلفه وعن يمينه وعن شماله، لوجد ما فاته أكثر مما حصل عليه، ولو تمعن في أحد الكواكب الصغار لوجد فيه من خلق الله وكبر الجرم ما يغنى عن الإعتبار.

ذكر الغزالي - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ دخل على أصحابه ذات يوم، وهم يتفكرون، فقال: «**ما لكم لا تتكلمون؟ فقالوا: نتفكر في خلق الله عز وجل. قال: فكذلك فافعلوا، تفكروا في خلقه، ولا تتفكروا فيه، فإن بهذا المغرب أرضا بيضاء، نورها بياضها، وبياضها نورها، مسيرة الشمس فيها أربعون يوما، بها خلق من خلق الله عز وجل، لم يعصوا الله طرفة عين. قالوا يا رسول الله، فأين الشيطان منهم؟ فقال: لا يدرون خلق الشيطان أم لا. فقالوا أَمِنْ أولاد آدم؟ قال: لا يدرون خُلِقَ آدم أم لا**».

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله أرضا بيضاء، مسيرة الشمس فيها ثلاثون يوما مثل أيام الدنيا، مشحونة بخلق الله، لا يعلمون أن الله تعالى يعصىٰ في الأرض، ولا يعلمون أن الله تعالى خلق آدم وإبليس**». ذكره الغزالي في «جواهر القرآن».

وبالجملة، إن حصر العوالم في جرم الأرض هو من التحكم على الله، وليس هو من العلم في شيء. وإني جمعت كتابا فيما يتعلق بهذا الباب، وسميته: «مفتاح الشهود في مظاهر الوجود»، فراجعه فإنه من أعجوبة الدهر.

قوله تعالى: (**الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ**) هما إسمان، أحدهما جامع، والآخر مانع. فقولنا في الأول جامع، أي كافل بجلائل النعم، فكل نعمة تدرك بداهة يستشعرها العبد من نفسه، فهي من آثار الرحمٰن، وما دق ورق هو من آثار الرحيم. وقولنا في الثاني مانع، أي من أن يكون لغيره في الرحيمية أدنى اكتساب، إلا مجرد الانتساب لمن صدرت على يديه. (**الراحمون يرحمهم الله**).

لسان الروح

في (**الرحيم**) من المبالغة ما ليس في (**الرحمٰن**) فهو بالجزئيات أَلْيَقُ، وبالعبودية أشفق، يبذل من الفياض ما وافق الاستعداد، مستوطنة السفلية، يتلطف مع الكبير، ويتعطف على الصغير، فهو بالتواضع حقيق، قائم على كل طريق، يسقي الظمآن، ويغيث اللهفان، ويطعم الجيعان، ويقود الأعمىٰ، ويؤنس الغريب، ويعود المريض فلو، رأيته لأشفقت من حاله، وبالأخص عند التنزل الأخير حيث اتصل بالأرحام، ليستخرج الجنين بين فرثٍ ودمٍ.

قوله تعالى: (**مَلِكِ يَوْمِ الْدِّينِ**) أي يوم الجزاء، ففيه توفى كل نفس ما كسبت، ولَولا ذكره تعالى هذه الجملة عقب (**الرحمٰن الرحيم**) لما التجأت الموجودات أن تقول: (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) لما أغمرها من فياض الرحمانية وأنوار الرحيمية. ثم إن العبادة جاءت على شقين، فظاهرها إياك نعبد، وباطنها (**إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**)، والظاهر يعتبر بباطنه. فالشق الأول يثبت وجود الكسب، والثاني ينفيه، والنجاة فيما بين ذلك، فالآخذ بالشق الآخر يخشى منه، والآخذ بالأول يخشى عليه.

الإشـــــارة

في قوله: (**إياك نعبد وإياك نستعين**) تشعرنا بلزوم ارتباط الشريعة بالحقيقة، فالشق الأول من الآية شريعة، والشق الثاني منها حقيقة. الأول يثبت شيئا من الكسب، والثاني ينفيه، فالأول للنظر العام أقرب، والثاني عند الخواص أرغب، لأن الأول عمل لله، والثاني عمل بالله، فالأول عمل الأبرار، لأنهم قائمون لله، والثاني عمل المقربين، لأنهم قائمون بالله، فالأول غايته طلب الجزاء، والثاني كفى به جزاء، لأن الأول علته لأداء واجب التكليف، والثاني زبدة نتائج التعريف، فالشق الأول مكابدة، والثاني مشاهدة، فهذا يتألم في عبادته، والآخر يتنعم في مشاهدته، (**كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك**). وقدمت العبادة على الإستعانة نظرا للمقام العام، حيث يعتبر الفعل قبل مجريه، وأما النظر الخاص يعتبرها مؤخرة، فهو غائب عنها في شهود مجريها، فالأول يستعان بالعبادات عليه، والثاني يستعان به عليها، فيكون هو الفاعل فيها لا غير. وفي تقدم ضمير

المعبود واتّصال ضمير العبودية، وتأخير العبادة في قوله: (**إياك نعبد**) ما يشعر العبد بقربه من الله بالأصالة مهما عرف مكانته من الله قبل وجود العبادة، فلا تكون هي العلة في تحقيق الإتصال، لقوله ﷺ: «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله**»، والمعنى أن وجود العبد أسبق من العبادة، فالمعرفة ثم العبادة، فالمعرفة تستلزم العبادة ولا عكس.

وأما انتقاله تعالى من ضمير الغيبة إلى ضمير الحضور من قوله: (**الحمد لله**) إلى قوله: (**إياك نعبد**) فيه تعليم للمتوجه، كيف ينتهي سيره من الغيبة عن الله إلى الحضور معه، إلى أن تنحذف الوسائط، ويصير الخطاب بين مُخَاطِبٍ وَمُخَاطَبٍ (**إياك نعبد وإياك نستعين**) لا غير.

لسان الروح

يفنى ضمير النون من (**إياك نعبد**) في ضمير (**إياك نستعين**) حتى إذا انحصرت العبادة في الاستعانة، بقيت الإستعانة والمعين، فأين العبادة والعبد، إن كنت ذا يقين، فسره يعبده، وحقيقته تشهده، ما عرف الله من قال: (**إياك نعبد**) ولا عبده من قال: (**إياك نستعين**).

☆ ☆ ☆

قوله تعالى: (**اهْدِنَا الصِرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**) الهداية أنواع: وهي عبارة عن ملكة تحدث في الإنسان وفي غيره من الحيوان، تلهمه المنافع والمضار، بقدر استعداده لذلك، وهي في الإنسان على شقين: فالشق الأسفل منها يتصل بالحيوان، والشق الاعلى منها

يتصل بملائكة الرحمٰن، وهو المراد به.

ثم إنه في الإنسان على قسمين أيضا: فمنهم من هداه الله، ومنهم من زادهم هدىً. فأما من شرح الله صدره للإسلام، بأن أوقفه على الصراط المستقيم، فانتهى به السير إلى جنة النعيم، فقد اهتدى، وأما من زاده هدىً فهو المشار إليه بقوله: **(يهدي الله لنوره من يشاء)**.

ثم إن الصراط المستقيم هو عبارة عن شريعة نبوية وخطة سماوية، وهذا باعتبار العبادة العملية، وأما باعتبار العبادة العقلية أو نقول الاعتقادية، فهو عبارة عن خطة جامعة بين طرفي المتناقضين نحو الإفراط والتفريط، فهو أدق شيء على الإدراك، يتعذر سلوكه بالانفراد وإن مع وجود الاستعداد. فالواقفون عليه كثيرون، والسائرون عليه قليلون، والواصلون أقل.

لسان الروح

سألت مسؤولا عن صراط العقول، فأجاب قائلا: خطة رقيقة وسيمة دقيقة، متعذرة السلوك، كثيرة الشكوك، بين جبر واعتزال مبدؤه، وتنزيه وتشبيه وسطه، وحرية وتكليف غايته. فالميل لأحد الشقين مضر، والجمع بينهما متعذر إلا لذي الجناحين المسمىٰ بواحد في اثنين، قلت: عز المنال، وندمت عن السؤال.

☆ ☆ ☆

قوله تعالىٰ: **(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّآلِّينَ)**. فائدة الإتيان بهذه الجملة التنصيص عن الصراط الأول، لأن الثاني بدل منه، وفيها بيان لوصفه بالإضافة،

وتحذير من الميل إلى أحد الشقين، المغضوب عليه والضالين.

ثم اعلم أن من ضل عن السبيل أقرب في الرجوع إليه من المغضوب عليه. وبيان ذلك أن من ضل عن الصراط ليس بمغضوب عليه. فهو في التيه، إلى أن يأخذه الله بيده. إنما المغضوب عليه من عرف الصراط ولم يسلكه، وعرف الحق حقاً ولم يتبعه، ألا ترى أنه نسب الضلالة لهم، والغضب لنفسه، فمن باء بغضب من الله أشد حسرة ممن ضل عن سبيله، والملتجأ لله منهما معا.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**الحمد لله... إلى قوله: ولا الضالين**) إثنا عشر حكما:

الأول: علمنا أنه لا شيء أسرع من مرضاة الله من الاعتراف له بإنعامه، من تصديره تعالى بجملة الحمد في أول الكتاب.

الثاني: علمنا باعترافه تعالى لعبده بالمربوبية وإن لم يعترف له العبد بالربوبية من قوله: (**رب العالمين**)، حيث سوى بين أفراد العالم على ما تقتضيه الإضافة.

الثالث: علمنا بوجود عوالم لا تحصى كثرة من ذكره لها تعالى بصيغة الجمع.

الرابع: علمنا بأن الجمالية في نعوت الألوهية أسبق مكانة من الجلالية من تقدم الإسمين (**الرحمن الرحيم**) على غيرهما من سائر الأسماء.

الخامس: علمنا بأنه تعالى لا يظهر في يوم الجزاء إلا بصفة العدل، لا بالجمالية المحض، ولا الجلالية المحض، من قوله: (**ملك يوم الدين**).

السادس: علمنا بأن الإسلام جاء على شقين: تحقيقا وتشريعا من قوله: (**إياك نعبد وإياك نستعين**).

السابع: علمنا بأن الحقيقة لا يتوصل إليها الساعي في الغالب إلا بعد ما يبذل جهده فيما وجب عليه من تقديمه تعالى: (**إياك نعبد**) على (**إياك نستعين**).

الثامن: علمنا بمطلوبية الجماعة في الصلوات الخمس من إتيانه تعالى بضمير الجمع في قوله: (**نعبد**) لأن المقام مقام تذلل لا يصلح للمعظم نفسه.

التاسع: علمنا بأن الصلاة شُرِعَتْ للمناجاة من إتيانه تعالى بضمائر الخطاب من قوله: (**إياك نعبد وإياك نستعين**) إلى آخره.

العاشر: علمنا بأن أهم شيء أولى بالسؤال من الله، أن يسأله العبد الهداية إلى الصراط المستقيم.

الحادي عشر: علمنا بأن الحق يريد منا رفع الهمة، بأن نسأل منه أرفع المنازل لا أدناها، من قوله: (**صراط الذين أنعمت عليهم**). ولا شك أن منهم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

الثاني عشر: علمنا بأن المغضوب عليهم أسفل دركةً من الضالين من التنصيص عليهم أولاً.

الإشــــــارة

إن أمره تعالى بالسؤال صراط المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فيه تشجيع وإغراء على طلب المنازل العالية، ودلالة على بقاء الخصوصية، وعلى أنها ليست وقفا على من مضىٰ من البرية، ما دامت هذه السورة على الألسن مجرية. فسؤال صراط المنعم عليهم مشروع، والوصول إلى غايته ليس بممنوع، إلا ما كنبوءة النبي فممنوعة، وأما ولايته فموروثة.

☆ ☆ ☆

قوله تعالىٰ: (**آمِينْ**) هي إسم فعل، ومعناها استجب. قال رسول الله ﷺ: «**لقنني جبريل آمين عند فراغي من قراءة فاتحة الكتاب. وقال: إنه كالختم على الكتاب**».

وعن وائل بن حجر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا قرأ: «**ولا الضالين. قال: آمين، ورفع بها صوته**»، وليست من القراءة اتفاقا. وعلى هذا يكون الإتيان بها عقب الفاتحة سنة، وفي عدم إتيان الإمام بها في الجهرية خلاف، وفيه نظر، لأن الحديث يتضمن الجهر.

الإشارة في عموم السورة

إن افتتاح الفاتحة بالإسم الشريف واختتامها بـ (**ولا الضالين**) لذكرى للذاكرين. جاء الإسم الأعظم على منصتها يشير إلى استيلائه على عروش حقائقها، حقية أو خلقية، ولما أخذ الحظ الأكمل من الظهور أخذ في التدلي والتنزل، ليحوز رتبتيْ

البطون والظهور، حتى بلغ من الاختفاء غايته، وبالأخص عند التنزل الآخر المغضوب عليهم والضالين، فكاد أن لا يعرف،(**لا تدركه الأبصار**)،جاء في الأثر ما يدل على أن الفاتحة قسمت بين العبد وربه، فحظ العبودية الشق الأسفل منها. ولما كانت الربوبية مقتضى الظهور، والعبودية مقتضى البطون، جاءت أسماؤه تعالى في الشق الأعلى منها مظهرات، وهي: **الله، والرب، والرحمٰن، والرحيم، والملك،** فهذه خمسة كلها مضمرات، ثم ذكر نفسه في الشق الأسفل منها في خمسة مواضع أيضا كلها مضمرات وهي: الكاف في قوله: (**إياك نعبد**)، والكاف الثانية من قوله: (**إياك نستعين**) وضمير الفاعل من قوله: (**إهدنا**) والتاء من قوله: (**أنعمت عليهم**)، والفاعل المحذوف من قوله: (**المغضوب عليهم**)، فـ (**عليهم**) مرتفع على نيابة الفاعل، فهذه خمسة من أسمائه تعالى ذكرت مضمرات، مقابلة للخمسة المظهرات، فحصل التقابل، وتم التعادل، فاتضح حينئذ أنه الظاهر فيما ظهر، والباطن فيما بطن، وحيث ما كان فهو الله، (**وهو الذي في السماء إلَهٌ وفي الأرض إلٰهٌ**).

ثم اعلم أن أول التنزلات التحقت بالذات صفة الربوبية، ولهذا ذكرت بعد إسم الذات على البدلية، ثم الرحمانية، للزوم الإستواء، (**الرحمٰن على العرش استوى**) فبموجب ذكر العالمين تعين الإستواء. ثم الرحيمية فيما بين المستوى عليه، وهي داعية الإئتلاف، ثم الملكية للفصل إن كان خلافا، ولما وصلت الربوبية إلى هذه الغاية في التنزل، وهو الفصل فيما بين العباد، ولولا هذا التنزل الآخر لما تعلقت بها العبودية قائلة: (**إياك نعبد**

وإياك نستعين)، ولما صح الإلتجاء، واتضحت المحجة ذكر نفسه تعالى مضمرا، أداء لواجب البطون، غير أنه مصدر أول الخطاب، (**إياك نعبد وإياك نستعين**) ثم أخد في الإضمار، وتأخر عن صدرات الكلام في الفعل من (**اهدنا**) والتاء من (**أنعمت**)، ثم اختفى البتة في المغضوب، لا نونا ولا تاء، لكن مع بقاء الفاعلية بعد التقدير، ثم تجرد عن (**الضالين**)، فمع كونهم مفعولين صيرهم فاعلين، فهذا هو حدُّ الخفا، وهذا الظهور لأهل الصفا.

لسان الروح

يستبعد أن يرى أول جزء من الفاتحة، أي الحمد مجردا عما بعده، بل يراها بما فيها لله، وإلا لم يكن الحمد لله، لأن الحمد إسم لجميع السورة، وهو الله.

سورة البقرة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ أَلَـمَّ

لا حظ لتفسير في ذلك، إلا مجرد الله أعلم بمراده.

الإشارة

تفيدنا أن الألف من إسم الله، واللام من جبريل والميم من محمد ﷺ، وإذا وصلت الحروف ببعضها جاءتك الإشارة قائلة: ألم يكن ذلك الحق؟ بلى! الله الذي أنزل الكتاب إلى محمد بواسطة جبريل، لا زائد على ما به الإشارة. كان القرآن متعلقا

بالألف، ثم اتحد مع اللام، ثم استجمع في دائرة الميم. ومن المعلوم أن الكتاب متواصل من الله إلى جبريل إلى محمد، ووجه اختصاص الألف بإشارته للألوهية لاستقامته، وكونه أول الحروف الهجائية وآخرها همزة، وظهر في الحروف، لأنها مأخوذة من مساحته، فما الحاء إلا ألف محدودب، والميم ألف مستدير، وباطن فيها من جهة كونه **(لا تدركه الأبصار)** في دائرة الميم مثلا، واللام يشير إلى جبريل لقربه من الألف من جهة الصورة لا من جهة الجر والإنعطاف، والميم تشير إلى محمد ﷺ لانتهائه في دائرة العبودية، فهو العبد على الحقيقة، فبانعطافه انتهىٰ أوله في آخره غاية في الإستعداد، **(إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)**.

قوله تعالىٰ

ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ، هُدىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ

التفسير

قد تقدم أن أهم شيء نعتبره من كتاب الله إذا تناولناه، أن نراه واصلا إلينا من حضرة الله عز وجل على تلك الهيئة بين دفتي المصحف، حتى إذا تناوله الإنسان بهذا الإعتبار، يجد على عنوانه **(ذَٰلِكَ الْكِتَابُ)** المتناول **(لَا رَيْبَ فِيهِ)** في كونه واصلا من الله، ولا شك في جميع ما تضمنه، والذي يشعرك بكونه مبعوثا إلينا بالخصوص لا لمن كفر بالله، هو قوله:

(**هُدىً**) وقالت طائفة من المسيحيين ممن يقول بنبوءة محمد ﷺ مع بقائها على النصرانية، إن الإشارة في قوله: (**ذَٰلِكَ الْكِتَابُ**) عائدة على الإنجيل، وقوله: (**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**) إلى آخر الآية راجع للنصارى. وأما الذين كفروا من قوله تعالى: (**إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**)، راجع لليهود. وأما المسلمون فهم المشار إليهم بقوله (**والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، وبالآخرة هم يوقنون**... إلخ). غير أن هذا القول لم يقل به ولو واحد من المفسرين فيما بلغنا.

(**لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**). فدل هذا على أن الكتاب مبعوث لمن سبق له عهد مع الله، حيث كان يؤمن بالغيب ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، فدخلنا بهذا الإعتبار مع كل من سبق له عهد مع الله، لا فرق بين من تقدم وبين من تأخر، وأما الجاحد فغير متهيء لبعثة الكتاب، وإنما هو متهيء لنزول الحديد الذي فيه بأس شديد ومنافع للناس، وهو من أقسام التبليغ أيضا.

ثم إنه سبق في علم الله عز وجل أن يبعث كتابا لمن أَهلَّهُمْ في سابق علمه لذلك، وأن يكونوا حجة إلى منتهى الزمان. فمن فاتته معجزة النبي لم تفته معجزة القرآن، لأنه دلَّ بنفسه على أنه كلام الله لا بشهادة الغير، لما حواه من الإعجاز لفظا ومعنىً، وخروج نظامه عما في طوق البشر، بخلاف غيره من الكتب السماوية، فإنها تتوقف صحة نسبتها لله على شهادة شاهد صادق، فمن نظر القرآن بعين الإنصاف، وتأمله بفؤاد الإعتراف، يعلم بالضرورة أنه كلام الله، وقد كنت اجتمعت في سياحة مع بعض

أحبار اليهود، فتكلمنا في التوراة ونظامه، ثم تكلمنا في القرآن وأسلوبه، وكان له حفظ من كتاب الله. فقلت له: أُتْلُ شيئا منه، ورتله ترتيلا، فاستفتح سورة (**الرحمن**)، وكان كلما مر على قوله تعالى: (**فبأي آلاء ربكما تكذبان**) تأمل ما قبله، فلم يبلغ ربع السورة حتى تلألأ وجهه عرقا، وقال: أشهد أنه كلام الله، ثم نطق بالشهادتين، واعترف بالإسلام، فافترقنا على هذا العهد، والله أعلم بما وراء ذلك.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**ذلك الكتاب... إلى قوله: ينفقون**) ثمانية أحكام:

الأول: علمنا بأن الحروف المقطعة المؤتى بها في أوائل السُّوَرِ لا تخلو عن معانٍ، وإلا لما أتى بها.

الثاني: علمنا بأن اللغز المستعمل عند القوم فيما اصطلحوا عليه مشروع في كتاب الله من قوله: (**آلٓمٓ**)، ولا شك أن معانيها ليست متعاطية للعموم.

الثالث: علمنا بكمال اعتنائه تعالى بأهل خصوصيته، حيث صدر في الكتاب بمشرب قد تنبو عنه أكثر المشارب.

الرابع: علمنا بأن المصحف كان متهيئا في علم الله على الحالة الحاضرة وفي صدره (**آلٓمٓ ذلك الكتاب**) وإلا لما عادت الإشارة إليه.

الخامس: علمنا بأن الكتاب العزيز هو صالح في نفسه أن يؤثر

فيمن سبق له عهد مع الله، وإن بدون مبلغ، مهما وصل إليه، وأما تأثيره في الجاحد لابد أن يؤازره فيه مبلغ من قوله: (**هُدًى للمتقين**).

السادس: علمنا بأن الكتاب فارغ من كل حشو وزيادة، فضلا عن الشك فيما أخبر به من قوله: (**لا ريب فيه**).

السابع: علمنا بأن الإيمان التفويضي كأنْ يتلقى الإنسان ما في كتاب الله على مراد الله، هو مما يمدح به من قوله: (**الذين يؤمنون بالغيب**).

الثامن: علمنا بأن التقوى لا تصح من صاحبها إلا بعمل الجوارح، قال تعالى: (**ويتلوه شاهد منه**)، ومن جملة ذلك إقام الصلاة لله، والإنفاق في سبيل الله، من قوله في تعريف المتقين: (**ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون**) زيادة على الإيمان بالغيب.

الإشـــــارة

إن الكتاب المشار له بذلك عبارة عما ظهر من الكائنات، راجع للعالم بأجمعه، جوهره وعرضه، (**لا ريب فيه**) أي لا شك فيه، إنه متنزل من الحضرة الأقدسية وشعاع الألوهية. واتصال الكتاب بالميم يشير بتدفقه من دائرتها، عبارة عن القبضة النورانية والحضرة المحمدية، فالكون بما فيه نوراني الحقيقة بكل اعتبار، عرفت أم لم تعرف، (**وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق**)، شاهدت أم لم تشاهد، ومن لم يره من الحق، وبالحق نزل، فقد أعوزه وجود الأنوار، وحجبت **عنه**

شموس المعارف بسحاب الآثار، فوجه إطلاق الكتاب عليه من حيث الإشارة لمناسبته من وجوه كثيرة، فمنها أن الكتاب قال فيه تعالى: (**ما فرطنا في الكتاب من شيء**). وقال في الكون: (**وإن من شيء إلا عندنا خزائنه**) والكتاب موصل إلى الله بالمقال، والكون موصل بالاستدلال، والكتاب فيه من ذكر أسمائه تعالى وصفاته، وفي الكون من ظهور أسماء الله وصفاته وآثاره، وأن الكتاب لن تزال حقيقته مستترة إلا عند الخصوص من جهة الحدوث والقدم، وما هي حقيقة النزول باعتبار صيغة الكلام، وكذلك الكون باعتبار قيوميته، وتعرفه بالحد، هل هو ذلك المَرْئِيُّ، أم (**الله نور السموات والأرض**)؟ وكما أن الكتاب متألف من حروف وألفاظ ليست مقصودة بالذات فكذلك الكون متألف من جواهر وأعراض تومي لما فيها. (**قل انظروا ماذا في السموات**). وكما أن الكتاب تنزل من حضرة العلم إلى حضرة القول، فكذلك الكون تنزل من حضرة العلم إلى حضرة الفعل. وكما أن الكتاب حوى من ذكر العلويات والسفليات، والدنيويات والأخرويات، والإثم والطاعة، والألوهيات والفرعونيات، إلى غير ذلك. فكذلك الكون حوى مثل ذلك، سواء بسواء. وكما أن الكتاب بجميع ما فيه مما تقدم يتعبد بتلاوته، وكيفما كان اللفظ على اختلاف مدلوله، (**لا يمسه إلا المطهرون**)، وهذا عند من نظر اللفظ المجرد كونه كلام الله، وكذلك الكون بجميع أجزائه عند من نظره فعلًا لله، أو نقول من نور الله، وكما أن الكتاب يضل به كثيراً، ويهدي به كثيرا، فكذلك الكون (**يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا، وما يضل به إلا الفاسقين**). ولا يهدي به إلا المتقين.

لسان الروح

(أَلَمّ) مبتدأ، خبره (ذلك الكتاب) الذي هو المظهر بأجمعه (لا ريب فيه) ولا زائد عليه، فميمه ملك، ولامه ملكوت، وألفه جبروت، فالميم مجلي الظواهر، واللام غيب السرائر، والألف فيهما ظاهر، اتصلت الميم باللام لوجود الإلتزام من حيث المكان والتكليف، وانفصلت الألف من حيث المكانة والتعريف، وبهذا التقرير يستغنى عن كثرة الكلام، وتكون الميم خبرا عن اللام، وكلاهما خبر عن الألف، واتحدت حرية وتكليف، بطون وظهور، وإلى الله تصير الأمور.

قوله تعالىٰ

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

التفسير

فلما ذكر الصنف الأول، وهو المبعوث الكتاب من أجله، ذكر الصنف الثاني، وهو عبارة عمن اجتمع بالرسول، فتلقىٰ منه الإيمان دون ما يشترط عليه شيئا، فذكر أن هؤلاء على هدًى من ربهم محمولون، وفي سابق علمه مفلحون، ولاعتنائه تعالى بهم بعث فيهم رسولا من أنفسهم، فتلقّي الإيمان من الرسول أبلغ في الرسوخ من تلقيه من الكتاب، وأهله أعظم حرمة عند الله من أهل

الكتاب، فمن كان الرسول بين أظهرهم أكرم ممن بقي الكتاب في أيديهم، وإن كان كلًّا وعد الله الحسنى. فالزيغ يحتمل مع الكتاب ولن يحتمل مع الرسول، ومن هنا شهادة عيسى عليه السلام على قومه: **(وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليه)**. أي لم ندر ما فعلوه في كتابي.

الإستنبـــــاط

يستخرج من قولــه: (**والــذين يؤمنون... إلى قولــه: المفلحون**) سبعة أحكام:

الأ و ل: علمنا بأن الصنف الممدوح الآن هو غير الصنف الأول، وإن أجملهما الوصف بالإيمان على ما تقتضيه المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه.

الثـانـي: علمنا بأن الممدوحين أولا هم أهل الكتاب، وبهذا يلزم جواز وصفهم بالإيمان، والتقوى والإنفاق، وإقامة الصلاة، إلى حال بعثته عليه الصلاة والسلام من ذكره لهم تعالى بذلك.

الثـالـث: علمنا بأن التقوى ليست هي نفس الهداية الخاصة، إنما هي من الأسباب الموصلة لها، وإلا لما كان الكتاب هدًى للمتقين.

الـرابـع: علمنا بأن الموقنين هم المهتدون حقيقــة، وأمــا المؤمنون فهم سائرون في سبيل الهداية، من وصفه تعالى الأولين بالإيمان، وتخصيصه الآخرين بمزيد الإيقان، وبَعْدُ قال: (**أولئك على هدًى من ربهم**).

الخامس : علمنا بأن أصحاب محمد - رضوان الله عليهم - كان أكثرهم على درجة الإيقان، ولهذا ذكرهم به، وبالاخرة هم يوقنون.

السادس : علمنا بأن أعمال القلب هي أشرف من أعمال الجوارح، وإنه يستغنى بذكرها في المدح عمن سواها مهما تحققت في شخص، من وصفه تعالى أصحاب محمد بالإيقان، قاطعا النظر عن الإنفاق وإقامة الصلاة حسب ذكره في الأولين مع تحقق الإشتراك بينهم.

السابع : علمنا بأن الصحابة رضوان الله عليهم كان أكثرهم من أهل الشهود والعيان في الألوهية، كما أنهم أهل إيقان في الأخرويات، وأهل إيمان فيما هو كالوقائع الغابرة والأحكام السالفة، وذلك يستفاد من ذكره تعالى إيمانهم مفصلا، ثم ذكر أنهم بالآخرة يوقنون، ولما لم يذكر عقيدتهم في الإله علمنا أنهم على شهود وعيان، وإلا لزم أن يكون وجود الآخرة أوضح من وجوده تعالى عندهم، لا يدخل في الإيمان بالغيب.

الإشـــــارة

في قوله : (**والذين يؤمنون بما أنزل إليك**) ترى التفخيم عائدا على من آمن بما أنزل على النبي في خاصة نفسه من العلوم المكتومة إلا على أهلها، وهذا هو وجه التخصيص، وإلا فما فائدة التنصيص، لأن الحكم العام نزل عليهم كما نزل عليه.

ثم إن الإيمان بسر الخصوصية هو من أعلى درجة في الذي عَزَّ منالُهَا للعموم، ولهذا قال في الصحابة : (**أولئك على هدًى من**

ربهم، **وأولئك هم المفلحون**). وقد أشارت أقوال الأكابر لمثل ذلك، قال بعضهم: «من صدق بهذا العلم - يعني به ما تقدم ذكره - فهو من الخاصة، ومن فهمه فهو من خاصة الخاصة، ومن عبر عنه وتكلم فيه، فهو النجم الذي لا يدرك، والبحر الذي لا يترك». وبالجملة، إن الإيمان بذلك يعتبرونه كالركن في الدين، حتى قال بعضهم: «من ليس له نصيب من علم القوم يخشىٰ عليه من سوء الخاتمة، وأقل نصيب منه التصديق بأهله، ومن فاتته المنة في نفسه، فلا تفوته أن يصدق بها غيره».

لسـان الـروح

في معنى الإهتداء يقول: من الناس من هو سائر في سبيل الهداية، ومنهم من هو في نفس الهداية، ومنهم من هو على هدًى، فإذا حصل له الإستعلاء عليها فما يبقى له إلا التجاوز، فتصير الهداية تطلبه، كما يطلبه الضلال، وكلاهما في حقه محـال.

☆ ☆ ☆

ولما أنهى الكلام على الصنفين الأولين، ذكر الصنف الثالث الذي هو أبعد من أن يرسل إليه كتاب، لبعد تأهله للخطاب فقـال:

إِنَّ الَّـذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْـذَرْتَـهُمْ أَمْ لَمْ تُـنْـذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ، خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ، وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

التفسير

أي ليسوا مستعدين لذلك، فإنذارك وعدمه على السواء، ومن هنا يتضح أن الكتاب مبعوث لمن سبقت له وصلة مع الله، فهو على كل حال أقرب إلى الهداية من غيره، وربما بنزول الكتاب يزداد هدًى، وأما من لم تسبق له وصلة مع الله، ولم يعتن بالرسول المبعوث إليه، فيكون متهيئا لنزول الحديد الذي فيه بأس شديد ومنافع للناس.

وقولنا أن هذا الصنف غير مستعد لنزول الكتاب، يؤيده قوله تعالى: (**خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ**). أي ختم عليها فلا يصلها الإنذار، ولا يلحقها الاعتبار (**وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ**) لا يصغون للحق كيفما كان، ولو جئتهم بكل حجة وبيان، (**وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ**) والمراد بها البصائر (**غِشَاوَةٌ**)، أي حجاب وغطاء، وهو المعبر عليه بالران، فلا يبصرون الحق أينما كان. (**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**) في الدنيا بالقتل والسبي وبما لحقهم من الهوان وضرب الجزية، وفي الآخرة بالنار وبئس القرار، إلا من تاب وآمن وعمل صالحا، فإن الله يتوب عليه.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**إن الذين كفروا... إلى قوله: عظيم**) خمسة أحكام:

الأول: علمنا بأن الإنذار هو صالح لمن في قلبه ولو أدنى حشاشة من الإيمان بالغيب، وأما الكافر بالأصالة فهو أبعد من أن

يصل إليه بما ختم الله على قلبه، وعلى سمعه وعلى بصره.

الثاني: علمنا بأن جميع من دخل في الإسلام بمجرد الترغيب والترهيب إلا وكان في قلبه شيء من الإيمان، وإلا لما انقاد بمجرد الإنذار، يؤخذ من قوله في حق الكافرين: (**سواء عليهم آنذرتهم أم لم تنذرهم**).

الثالث: علمنا بأن الكفر وما في معناه هو بإرادته تعالى، كغيره من الأفعال، من إسناده تعلق الفعل لنفسه في قوله: (**ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم...**) إلى آخره.

الرابع: علمنا بأن الأبصار المذكورة في قوله تعالى: (**وعلى أبصارهم غشاوة**) المراد بها البصائر، لأنها هي التي تدرك بها الحقائق.

الخامس: علمنا بأن العذاب المدخر لمن كفر بالله ورسوله، هو أبعد من أن يتصور في الفكر، من قوله: (**ولهم عذاب عظيم**).

الإشارة

لا تعتبر هذا الصنف البتة، لأنهم بمنزلة العوام، إن هم إلا كالأنعام، إنما نعتبر صنفا آخر كان بالطاغوت كافراً، وبما سوى الله في الجملة، لا يرى مع الله سوى الله، خارج عن دائرة الإنذار والتبشير، لا يزداد إيمانه بترغيب ولا ترهيب، ختم الله على قلوبهم أن يدخلها سواه، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة من أن تسمع أو ترى غيره، ولهم عذابٌ. قال مُحْيِ الدين بن العربي: «هو من العذوبة يعني بالنظر للمشار إليه».

لسان الروح

بعدما تفرس في الكفران، وجده مقابلا للعيان، ووجد الإيمان في الطرفين هالكا، لولا أن كان مركزه فيما بين ذلك.

قوله تعالىٰ

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ، يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا، وَمَا يُخَادِعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ، فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ، قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ، أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ، وَإِذَا لَقَوْا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءامَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ، اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ، مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ، ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ، أَوْكَصَيِّبٍ مِنَ

الْسَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الْصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ، واللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ، يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

التفسير

ولما ذكر سبحانه وتعالى الأصناف الثلاثة، أعقبها بذكر الرابع، وهو أخبث سريرة ممن كفر، فقال:

(**وَمِنَ الْنَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**) في نفس الأمر، إنما قالوا ذلك ليعصموا دماءهم وأموالهم، وفي ظنهم (**يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا**) بما يظهرون من الإيمان، ويضمرون من الكفر، وفي حقيقة الأمر (**وَمَا يُخَادِعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ**) فوبال أمرهم راجع عليهم (**وَمَا يَشْعُرُونَ**) بذلك، ويظنون أنهم يحسنون صنعا، ألا إنهم هم المفسدون (**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**) أي داء متوطن، وهو عبارة عن الشكوك والوساوس في عقيدتهم السالفة (**فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً**) بما أصابهم من التكذيب في بعثة النبي ونزول القرآن، (**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) أي مؤلم في الدنيا بالشكوك والوساوس وبخس القيمة بين الفريقين، وفي الآخرة بالدرك الأسفل من النار.

ثم اعلم أن النفاق داء كامن في النوع الإنساني يتوارث، ولن تزال رائحته بين أفراد الأمة تتزايد، وبالأخص في عصرنا، تجد

البعض ممن ينتسب إلى الإسلام، مهما تغذى من لبن الأجانب، ولو سار أدنى شوط في تربيتهم، يظهر فيه وصف من تقدم سواء بسواء، تجده متزيا بزي المسلمين ظاهرا في الصورة، ويخفي في باطنه ما الله مبديه، (**ولتعرفنهم في لحن القول**)، تجده يقترح على المسلمين وعلى عقائدهم وعوائدهم كل الاقتراح، ويذكر من كل من عداهم بوصف حميد، ويزعم أن ذلك من غيرته على الإسلام والمسلمين ليس هو ما يزعم هولاء، إنما الإسلام هو عبارة عن أخلاق شريفة. وهذا من المحتمل صدقه إن وجدناه عاملا بسنن الإسلام، لأن الإسلام ليس هو مجرد كلام.

الصنف الثاني هو أخبث طوية من الأول، تؤديه قريحته الذميمة وجراءته الوخيمة إلى إلقاء الشكوك والوساوس بين عوام المسلمين بما يبديه من الشبه في كتاب الله، ويزعم أنه يبحث عن وجه التطابق بين المتناقضين، بعدما يبرهن عن وجوده، ويريد أن يعرف ما هي الحكمة في صوم رمضان وفي الصلاة، وهكذا في سائر العبادات، ليعمل وهو على بصيرة، والحالة أنه يحرض حزبه أن لا يعمل، فوجود هؤلاء أدهى وأمر على الإسلام والمسلمين من وجود المنافقين الأولين، لوجود فسادهم في الدين (**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ**) بإظهار الشبه في دين الله، واتقوا الله من الفساد (**قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**) بما نريد من البحث لنكون من الدين على بصيرة، وهذا من الصلاح في أقصى غايته. قال تعالى: (**أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ**) عند الله وعند عباده المؤمنين (**وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ**) بفسادهم، لما يعتقدونه في أنفسهم من الحذاقة والذوق السليم، وأنهم أرسخ

قدما في مقامهم لا يرجعون، ولهذا قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ**﴾ أي المسلمون، أدخلوا بقلوبكم فيما دخلوا، واعملوا بجوارحكم ما عملوه، وفوضوا ما وراء ذلك لله ﴿**قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ**﴾، أي أتريدون منا أن نؤمن إيمان هؤلاء السفهاء ضعفاء الرأي، لأنهم يظنون أن ما عليه المسلمون هو من السفاهة وضعف الرأي، فرد عليهم تعالى فقال: ﴿**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ**﴾ في تصرفهم، حيث اشتروا الضلالة بالهدى ﴿**وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ سفاهتهم لظنهم أنهم يحسنون صنعا.

ثم ذكر تعالى وصفا آخر من أوصافهم فقال: ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا**﴾ الإيمان الكامل ﴿**قَالُوا ءَامَنَّا**﴾ أي يتظاهرون لهم بالإيمان وبقصد الصلاح في الدين، وأن جميع ما ظهر منهم ليس هو إلا غبطة في الدين، شفقة على الإسلام والمسلمين ﴿**وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ**﴾ وانفردوا بهم، وهم أهل الكفر الصريح، يلومونهم على مقالتهم ذلك، وعن بقاء وصلتهم مع المسلمين، ويسألونهم عن ما هي وجهتهم في ذلك؟ ﴿**قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**﴾ بالمسلمين، وما حملنا على مواصلتهم إلا ما بيننا وبينهم من العلائق والروابط ﴿**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ**﴾ الجزاء من جنس العمل، ومن استهزائه بهم أن يمهلهم ويتركهم ﴿**وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ أي يترددون ولا يعبأ بهم، لأنهم لم يضروا الله شيئا ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ**﴾ أي استبدلوا الرشد بالغي، والعز بالذل، والإيمان بالكفر، ﴿**فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ**﴾ وبئس ما فعلوه، ﴿**وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**﴾ في تصرفهم هذا. ثم ضرب الله لهم مثلا في سوء التصرف فقال: ﴿**مَثَلُهُمْ**

كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً) ليستضيء له بها سبيل الهدى، وهو عبارة عن تمسكهم بأول جزء من الإسلام ككلمة الإخلاص الظاهري (**فَلَمَا أَضَاءَتْ**) له تلك النار الموقودة (**مَا حَوْلَهُ**) بأن أوضحت له ما يتقيه وما يفعله (**ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ**) أي بحظهم من نور تلك النار، لا بنور النار، فهي لن تزال نورا على نور، ولهذا لم يقل تعالى ذهب الله بنورها، بل ذهب بنورهم، (**وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ**) شيئا مما كانوا يبصرونه بسبب تلفظهم بكلمة الإخلاص، لأن نورها لا يدوم إلا بموافقة اللفظ الإعتقاد، وحيث لم يوافق ذهب الله بنورهم وتركهم (**صُمٌّ**) عن استماع الحق على أي لسان برز، (**بُكْمٌ**) عن النطق به (**عُمْيٌ**) عن سلوك سبيل الرشاد. ولما كان الأعمى قد ينقاد لمن يقوده، نفىٰ عنهم تعالى الإنقياد مبالغة في تمردهم فقال: (**فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ**) من غيّهم، وبهذا علمنا أن عمى القلب أشد من البصر.

ولما كان في الطائفة أصناف، ذكرهم الله بمثال آخر فقال: (**أَوْكَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ**) أي أو مثلهم كصاحب صيّب، أي مطر من السماء، وهو تشبيه في نزول القرآن العظيم، ووقوعه على القلوب، فقد ينفعها كما ينفع المطر الأرض الخصبة، وفي ذلك المطر النازل من السماء (**فِيهِ ظُلُمَاتٌ**) وهو عبارة عما استشكلوه من متشابه القرآن، (**وَرَعْدٌ**)، وهو عبارة عما هددهم القرآن به من الزواجر والوعيد (**وَبَرْقٌ**)، عبارة عن لمعان براهينه البينات، وحججه الواضحات، وبما اشتمل عليه من التهديدات (**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ**) عبارة عن إعراضهم بقلوبهم، لئلا يؤثر فيها شيء (**مِنَ الصَّوَاعِقِ**)، أي الزواجر،

يفعلون ذلك (**حَذَرَ**)، أي خشية (**الْمَوْتِ**)، لعلمهم أن كل من فتح سمعه للقرآن العظيم انقاد وانطرح بين يدي المصطفى ﷺ، كأنه ميت، لأن الإسلام يقضي بموت النفوس وإبطال شهواتها البهيمية، والمنافقون لا يرضون بذلك، (**وَاللهُ**)، الذي لا يعجزه شيء، (**مُحِيطٌ**) بهم و(**بِالْكَافِرِينَ**) إنما يؤخرهم لوقت معلوم، ومن سوء حظهم قد يظهر لهم شيء وتغيب عنهم أشياء، وهو قوله: (**يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ**)، أي تقرب لمعان براهين القرآن العظيم أن تجنح بأبصارهم لرؤية الحق بدون اختيار منهم، لوضوح دلائله (**مَشَوْا فِيهِ**) خطوات في سبيل الهدى وطلب الحق، (**وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا**)، أي وقفوا ونكصوا على أعقابهم، وترددوا في معتقدهم. (**وَلَوْ شَاءَ اللهُ**) هدايتهم (**لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ**) إلى رؤية الحق واستماعه (**إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**). أي فلا يعجزه إضلال المهتدي ولا هداية المضل.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**ومن الناس... إلى قوله: قدير**) سبعة عشر حكما:

الأول: علمنا بأنه تعالى يريد من الداعي إليه التنصيص عن وجود المفسدين بذكر صفتهم مبهمة، لا على وجه التعيين الشخصي، تغليبا لجانب الستر على الفضيحة من قوله: (**ومن الناس**) إلى آخره، وهو تعالى قادرٌ على تعيين القائل بعينه، وكل ذلك تفضل ورحمة منه بخلقه.

الثاني : علمنا بأن المنافقين ما حملهم على النفاق في الغالب إلا الطمع، يفعلون ذلك ليتوصلوا لبعض أغراضهم من المؤمنين بقوله : (**يخادعون الله والذين آمنوا**).

الثالث : علمنا بأن المنافق كيفما كان كيده إلا وهو راجع عليه، فكل يعامله الله بقصده من قوله : (**وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون**).

الرابع : علمنا بأن المنافقين كانت لهم أمراض قلبية من الشكوك والوساوس قبل اجتماعهم بالنبي ﷺ، وإن كانوا من أهل الكتاب، ولما جاء الإسلام زادهم مرضا على مرض، من قوله : (**في قلوبهم مرض، فزادهم الله مرضا**).

الخامس : علمنا بأن في المؤمنين من كان له إطلاع عن المنافقين بأشخاصهم، وقد كان ينصح لهم في السر، ولكنهم لا يحبون الناصحين، من قوله : (**وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض**)، ومن المعلوم أنه قول بعض المؤمنين لهم على ما يتضمنه جوابهم.

السادس : علمنا بأن القائل الثاني لهم المأخوذ من قوله : (**وإذا قيل لهم آمنوا**) هو في الغالب من غير المؤمنين، كأن يقول لهم الكافر حيث أنكم تواصلون المسلمين آمنوا إيمانهم، وإلا لما استطاعوا مواجهة المؤمنين بقولهم : (**أنؤمن كما آمن السفهاء**).

السابع : علمنا بأن المنافقين كانت تخرص ألسنتهم بحضرة المؤمنين الإيمان الخالص لرب العالمين، من قوله : (**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا**).

الثامن: علمنا بأن قول المنافقين كان متركبا من صدق وكذب، فقولهم للمؤمنين كذب، وقولهم للكافرين إنا معكم صدق، ولو عكسوا لكان حكما آخر، ولا يكون الإيمان إيمانا إلا إذا ارتبط القلب باللسان.

التاسع: علمنا بأن الألفاظ التى لا تجوز نسبتها لله، كالإستهزاء ونحوه، تطلق عليه في كتابه على طريقة المشاكلة، من قوله: (**الله يستهزىء بهم**).

العاشر: علمنا بأن المراد بالإستهزاء هو أن يمد الله فى عمر المستهزىء به بحيث لايعبأ به، من قوله، (**ونذرهم فى طغيانهم يعمهون**).

الحادي عشر: علمنا بأن النفاق هو تجارة معدومة النتيجة، أي لا يتوصل به المنافق لغرضه، من قوله: (**فما ربحت تجارتهم**).

الثاني عشر: علمنا بأن الأمثال المضروبة للسامعين هي أسرع في وصول المعاني للأذهان، وإنها من أنواع البيان الذي يزيد في الحق وضوحا، وإلا لما استجلبها تعالى في معرض كلامه، ومن ذلك قوله: (**مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً**).. إلخ.

الثالث عشر: علمنا بأن الإقرار بمجرد اللسان هو على كل حال نور، لكن لا يمتد ضياؤه إلا اذا اتصل بالجنان، وإن لم يتصل على الفور يكن سريع الزوال، وتعقبه ظلمة أشد من ذي قبل، من قوله: (**كمثل الذي استوقد نارا**)، ولا شك أنها عبارة عن النطق بكلمة الإخلاص.

الرابع عشر: علمنا بأن المصاب بداء النفاق لا يتأتى رجوعه

للحق في الغالب، فيكون رجوعه أبعد من التظاهر بالكفر، من قوله: (**فهم لا يرجعون**).

الخامس عشر: علمنا بان في المنافقين أصنافا، وذلك يؤخذ من تلوينه المثال بقوله: (**أوكصيب من السماء**).

السادس عشر: علمنا بأن الكفر هو أعم من النفاق، فكل منافق كافر ولا عكس، من قوله عقب ذكر المنافقين: (**والله محيط بالكافرين**).

السابع عشر: علمنا بأن المنافقين قد كانت تقدح في بواطنهم من أشعة الإيمان أحيانا بسبب مجالستهم للنبي، غير أنها سريعة الإنقلاب من قوله: (**كلما أضاء لهم مشوا فيه**).

الإشـــــارة

لا تحصر النفاق في الصنف السابق، ولا تعتبر صاحبه لسقوطه من عين الله، ودخوله في حيز الكفر، إنما تعتبر فروعه الكامنة في أهل المعبر على صاحبها في لسان الشرع بذي الوجهين، كما أنها لا تعتبر الشرك الصريح، إنما تعتبر فروعه، أي الشرك المؤول، المشار له في الحديث الشريف بقوله: «**الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل على الصخرة الصماء**»، وقد يعبرون عنه بشرك الأغراض، وعلى هذا يكون المنافق في مقام الإحسان مسلما، بخلافه في مقام الإسلام، فإنه كافر، لأن العبرة بالضمائر، وقولنا في الأول مسلم، أي لن يحكم له بالإحسان المتزي به ظاهرا.

ثم اعلم أن هذا الصنف هو المتردد بين أهل الله وبين من ينكر سر الخصوصية في الأمة المحمدية، كالقدرية ومَن نحا نحوهم ممن يدعي السنة، وبيان قولهم، إنهم يقولون ليس في الشرع إلا ما وصل إلينا من جهة الظواهر، وينكرون ما تدعيه القوم في جميع معلوماتهم، ولو كان هذا الفريق كافرا بسر الخصوصية، كان المتردد بينه وبين أهل الله المتظاهر لكل فريق بما يستحسنه منافقا بهذا الإعتبار والذي يدلك على أنهم جحدوا ما يقرب أن يعرف من الدّين بالضرورة، هو قوله ﷺ : **« إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا أظهروه أنكرته أهل الغرة بالله »**. وقد تقدم في صدر الكتاب ما يغني عن الإطناب، وبما اعتاده هذا الفريق من الكفر لهذه النعمة تعين الإستتار وكتمان الأسرار، وقد نص القوم على عدم جواز التكلم بما خفى من الأسرار إلاّ مع أهلها، عملا بالحديث. قال ﷺ : **« حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذبوا الله والرسول »**. نقله في « الجامع الصّغير ». وقال أيضا : **« ما أنت محدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلاّ كان على بعضهم فتنة »**. وعن ابن الطفيل قال : سمعت عليا - رضي الله عنه - على المنبر يقول : « أتحبون بأن يكذب الله والرسول، لا تحدثوا الناس إلاّ بما يعلمون » ومن هذا القبيل قول الإمام محمد بن إدريس الشافعي - رضي الله عنه - :

خاطب الناس بالذي ألفوه ☆ وتجنب خلاف ما ألفوه
إن في الجاهلين غورا عظيما ☆ لو يرون التحقيق ما عرّفوه
من نهاهم عن غيّهم وهواهم ☆ رموه بالزور وتلفوه

تجهـــل مع الجهـــال وسلـــم ☆ لهم في المحـــال مـــذ مـــدحوه
فـإذا كنت مبصـرا عنـــد أعمىٰ ☆ فـاكتم الحق حيث لم يعرفـوه

ثم إني مهما ذكرت مثل هذا الفريق بالكفر، فلا نعني به إلاّ الكفر الأصغر، كما تقدم في النفاق والشرك، وقد جاء في الحديث من إطلاق ذلك على المسلم كقوله ﷺ: « **قتل المؤمن كفر، وسبه فسوق** »، وكقوله: « **من حلف بغير الله فقد أشرك** ». وعلى هذا فلا تهمة في تعبيرنا عن البعض من عموم أهل القبلة بالكفر والشرك ونحوه، فلكل مقام كلام، ومن ذلك قولهم: « حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين »، وإذا صح هذا فلا محظور في إطلاقنا الكفر على من نفى سر الخصوصية بين الأمة المحمدية. وإطلاقنا النفاق على المتظاهر لأهل الله بخلاف ما يضمره فيهم، ولعلك تقول من ينكر ذلك من أهل الله، والحق يقول في بعض الأحاديث القدسية (**من عاد لي وليا فقد آذنته بالحرب**)، ولولا تكذيبهم بما لم يحيطوا بعلمه لما قال الذهبي في ابن الفارض: « ينهق بالإتحاد الصريح ». وقال ابن تيمية في ابن العربي الحاتمي: « بالكفر الصريح ». وقال فيه إبراهيم الجعبري: « هو شيخ نجس، يكذب بكل كتاب ». وقال فيه أبو محمد عبد السلام: « هو شيخ سوء مقبوح ». وقال قاضي الجماعة أكثر من ذلك في إبن سبعين، وإبن الفارض، وابن قَسِي، وابن مرجانة، والعفيف التلمساني. ونقل القشيري عن فارس الصوفي أنه قال في الغزالي: « مثله كحاطب الليل، يجمع فيما يحطب الحيات والعقارب وهو لا يشعر ». وقال في الجنيد: « بالجهل المركب ». وفي الشيخ عبد القادر:

« بالتخبط في كلامه »، وقال في ابن الفارض: « بالكفر والإتحاد » ومن هذا الكلام ما يفوق الحصر. ومن أراد الاستطلاع على أكثر من هذا فلينظر الكتاب المسمى بـ « العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشائخ » فقد جمع فيه صاحبه ما يقضي بسقوطه من عين الله، هو ومن على شاكلته، إن لم يتداركهم الله بلطفه. وما ذكرت هذه الجملة إلا استدلالا على بقاء هذه الطائفة بين أفراد المسلمين، وبهذه المناسبة يصح التطابق في جميع ما تقدم من كلام الله في الكافرين والمنافقين على الصنفين المشار لهم الآن، ولولا خشية التطويل لتتبعنا ذلك، فتجد المعنى شملت لكليهما سواء بسواء، ومقامهم حيث أقامهم، **ولو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم** إلى رؤية الحق، (**إن الله على كل شيء قدير**). وقد ضرب الله تعالى مثلا للمترددين بين الفريقين، ليستطلع على معلوماتهم، ويأخذ قبسا من معتقداتهم، فقال: (**مثلهم كمثل الذي استوقد نارا**)، وهي عبارة عن الانقياد ظاهرا (**فلما أضاءت ما حوله**) بأن اتضح له من الحق ما يسير على منواله (**ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات**) أكثر مما كانوا عليه قبل الانقياد، (**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يرجعون**)، (**أوكصيب من السماء**) عبارة على أسرار القوم (**فيه ظلمات**) وهو غوامضه (**ورعد**) عبارة عن سطوته وقهريته في القلوب، (**وبرق**) عبارة عن ظهور أنواره ولمعان أسراره، وبموجب ما تحققوه من أنه على خلاف معلوماتهم، وإنه قاض على أنفسهم بالدّمار، وإعدامها بالمرة، (**يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، والله محيط بالكافرين**) وبكل شيء، عرف المنافقون أم جهلوا، (**يكاد البرق**) المشار إليه سابقا

(**يخطف أبصارهم**) إلى رؤية الحق ومشاهدته بدون اختيار منهم على ما يقتضيه الظهور، (**كلما أضاء لهم**) شيء مما يقتضيه التوحيد الخاص كقولهم : لافاعل إلاّ الله، وهذا مما يعتبر مصدّقه لو تبتلوا له، وتأملوا معناه، فهو أول شرط في سبيل الإحسان، وقد عرفوا الله في وجهة، أي لاحظوه في الفاعل، ولم يبق إلا أن يلاحظوه في المفعول، ولكنه أظلم عليهم ما عرفوه من أنّ لا فاعل إلاّ الله، من جهة ما اشتبه عليهم من أفعال العبيد، ولزوم الوعد والوعيد، فوقفوا حيارى، وهو قوله : (**وإذا أظلم عليهم قاموا**) مترددين عن مقالتهم، فمنهم من رجع إلى القدرية وقال : « العبد يخلق أفعال نفسه الإختيارية »، ومنهم من أثبت الأفعال الكسبية، وكل هذا من التحكمات العقلية على ما اقتضته الحكمة الأزلية من لزوم الإستتار، (**ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم**) وبجميع صفاتهم واستبدلها بصفاته، فصاروا يسمعون بالله، ويبصرون به، كما قال لنبيه:(**أسمع به وأبصر**) وإن مع إعراضهم، ولهذا قال : (**إن الله على كل شيء قدير**)، ومن قدرته الباهرة، وسطوته القاهرة، أن احتجب في ظهوره، وظهر في بطونه.

لسان الروح

بعدما استفسرته في دائم النفاق، فوجدته يفهم به ما سواه على الإطلاق، فقلت : وكيف المفر، فقال : إلا إذا عرفت الباطن في الظاهر، وتكلمت بما في نفس الأمر.

قـولـه تـعـالىٰ

يَآ أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ، فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

التـفـسيـر

ولما قدم تعالى ذكر الأصناف الأربعة، وذكر كل صنف بما يستحقه من مدح وقدح، راجع الجميع بطريق الإستعطاف فضلا منه ومنة، ولئلا يكون خروجا عما يقتضيه الرفق بالجميع فقال: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**) خطابا لعموم المكلفين من عابد وجاحد (**اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**) واعرفوه أنه هو (**الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ**) خلق (**الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**) من القرون لأجل العبادة، فإن عبدتموه على أنه خالقكم، مخلصين في عبادتكم، لا لغرض يشوبها من الطمع في الجنة وخوف من النار (**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**) أي تصلون إلى درجة المتقين المكرمين، المشار لهم بقوله: (**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**)، فالمتقي حقيقة هو من يتقي الله لذاته، والمتقي مجازا هو من يتقيه لناره، ولهذا دعا سبحانه وتعالىٰ عموم المكلفين إلى أعلى درجة التقوى، فكأنه تعالى يقول: فإن استطعتم أن تتقوني على أني أهل التقوى فهو الأولىٰ، وإلا (**فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة**)، والمعنى، أن الناس المنقادين لله على ثلاثة أقسام: قسم إنقاد لله سبحانه وتعالى، واتقاه على أنه أهل

للتقوى، وأهل أن يعبد بموجب حقه على العبد، ونعمته عليه التي من أعظمها إخراجه من العدم إلى الوجود، فهو في أداء شكر هذه النعمة مرتهن، وإن استغرق الأبد في العبادة، وهذا القسم هو أهل المروءة، ولهذا دعا سبحانه وتعالى بهذه النعمة لعل تكون عبادة الكل من هذا القبيل.

القسم الثاني: وهو أهل الطمع في الجنة، فإنه تعالى بعدما انتخب المخلصين لحضرته، وشرد الباقون عن بابه، نصب شبكة ليقتنص بها من غلب الطمع عليه، فوضع الجنة فيها عين جارية، فيها أكواب موضوعة، فيها نمارق مصفوفة، فيها زرابي مبثوثة، فيها فواكه كثيرة، فيها أزواج مطهرة، وكل ذلك رحمة منه بخلقه، ولما وقع فيها خلق كثير، ووضعت في أعناقهم ربقة التكليف، وقاموا في طلب الجنة، وما أعده الله للمؤمنين فأضناهم الصيام، وأعياهم القيام. ففر القسم الثالث خشية أن يحل به ما حل بهم، فإنه لم يعتبر ما أعده الله لهم فيما يكابدونه من أجله، ولما إستقر الفريقان على بساط العبودية، وبقي فريق هناك لم تقاومه الدعوات، فاسترجعه تعالى لبابه بصوت التهديد وأنواع الوعيد، فرجع باكيا حزينا، فهو واقف على باب الله، والسوط من خلفه.

ثم اعلم، أنّ في قوله تعالى: **(يا أيها الناس اعبدوا ربكم)** من حسن الدعوة وأسلوب الإستجلاب ما يستحسن ذكره، ومن ذلك دعاء عموم الناس، مع أنّ فيهم العابدين رحمة بالجاحد، عسى أن ينهض به ضمير الجمع فيدخل فيما دخل فيه الناس، بخلاف ما لو دعي بالإنفراد، فقد يستوحش غالبا. والثاني أنه

دعاهم لعبادته باسم الرّبّ لا بغيره من الأسماء، لما بين الرّبّ والمربوب من الرابطة والتلازم، فهو يميل إليه بالطبع غالبا، ألا ترى أنّ الإنسان مهما اشتدت أزمته بمرض أو نحوه، فأول إسم يتعلق به جنانه ويلتصق به لسانه قائلا: يا ربّي، فكان هذا الإسم أدعى في انقياد المربوب إليه. الثالث أنه تعالى دعا عباده على اختلاف مراتبهم إلى أعلى درجة العبودية، وهو أن يعبدوه من حيث أنه خالقهم، أي أداءً لشكر ما في ذّمتهم، وإن كان هناك من لم يستطع أن يعبده بتلك الصفة، فيكون مطلوبا على كل حال مهما أمكنه.

ثم إنه تعالى أخد في تعديد بعض النعم التي تستوجب الشكر فقال: (**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً**) أي صيرها لكم فراشا إكراما لكم، مع أنها ليست بفراش في نفس الأمر، ومثل ذلك كمن استضاف إنسانا، فمن البرور به أن فرش له ما هو أجل أن يكون فراشا، والمعنى يؤخد من قوله: (**جَعَلَ لَكُمُ**) لأنها بمعنى صيّر، لا بمعنى خلق، فتكون من أول خلقة فراشا، فكلاّ، إنما خلقتها تقدمت على خلق البشر بما يتعذر حصره، وهي ومن سواها من الأجرام العلويات والطباق السّماويّات، والجواذب الفلكية، كانوا ولن يزالوا في طاعة الله مسخرين، وإذ (**قال لها وللأرض إيتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين**). ومن كرامة الله لعبده أن صيّرها له فراشا كافلة باستقراره، تحمل من أذاه، وتستر من عوراته، ولو تركها الله وشأنها مع العبد للفظته وخرّت من تحته، أو سقطت السماء كسفا عليه، لوجود مخالفة لربّه ومنشئه. ثمّ قال: (**وَالسَّمَآءَ بِنَآءً**)، أيضا أن جعل لكم السماء

بمنزلة البناء، كأنكم ترونها رأي العين، مع أن السماء ليست مرئية لكم، إنما المرئي ما حدّه البصر من الفراغ الموهوم، والسّماء من وراء ذلك، وهي ألطف من أن يلحقها البصر، ومن رأفته تعالى بكم أن صيّر لكم ما علاكم بمنزلة البناء لتطمئن النفوس، بخلاف ما لو وقع البصر على فراغ غير متناه لوقعت الوحشة، وطاشت النفوس، فكانت رؤية السماء لنا بما فيها من النجوم أمنا لنا، كما جاء في الحديث: «**النجوم أمان لأهل الأرض**». ثم قال: (**وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً**)، أي: من السحاب المسخر بين السماء والأرض ، وكونه سماء لغة إنّ كل ما علاك فهو سماك (**فَأَخْرَجَ بِهِ**) أي بسببه (**مِنَ الثَّمَرَاتِ**) بأن أودع فيه سبحانه وتعالى قوة فاعلية، كما أودع في الأرض قوة انفعالية، وباجتماع القوتين أخرجت الثمار (**رِزْقاً لَكُمْ**) ولأنعامكم، والكل لكم، وإذا صح عندكم ما قررناه من النعم أنها حصلت من الله لكم (**فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا**) أي شركاء (**وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**) أنه المنفرد بالوجود والإيجاد.

ثم أقول: إنه تعالى لما بلغ في تعديد النعم إلى أن ذكر في جملتها توقف إخراج الثمار على نزول الماء، وهو بيان لوجه الحكمة في نزوله، خشي أن تكون ذريعة في التعلق بالأسباب، فتشتد بذلك القطيعة، وينسدل الحجاب، فجاء ما يزيل الإشكال، فقال: (**فلا تجعلوا لله أندادا**)، أي شركاء في الأفعال، فإنه تعالى المنفرد بالوجود والإيجاد الفعال.

ثم إن الحكمة في وضع الأسباب، وارتباطها بمسبباتها، مثل توقف بعض الأشياء على وجود المواد، كتوقف الثمار على نزول

الماء مثلا، وهو قادر على وجود الأشياء بدون مواد، كوجود أصولها، غير أنّ ارتباط الأسباب بمسبباتها أبلغ في الإعجاز والدّلالة على كمال قدرته، والمعنى أنّ المزية ليست في تكوين الأشياء بدون مواد، وفي الخارج على نظر العباد، إنما المزية في تكوين الشيء بين يديك وقبالة نظرك، وبالأشياء التي علمت أنّها مواد له، فكأنه يقول: إن كنت في ريب من التكوين، فدونك الماء والطين، وضع ما شئت من الثمار والتين، فما جئتك بها من بعيد فها هي صنعت بين يديك، وأنت على ذلك شهيد، فأبصر، فبصرك اليوم حديد.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**قل يا أيها الناس... إلى قوله: وأنتم تعلمون**) خمسة أحكام:

الأول: علمنا بأن العبادة هي أبلغ داع في حصول التقوى لمن أراد أن يكون من المتقين من قوله (**أعبدوا ربكم... إلى قوله: لعلكم تتقون**).

الثاني: علمنا بأن الله تعالى قد يقبل العبادة من غير المتقين، كما يأمرهم بها من دعوته تعالى لهم قبل حصول التقوى منهم، ولو لم تقبل إلا بها لما كانت علة في وجودها.

الثالث: علمنا بأنّ الأولى للناس أن يعبدوا ربهم شكرا، أداء لواجب ما في ذمتهم من نعم الله أولى من أن تكون عبادتهم لحظ في الأجل، كطلب الجنة مثلا، من قوله: (**اعبدوا ربكم الذي**

خلقكم . . .) إلى آخره، حيث استلفتهم لنعمه عليهم التي من أعظمها نعمة الإيجاد.

الـرابـع : علمنا بأن الأولى للمعلم أن ينقل تلامذته للبسائط، ثم المركبات، ليكون أدعى للفهم، من قوله: **(الذي جعل لكم الأرض . . .)** إلى آخره، حيث استلفتهم للأجرام، ثم إلى كيفية خلق النبات.

الخـامـس : علمنا بأن التوحيد هو من العبادات التي يؤجر عليها العبد يوم الجزاء، من تفسيره لها تعالى بعدما طلبها من الناس بقوله: **(فلا تجعلوا لله أندادا).**

الإشــــــارة

ترى أن الله تعالى لا يدعو عباده في الغالب إلا لمعرفته الخاصة، ولهذا فسرت العبادة المدعوون لها بقوله: **(فلا تجعلوا لله أندادا)**، وليس المراد بالند إلـٰها آخر، فذلك لا يعقل، لأن الخطاب راجع لأهل العلم، المشار لهم بقوله: **(وأنتم تعلمون)** ومن يجعل مع الله إلـٰها آخر لا علم له، وعليه، فيكون نهيا للمتوجه أن يرى كينونة لأحد مع الله، فيكون متخذه ندا.

لســان الــروح

سألته عن الند فقال لي: لم يوجد. فقلت: ما بال وقوع النهي عليه؟ قال: لأنها مكابرة حيث ادّعى العبد بجعله ما عجزت القدرة عن مثله.

قــولــه تـعــالىٰ

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ، وَادْعُواْ شُهَدَآءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَتِي وُقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ، وَبَشِّرِ الَذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَـٰذَا الَذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ، وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهًا، وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ، وَهُمْ فِيهَا خَـالِــدُونَ

التـفـسـيـــــر

وبعد توجه الخطاب لعموم المكلفين، استلفته لبعضهم ممن كان في قلبه ما يخلج من ريب النزول وبعثة المرسول، غير أنه أجمل في الخطاب جبرا لخواطرهم ومحافظة عن قلوبهم، وهذا من حسن أسلوب التبليغ، مخاطبة الكل وإرادة البعض، فقال: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ) أي في شك (مِّمَّا نَزَّلْنَا) من الكتاب (عَلَىٰ عَبْدِنَا) محمد ﷺ، بأن قلتم فربما تقوله، أو هو من وضع البشر، وعلى هذا فالأمر أسهل (فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ)، وهذا أهون شيء وأبلغ في التيسير، إذ أنتم من فصحاء العرب (وَادْعُواْ شُهَدَآءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) في دعواكم أنّه من عند غير الله، واستعينوا بمن شئتم من الجن والإنس، مهما

أمكنكم ذلك، (**فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُواْ**) كما هو في نفس الأمر (**وَلَنْ تَفْعَلُواْ**) في المستقبل أيضا، وهذا من أهم معجزات القرآن، فبعدما قرّر إعجازهم على أن لا يأتوا بسورة من مثله في ذلك الحال، نفى عنهم وجود الإتيان في الإستقبال، فكان الأمر كذلك، فإنه لم يصدر منذ أربعة عشر قرنا من يتجاسر لأن يأتي بسورة من مثله، أو بما يقرب من شكله، والتاريخ أعدل شاهد، فدلّ هذا على صدق القرآن بأبلغ دلالة (**فَاتَّقُواْ النَّارَ**) أيّها الملحدون في كتاب الله (**الَتِي وَقُودُهَا النَّاسُ**) أمثالكم (**وَالْحِجَارَةُ**) الموافقة لقسوة قلوبكم (**أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**)، أي هيّئت لمن كفر بالله ورسوله.

وفي قوله: (**وقودها النّاس والحجارة**) أبلغ ترهيب ودلالة على مباينتها لنار الدنيا، فهي لا تذر رطبا ولا يابسا إلا أحرقته.

ثم أعلم، أن الريب المحترز منه هو شامل كل من يخلج فكره أدنى شيء، من كون القرآن ربما فيه من جهة ما يتعلق بتنظيم ألفاظه ما هو من صنع البشر، فليحترز أو فليأت بسورة من مثله. وبعدما ذكر المرتابين في كتاب الله، وما أعد لهم إن استمروا على ارتيابهم، استلفت الخطاب للمؤمنين به فقال: (**وَبَشِّرِ الَذِينَ ءَامَنُواْ**) بالكتاب أنه من عند الله، وأن ليس للبشر فيه أدنى اكتساب (**وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ**) بأن اتبعوا ما جاء به من امتثال الأوامر واجتناب المناهي، (**أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ**) جزاء من الله لهم على حسن صنعهم من نعتها وصفاتها (**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا**) أي خلالها ومن تحت أشجارها (**الأَنْهَارُ**) المختلفات المذاق، وإن أهلها (**كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ**)

لبعضهم بعضا على وجه التفكه والإعجاب (**هَـٰذَا**) الرزق الذي رزقنا الآن هو (**الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ**) في الحياة الدنيا، فكل فاكهة تشبه فاكهة الدنيا، فما باله مختلف المذاق (**وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهًا**) سواء بسواء، والحكمة في التشبه بين الرزقين في الصورة، إذ الإنسان بالطبع مائل لفواكه أرضه، وبالأخص إذا انفصل عنها إلى أرض ليست فيها من تلك الفاكهة، فهو يود أن يراها فضلا عن أن يتناولها بالأكل، حتى إذا رآها في الجنة يكون سريع التناول منها، فالتشابه زيادة في التجاسر والميل إليها، بخلاف ما لو رأى فاكهة لم تسبق له صورتها ولا مذاقها، فهو أبعد من أن يتناولها على الفور، إلا بعد التدريب، ولما كانت الأزواج مما تألفها النفوس غير أن فيها ما تستقذره منها غالبا، وبالأخص ما هو كدم الحيض المانع من مباشرتهن طبعا وشرعا، فذكر تعالى أنها على خلاف أزواج الدنيا بقوله: (**وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ**) من دم الحيض، وما في معناه كالبول والغائط، وما هو من قبيل القذورات، فنفي الشبه بينهن من جهة التطهير، ليس فيه إلا مزيد الرغبة من جهة الميل إليهن، وليس فيه استيحاش. ولما كان الإنسان، إذا كان في نعمة قد يتخيل زوالها غالبا فينغص عيشه حال التخيل، نفى ذلك تعالى عن أهل الجنة لتتم لهم النعمة، ويدوم لهم السرور بقوله: (**وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**)، وليس دخول الجنة عند أهل الجنة بأعظم نعمة من نعمة الخلود.

الإستنبـــــاط

يستتخرج من قوله: (**وإن كنتم في ريب... إلى قوله: خالدون**). تسعة أحكام:

الأول: علمنا بأن القرآن هو أبلغ شيء في الإعجاز، بمعنى أن نظامه يخرج عن طوق البشر من قوله: (**فأتوا بسورة من مثله**).

الثاني: علمنا بأن الله تعالى نزه جانب القرآن من أن يلتفت إليه أحد ليأتي بمثله إلى الأبد من قوله: (**ولن تفعلوا**).

الثالث: علمنا بأن الله تعالى يريد من المتقين أن تكون تقواهم له لذاته هيبة منه، وإلا فلتكن خشية من عقوبته، من قوله: (**فاتقوا النار**) بعدما أطلق التقوى فيما سبق.

الرابع: علمنا بأن جهنم هي حامية لذاتها، أي لا تتوقف حرارتها على وجود الحطب مثلا، لكنها تتقوى بوقوع الناس فيها، من قوله: (**وقودها الناس والحجارة**).

الخامس: علمنا بأن الله تعالى لم يضع النار من أول خلقتها للمؤمنين، من قوله: (**أعدت للكافرين**).

السادس: علمنا بأن البشارة تحق لمن قرن إيمانه بالأعمال الصالحة من قوله: (**وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات**).

السابع: علمنا بأن الإيمان بانفراده عن العمل غير كاف في تحقيق النجاة، من وقوع البشارة في الآية بعد انضمام العمل إليه.

الثامن: علمنا بأن ثمار الجنة فيه ما يشابه ثمار الدنيا، ولعله

في الصورة من قوله: (**هذا الذي رزقنا من قبل**).

التـاسـع: علمنا بأن أزواج الآخرة على خلاف أزواج الدنيا، من جهة القذارة اللّازمة لأبدانهن، من قوله: (**ولهم فيها أزواج مطهرة**).

الإشـــــــارة

تومي‌ء إلى أنّ الجنة جنّتان، كما أن الفاكهة فاكهتان، ففاكهـة العقول، الأسرار العرفانيـة، وفاكهــة النفوس الشهوة البهيمية، وكل يميل إلى مطلبه ويحن إلى مرغوبه.

لســان الـروح

في قوله: (**فأتوا بسورة من مثله**) يدخل في الخطاب العالم بأسره حتى النبي في نفسه عاجز على أن يأتي بأقل شيء من عند نفسه.

قــولــه تـعــالىٰ

إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّهِمْ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا، يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُّوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

التفسير

قد تقدم أن القرآن العظيم مؤسس في سابق علمه، وأنه مبعوث إلينا على ما هو عليه، ولما كان مشتملا على عدة أمثال ضربها تعالى تقريبا للإفهام، نوه لذلك في صدر الكتاب، ليكون القارىء على بصيرة مما يطرق سمعه من الأمثال فقال تعالىٰ: (**إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي**) أي لا يمتنع (**أَنْ يَّضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً**) مهما كان فيها ما ينهض بالعقول السليمة لمقاصد القرآن (**فَمَا فَوْقَهَا**) أي فما بالك بما فوقها مما هو كالرعد والبرق، والمشكاة المضروب بها المثال لنوره في قوله: (**مثل نوره كمشكاة فيها مصباح**)، إلى غير ذلك (**فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ**) الثابت، ولا يشكون أنه (**مِن رَّبِّهِمْ**) ضربه ليتوصلوا به لما هو الأعلى من مراده تعالى (**وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ**) بالقرآن، وبمن نزل عليه، (**فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللهُ بِهَٰذَا مَثَلًا**) أي فأي شيء هذا المثال حتى يضربه تعالى، وما أراد به؟ يقول ذلك استخفافا بالقرآن، وكل من لم تقم عنده ألفاظ القرآن جميعها أجل مقام، يخشى أن يشمله هذا الحكم بأن يكون ذلك اللفظ سببا في ضلالته، بقوله تعالى: (**يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً**)، فدل هذا على أن الكثير ممن حقت عليه الضلالة بسبب ما استشكله من بعض ألفاظ القرآن، بأن لم يتلقاها بالتسليم (**وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً**) أي بذلك اللفظ والمثال نفسه، فتكون حكمة نزوله لهداية البعض، وهو الغالب المضروب المثال من أجله، وضلالة البعض.

ولما ذكر تعالى أن من القرآن ما يضل به، اقشعرت الجلود وتشوشت القلوب لما تعلمه من القرآن أنه هدًى ورحمة للمتقين،

فأتى تعالى بما يزيل الإشكال، وينزه جانب الهداية على جانب الضلال فقال: (**وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ**) والسفهاء والمرتدين (**الذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ**)، فدل هذا على أنّ هؤلاء يكون لهم عهد وتمسك بالدين، وبما يستبعدونه من أمثال القرآن، ينقضون عهدهم (**وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُّوصَلَ**) من صلة أرحام المؤمنين وموالاتهم، ويستبدلونها بموالاة أعدائهم، (**وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ**) ببث أفكارهم، وَخُبْث انتقادهم على الإسلام والمسلمين، ولن تخلو الأمة من هؤلاء بين أظهرها (**أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**) بما فاتهم من كتاب الله بسبب انتقادهم، وقلة انقيادهم، ولو صدقوا الله لكان خيرا لهم.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**إن الله لا يستحي... إلى قوله: الخاسرون**) ثمانية أحكام:

الأول: علمنا بأن الأمثال يستحسن الإتيان بها من الحكيم لتتمكن حكمته في الأذهان، من قوله: (**إنّ الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة**).

الثاني: علمنا بأن أمثال القرآن قد تمكنت من قلوب المؤمنين، من قوله: (**وأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم**).

الثالث: علمنا بأن المستخف بأي لفظ من ألفاظ القرآن يطلق عليه الكفر، من قوله: (**أما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا**).

الـرابـع : علمنا بأن أمثال القرآن جاءت حكمتها لهداية البعض، وضلالة البعض، من قوله : **(يضل به كثيرا ، ويهدي به كثيرا).**

الخـامـس : علمنا بأنّ القرآن لا يضل به إلّا فاسق، من قوله : **(وما يضل به إلّا الفاسقين).**

الـسـادس : علمنا بأن الضّالّ بأمثال القرآن كان له عهد مع الله ثم نقضه، من قوله : **(الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه).**

الـسـابـع : علمنا بأن من وصف الفاسق نقض العهد، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، والفساد في الأرض.

الـثـامـن : علمنا بأن من وجدت فيه هذه الصفات أو مثلها يصح أن يقال فيه خاسر، من قوله : **(أولئك هم الخاسرون).**

الإشـــــارة

تفيد أن الوجود جميعه ضربه تعالى ونصبه مثالا موصلا لأسمائه وصفاته وعظمته، ليس هو مقصودا بذاته، فمن تتبعه ونظر ما فيه توصل إلى غايته، **(قل انظروا ماذا في السموات والأرض)** جوهرا وعرضا، إذ ما من شيء إلّا وفيه دليل وحداني ونداء رباني، ومدد روحاني، بعوضة فما فوقها، عرف من عرف وجهل من جهل. فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق المتنزل باسم الخلق لا غير، زيادة على أن يكون موصلا إليه، وهذا من حيث حقيقته النورانية المتنزلة من ربهم، المعبر عنها بالقبضة المحمدية، فهي مرآة ظهور الحق، فمن نظر فيها فلا تقع بصيرته إلّا على وجود الحق، فيعلم أنه الحق، وأما المحجوب فلا يقع

بصره إلّا على المرآة، لأنه يراها من خلفها فيقول: ماذا أراد الله بهذا؟ وأي شيء هذا؟ فلا يرى الوجود إلّا بأخس نظرة، (**يضل به كثيرا، ويهدي به كثيرا**)، ولهذا يقال: «من نظر الأشياء بعين التعظيم استمد منها وكان عند الله عظيما، ومن نظرها بعين الإحتقار استمدت منه، وكان عند الله حقيرا».

لسان الروح

في قوله: (**فأما الذين ءامنوا فيعلمون أنه الحق**)، يقول: وأما الذين أحسنوا فيشهدون أنه الحق.

قوله تعالىٰ

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا، ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

التفسير

وبعد ما حاول تعالى كل المحاولة على أن لا يذكر أي فريق من عباده بصفة الكفر في صدر الكتاب، وأتى بكل أسلوب يؤدي بالتغفل عن معتقداتهم، محافظة من كسر قلوبهم أن يواجههم بإسم الكفر، فأبوا إلا كفورا، وإن مع كل حجة وبرهان، فقال مشافهة لهم: (**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ**)، والإستفهام

إنكاري، يشعر بانحطاطهم إلى غاية لا مزيد عنها في الكفريات، وهي الكفر بالله - والعياذ بالله - ومع ذلك لم يهملهم تعالى وما هم عليه حتى أتى بما فيه استعطافهم، ومن رأفته ورحمته أن تولى استمالتهم بنفسه، فقال: **(وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً)** أي معدومين، وهذا غير محتاج إلى بينة **(فَأَحْيَاكُمْ)** من بعد ذلك بأن جاء بكم إلى الوجود، وهذا مسلم أيضا، ولم يكف هذا في الدلالة على وجود منشئكم **(ثُمَّ يُمِيتُكُمْ)** عند انقضاء أجلكم، كما أمات آباءكم، أو ليس في ذلك دلالة على وجود القادر **(ثُمَّ يُحْيِيكُمْ)** بنفخة البعث، وهذا هو المستبعد عندهم، ولكن لو صح عندهم الدليل الأول لصح ما بعده، لأن القادر على الإحياء أولا فقدرته على الثاني بالأحروية. **(ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، هُوَ الذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)** تقريرا منه تعالى الإنكار الأول، وسرد بعض النعم عليهم عسى أن يدعوهم داعي الإعتراف فيؤذنوا بالإنصاف، وكونه خلق لهم ما في الأرض جميعا إن آمنوا، وإلّا فهم يتصرفون بصفة الغضب لا بصفة الملك **(ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمُوَاتٍ)** أي قصد إلى تسوية السماء على وفق إرادتهم.

اعـــلم أن **(ثُمَّ)** ليست هنا للترتيب، إنما جاءت في سياق تعديد النعم، فلا تفيد تقدم خلقة الأرض على خلقة السماء، لما جاء في سورة النازعات: **(والأرض بعد ذلك دحاها)**، ولأن اللطائف تتقدم الكثائف عادة، والأولى الرجوع والوقوف عند قوله: **(وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** لأن العبد لا يعلم بكل شيء، إنما يعلم بالبعض إن علمه.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالىٰ: (**كيف تكفرون ... إلى قوله: عليم**) ستة أحكام:

الأول: علمنا بأن المخاطبين بقوله: (**كيف تكفرون**) الغالب فيهم كان ممن ينكر وجود المدبر، من قوله: (**وكنتم أمواتا**)، حيث استجلب دليل الوجود.

الثاني: علمنا بفساد مذهب من يقول أن المحيا هي بفعل الله، وأما الإماتة فهي موقوفة على نفاذ ما أودعه الله في العبد من القوة، من قوله: (**ثم يميتكم**)، حيث أسند فعل الإماتة لنفسه، كما أسند فعل الحياة.

الثالث: علمنا بأن هذه الحياة الثانية المشار لها بقوله: (**ثم يحييكم**) عبارة عن شعور ليلة القبر أو حياة البرزخ، من قوله: (**ثم إليه ترجعون**) لأنه رتب عنها الرجوع إليه، الذي هو البعث.

الرابع: علمنا بأن الله صرف جنس البشر في جميع ما على الأرض، من قوله: (**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا**).

الخامس: علمنا بأن السماء كانت موجودة قبل خلق ما على الأرض، إنما قصد بعد ذلك تسويتها، من قوله: (**ثم استوى على السماء فسواهن سبع سموات**).

السادس: علمنا بأن علمه تعالى يتعلق بالجزئيات كتعلقه بالكليات، من قوله: (**وهو بكل شيء عليم**)، لأن اسم الشيء شامل لكل موجود بانفراده كيفما كان.

الإشـــــــارة

في قوله: (**كيف تكفرون**) فإنها تتوقى الكفران كيفما كان، حتى ترى المحجوبين عن الله كفروا بالنعم التي من أعظمها نعمة الإيجاد، حيث لم يروها قائمة بموجدها، فيكون الخطاب عَائِدًا عليهم بهذا الإعتبار. (**كيف تكفرون بالله**) بأن تجهلوه في الآفاق وفي أنفسكم، وكنتم أمواتا في طي العدم المحض. (**هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا**)، فأحياكم بنفخه وسمعه وبصره وقدرته، وظهر فيكم بجميع صفاته، (**خلق الله آدم على صورته**)، (**ثم يميتكم**) على ما يقتضيه البطون والظهور، والغيبة والحضور، (**ثم يحييكم**) به كما أماتكم بأنفسكم، (**ثم إليه ترجعون**) في كل الأحوال عدما ووجدا، فهو المرجوع إليه بكل إعتبار، (**وهو بكل شيء عليم**).

لســان الــروح

في قوله: (**وهو بكل شيء عليم**)، يقول هوية الشيء غيبه، وهو ذات كل شيء، فلها السريان المطلق في كل شيء، فلهذا أسند العلم إليها، فهي أحوط بالشهادة من الشهادة بالغيب.

قـولـه تـعـالـىٰ

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ، قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ، وَعَلَّمَ آدَمَ

الأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هَٰؤُلَآءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ، فَلَمَّآ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ، إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ.

التفسير

قد تقدم ما في ضمنه أن الله تعالى مهما أورد في كتابه من الحكايات، واستطرد من القصص، فلا تحمله على مجرد التفكه والإستطلاع على أخبار من مضى، فيكون كلاما مفرغا عما هو الأهم، وكلام الله أنفع من ذلك، إنما مراده تعالى منا التأسي والتسلي بذلك، واستنباط الأحكام واستجلاب الأخلاق، وغير ذلك مما لا يحصر كثرة، زيادته على إيراد الحكاية، فتثبت فيما سيرد عليك، ومن ذلك قصة آدم عليه السلام. قوله تعالى: (**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ**) أي للأرواح النورانية والنفوس الأقدسية (**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ**) التي هي مقر الحيوان (**خَلِيفَةً**) أي من ذلك الجنس، وهي نعمة منه تعالى، شاملة للنوع الإنساني لمن تأمله من جهة تخصصه بالخلافة الإلٰهية دون بقية الأجناس العلوية والسفلية، فهي مكانة أبعد من أن تتناولها يد البشر بطريق الإكتساب، فكان منة من الله على النوع الإنساني

تستوجب الشكر، ولهذا أصدر تعالى بذكرها في أوائل الكتاب عقب تنويهه بنعمة الإيجاد المشار لها بقوله تعالى: (**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم**)، ومن أهم ما تضمنته الخلافة أن المستخلف بفتح اللام ينزل منزلة المستخلف بكسرها. ومن ذلك القبيل سجود الملائكة لآدم عليه السلام، ولولا أهمية المنصب لما (**قَالُوٓا**) أي الملائكة، تنزيها لجانب الخلافة من أن ينالها من فطر على الفساد وسفك الدماء على ما تقتضيه جبلية الجواب (**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ**) خليفة، وتترك أن تكون الخلافة منا (**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**)، وكان ذلك منهم استبعادا أن يكون من جنس الحيوان من يسوس غيره بما تقرر لديهم من همجيته وفساده في الأرض، فصارت المسألة عندهم ذات نظر من أجل أن النوع وإن كان منفصلا عن الجنس بالخاصية، فهو داخل فيه بالحقيقة، فصار الإنسان كيفما كان لا يخرج عن دائرة الحيوان، والحيوانية كانت عندهم أبعد من منصب الخلافة الإلهية، فهذا وجه استغراب الملائكة واستفسارهم لجانب الحق، ولم يعلموا أن الفضل الذي أراد الله تعالى أن يفضل به الإنسان من جنس الحيوان هو العلم، فبه يرتبط بالملأ الأعلى، ولهذا (**قَالَ**) لهم تعالى: (**إِنِّيَ أَعْلَمُ**) من أمر الخلافة (**مَا لَا تَعْلَمُونَ**)، فكأنه يقول: عقولكم لا تبلغ كنه الخليفة الذي أنا جاعله، فكيفما تخيلتموه، فشأنه أعظم من ذلك، وبعبارة أرق ونظر أدق (**إنّي جاعل في الأرض خليفة**) أي جاعل فيها من يخلفني في مباشرة الأفعال الحيوانية، والأخلاق النفسانية، ونبسط له في الإختيار، فتنسب إليه تلك الأفعال ويستتر المخيل بوجود الخيال، مع أنه

تعالى هو المنفرد بالأفعال، غير أن منصب الألوهية أجل من أن يباشر ما كالأفعال الحيوانية من الفساد وسفك الدماء بدون ما يتستر باسم الخليفة. ألا ترى أن الملك إذا أراد أن يحدث في مملكته شيئا لحكمة هو أعلم بها، وخشي أن لا يقع ذلك الفعل موقعا حسنا في نظر العموم لعدم إطلاعهم عن وجه الحكمة فيعمله باسم الخليفة أو نائبه، حتى لا يتوجه عليه لوم، شفقة عن عقيدة العموم أن تتغير في أميرها، وأما الخصوص فإنهم على علم من أن الخليفة لا فعل له مع فعل الملك، ومن المعلوم أن عامة الملائكة أقصر نظرًا من خاصتهم وهم الكروبيون، ولا يلزم من عدم إطلاعهم على الغيب نقص في منصبهم، لأن الملك لا يشترط أن تحوط جبليته بالجزئيات، إنما كانوا على علم مما يرتكبه جنس البشر في الأرض أي كان، ولهذا قالوا: (**أتجعل فيها من يفسد**) إلى آخره (**خليفة**)، فما هي الحكمة وتترك أن تكون الخلافة منا، (**ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**)، ولما كان الإطلاع على تفصيل الحكمة متعذرا، وسر القضاء في الخلق متسترا قال: (**إني أعلم ما لا تعلمون**). وبعدما تعلقت إرادته بتنجيز خلقة آدم على وفق علمه رتب في فطرته جميع ما تقتضيه الأسماء الإلـهية والصفات الأقدسية، جلالية وجمالية وكمالية. فحقيقته تطلب تلك المقتضيات بالجبلية، ثم أطلعه على حقائق تلك الأسماء ولوازمها، وهو قوله: (**وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا**) مما تقدم من الجمالية والجلالية، زيادة على ما وصل إليه علم الملائكة وانطوى في جبليتهم من الأسماء الجمالية والصفات التنزيهية، لأنه تعالى كان متعرفا لهم بما هو كالهادي والنافع لا بما هو كالضار والمانع، وبعد ما جعل في آدم

الإستعداد ما يتوصل به إلى إدراك حقائق سائر الأسماء (**ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ**) أي عرض عليهم مسميات ما تقتضيه تلك الأسماء الجلالية والكمالية، فلما هيئت لديهم على ما سبق في علمه مصادر جميع الأسماء كالعفو والإنتقام، والعطاء والمنع، والنفع والضر، إلى آخر مصادر الأسماء الإلهية (**فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ**) على ما تقع إن لم يكن في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء (**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**) في دعواكم من أنكم على علم بجميع الأسماء والصفات وعموم التجليات (**قَالُواْ سُبْحَانَكَ**) جلت حكمتك وتقدست إرادتك (**لَا عِلْمَ لَنَآ**) بعموم الأسماء والتجليات (**إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**) وأشغلتنا به من التسبيح والتقديس. ولما حصل منهم الإعتراف، وأذعنوا بالتقصير، وأذنوا بالإنصاف (**قَالَ يَاءَادمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ، فَلَمَّآ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ**) من الأنباء بالغيب، فلما أطلعهم على ما استتر عنهم من جهة حقائق الأسماء ومقتضياتها من أن كل إسم يطلب متعلقا، ولابد من ظهور الأسماء عمومها، وإلا تعطل بعضها، وأفصح غاية الإفصاح، وجاد وأفاد بما أودعه الله فيه من الإستعداد، فظهرت لهم صفة الخصوصية، واستترت أوصاف البشرية، والعلم أحرىٰ بالستر لكل وصف ذميم، وبما اتضح لديهم (**قَالَ**) تعالى تبكيتا لهم على ما اقترفوه من عدم التفويض (**أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ**) التي هي مقركم (**وَالْأَرْضِ**) التي هي مقر الخلافة وما يقع فيها من الفساد وسفك الدماء، وهل ظننتم أني فاعل ذلك على حين غفلة حتى تذكروني، كلا! إني على علم من ذلك (**وَأَعْلَمُ**) منكم (**مَا تُبْدُونَ**) من الطاعة والتسبيح (**وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**) في

أنفسكم من الاعتراض على أني جاعل في الأرض خليفة. ولما تحقق منهم الإعتراف وذعنوا بالحق ودنوا بالإنصاف، أراد الله تعالى أن يحقق صدقهم بذلك فيستعبدهم لآدم ويبليهم بالسجود، حتى لا يقع منهم عليه اعتراض بعد ذلك، فضلا أن يقع منهم على الله تعالى، امتحنهم بالسجود فقال: **(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ)** المستشارين أولا لا لغيرهم من العالين، لأنه لم تحصل لهم مشاورة، ولم يقع منهم اعتراض **(اسْجُدُواْ لِآدَمَ)** واخضعوا له، ولا تعترضوا عليه في المستقبل، فقد استبان أنه أوسع منكم علما **(فَسَجَدُوٓاْ)** من غير استفسار عما هي الحكمة في السجود كما استفسروا أولا عند قولهم: **(أتجعل فيها من يفسد فيها)**، ولواستفسروا ثانيا لحقت بهم العقوبة، لأنهم الآن على علم من شأن آدم، فإن زلة العالم أشنع من زلة غيره، ولما كان إبليس لم يدخل في المشورة أولا عند قوله: **(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)**، ولم يسمع من آدم من علم الأسماء شيئا ، إنما أحضر وقت الأمر بالسجود، فامتنع لذلك وهو قوله: **(إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ)** أي امتنع، والإستثناء منقطع هنا، لأنه من الجن، والإمتناع كان منه لعلل اعتمدها، فقطع النظر عن السابقية.

أولا : إنه لم يحضر المشورة.

ثانيا: إنه لم يسمع من آدم من العلم ما يستوجب خضوعه له بأن يكون له عليه حق.

وثالثا: كونه متعبدا وآدم لم يسبق منه عمل يستوجب الأفضلية على إبليس.

ورابعـا : إنه خير منه على ما اعتقده إبليس من جهة الفطرة النارية بالنسبة للفطرة الترابية.

وخـامسا : إن الخطاب كان للملائكة وإبليس من الجن.

وسـادسا : احتجب عن شهود الحق في آدم.

وسـابعا : اعتمد على نهي الله تعالىٰ عباده عن السجود لغيره.

وثـامنا : ظن أن مكانته عند الله لا تسقط بمجرد امتناعه عن السجود لمخلوق.

وتـاسعا : أراد أن يستفسر كما استفسرت الملائكة في أول خلقة آدم.

وعاشـرا : ما استفزه من الكبر.

والحادي عشر : موافقةً لما جرى به القدر، ولهذا سجد الملائكة كلهم، إلا إبليس أبى، (**وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ**) في علم الله (**مِنَ الكَافِرِينَ**) بسبب ما جحده من وجود السجود لآدم والإعتراف بأفضليَته، لا كونه كافرا بالله وبصفاته، فهو أبعد من أن يجحد وحدانية الله بما سبق له من الإنقياد، إنما كفره عناد.

ثم أعلم أن الملائكة المأمورين بـالسجود لآدم لن يزالوا ساجدين سجود طاعة وامتثال لآدم، لأنه تعالى لم يخبرنا عنهم بالرفع من السجود، كما أخبرنا بأنهم سجدوا، وسجودهم هذا الآن لآدم هو عبارة عن خضوعهم وامتثالهم، ونعني بهم الملائكة الموكلين بجنس البشر. وقد ورد في الخبر: « أن في الإنسان ثلاثمائة وستة وستين عرقا، مع كل عرق ملك مسخر في حفظ

الإنسان »، وكفى بذلك طاعة وسجودا، فتجد الملائكة حافين من حوله، لا يألون من نصحهم وحفظهم له، وحتى لو أراد ابن آدم أن يقترف مخالفة كما هي عادته يتركونه وشأنه، ولا ينقص شيء من اعتنائهم به، فيا لها من طاعة ويا له من سجود، لولا أن يكونوا عليه في الآخرة شهودا.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**وإذ قال ربك للملائكة... إلى قوله: وكان من الكافرين**) اثنان وعشرون حكما:

الأول: علمنا بمشروعية المشورة وإن من الفاضل للمفضول، من قوله: (**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**).

الثاني: علمنا بجواز الإستفسار، وإن من الأدنى إلى الأعلى، من قول الملائكة: (**أتجعل فيها من يفسد فيها**).

الثالث: علمنا بجواز ذكر معايب الناس عند المهمة، من قولهم أيضا: (**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**).

الرابع: علمنا بجواز الإنصات للمغتاب إن كان بقصد النصح، من استماعه تعالى لهم وعدم اعتراضه عليهم.

الخامس: علمنا بجواز نسبة الفعل للعبد والإفتخار بالطاعة، من قولهم: (**ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**).

السادس: علمنا بتعيين كتمان ما يتعذر بيانه، من قوله: (**إني أعلم ما لا تعلمون**).

السابع: علمنا بجواز تخصيص المعلم أحد التلامذة بما لا يخصص به غيره، من قوله: **(وعَلَّمَ ءادم الأسماء كلها)** دون الملائكة.

الثامن: علمنا بجواز امتحان التلامذة، من قوله: **(أنبئوني بأسماء هؤلاء)**.

التاسع: علمنا بوجوب اعتراف المقصر بتقصيره، من قولهم: **(لا علم لنا)**.

العاشر: علمنا بمشروعية الإجازة، من قوله: **(أنبئهم بأسمائهم)**.

الحادي عشر: علمنا بجواز افتخار المعلم بتلميذه، من قوله أيضا: **(أنبئهم بأسمائهم)**.

الثاني عشر: علمنا بوجوب إظهار ما يعلمه التلميذ إذا أُمِرَ بذلك من جواب آدم لما يعلمه من الأسماء.

الثالث عشر: علمنا بجواز تبكيت من نسب لنفسه أكثر مما له من قوله: **(ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض)**.

الرابع عشر: علمنا بوجوب التفويض لله المستفاد من عموم القصة.

الخامس عشر: علمنا بثبوت الأفضلية بالعلم لا بمجرد العمل، من تفضيله تعالى آدم على الملائكة.

السادس عشر: علمنا بأن الخصوصية لا تتوقف على عمل، لأن ءادم لم يسبق له عمل يوجب أفضليته على الملائكة.

السابع عشر : علمنا بأن المعاصي محبطة للأعمال من طرد إبليس بمجرد مخالفته.

الثامن عشر : علمنا بأن الكبر أكبر داء فى سقوط المنزلة ووجوب الطرد، من قصته أيضا.

التاسع عشر : علمنا بأن الجاحد لواجب معلوم من الدين بالضرورة يكفر، بما جحده إبليس من أمر الله بالسجود لآدم أن يكون واجبا.

تمام العشرين : علمنا بأن التأويل البعيد لا تقوم به الحجة، مما تأوله إبليس.

الحادي والعشرون : علمنا بأن القياس لا يعمل مع النص الصريح، من قياس إبليس مع وجود الأمر إليه بالسجود.

الثاني والعشرون : علمنا بأن التوبة أقرب وسيلة في الرجوع إلى الله، من توبة آدم عليه السلام، اللهم اجعلنا من التائبين يا أرحم الرحمين يا رب العالمين.

الإشـــــارة

الخليفة للملك هو عبارة عن المتولي لأمور القائم بشؤونه، بمعنى أنه يخلفه في المحل المستخلف فيه، ولابد وأن يكون فيه من نعوت الملك من جهة العطاء والمنع، والنفع والضر، وغير ذلك من النعوت التي تربطه بالملك، وتميزه عن المملوك. والمعنى أنه يكون ملكا من وجهة مملوكا من الأخرى، وبهذا

الموجب ظهر تعالى في آدم بعموم أسمائه وصفاته، (**خلق الله آدم على صورته**)، ولولا ذلك لما سجدت الملائكة له، فمن نظر وجه الملك في الخليفة فقد قام بحقه، ومن لم يعرفه باء بغضبه، وما تميزت الملائكة من الشياطين إلا بذلك، فملاحظة الحق في الخلق خطة الملائكة المقربين، وعدم ملاحظته خطة الشياطين، والناس جاءت على أزواج ثلاثة:

فطائفة على نعت آدم، وهم العارفون والجهابذة الواصلون، عرفوا الأسماء وحقائقها، والصفات ودقائقها، والذات ومقتضياتها، فاستحقوا بذلك الخلافة الإلهية والظهور على جميع البرية.

وطائفة جاءت على خطة الملائكة، وهم العلماء العاملون، والزهاد الصالحون، غير أنهم محجبون عما وراء الستور فيما يقتضي الشعور، ولهذا تجدهم ينتقدون على القوم أحيانا فيما يظهر لهم في سيرتهم من النقص، كما ظهر للملائكة في آدم، لكن قبل أن يطلعهم الله على ما لهم من المزايا، ويستر عنهم أوصاف البشرية بسر الخصوصية، وأما بعد الإطلاع فهم أبعد من أن يجحدوا الحق، لكن يبتليهم الله بالسجود إليهم، كما ابتلى الملائكة بالسجود لآدم، ولهذا لا تجد عالما ممن يتوسم بالصلاح إلا وهو يدين بالإنحطاط للقوم وبالإعتراف بعلومهم، ولا تجدهم بين أيديهم إلا كما تجد الملائكة بحضرة آدم عليهم السلام، وهذه الطائفة أقرب من الولاية الخاصة.

الطائفة الثالثة: وهي أبعد الطوائف عن الله سارت على خطة الشياطين، والحق يقول: (**ولا تتبعوا خطوات الشيطان**) فإنها

لم تعترف بالإتقان، ولا تدين بالشهود ولا بالعيان، ترى كأن الوجود فارغ من كل معنى راجعة لذات الله وصفاته - عفانا الله من الإحتجاب -.

ثم أن نظير آدم على ما به الإشارة تنزل اللطيفة الروحانية من سماء الحرية لتقوم بالخلافة في هذا البدن على مقتضى العبودية. فبعدما تعلقت به على كره حسبما يقتضيه فراق الوطن، وما كانت عليه، أيدها الله عز وجل بما تحتاج إليه، وخصها بخصائص كانت مقصورة عليه، ومن ذلك أن أسجد لها الملائكة، فهي إلى الآن حافة من حوله، فمنها ساكنة في بدنه، ومنها خارجة عليه، ألا ترى أن الإنسان في حالة النوم والأنفاس تجري مجراها، والدماء تسلك مسلكها، وحركة العروق مثل ذلك، وليس ذلك إلا من آثار الموكلين به، ومنهم سكان القوة الفكرية، وسكان القوة العقلية والبصرية والسمعية. وقس على ذلك، (**وما يعلم جنود ربك إلا هو**). وكل هذا من آثار السجود لآدم، وأن امتناع الشيطان من السجود لآدم لما تقتضيه حقيقته النارية المستمدة منها القوة الغضبية والطبيعية، فهي مالكة بالطبع، لا تنطوي تحت القوة الترابية، ولهذا تجد الإنسان كيفما كان إلّا والغضب يستفزه، وجاء في الخبر: «**إن الغضب شيطان**» وأما مقر آدم في الجنة نظيره صيبوبة الإنسان فهي جنة يتبوأ منها حيث يشاء، بحيث لا يسأل عما يفعل، ولما استعملت فيه الغريزة الشهوانية واستحكمت منه القوة النارية التي هي حقيقة الشيطان، دعته إلى شجرة المخالفة، فأكل منها، فأهبطه الله إلى دركة التكليف، وحصل بين القوة العقلية والطبيعية

عداوة أبدية، فمن كان تعلقه بالقوة العقلية كان مقره الحضرة الإلـٰهية المشار لها بقوله تعالى: (**ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى**) ومن أخلد إلى الأرض قال تعالى: (**نوله ما تولى**).

لســان الــروح

يعتبر من آدم اللطيفة الإلـٰهية المتنزلة من سماء الحرية إلى أرض العبودية بما اشتملت عليه من الصفات الكمالية على مقتضى (**إني جاعل في الأرض خليفة**)، خطاب من حضرة الذات الأقدسية إلى الأسماء الأزلية، فأجاب العدل بلسان المتكلم قائلا: أتجعل في أرض العبودية من يفسد فيها ويسفك الدماء، مستفهما عما تقتضيه الإرادة الأزلية والحكمة الأبدية، وكان العليم أحوط بالجزئيات فضلا عن الكليات، قال: (**إني أعلم ما لا تعلمون**) فرجعت الأسماء لصفاتها، والصفات لذاتها قائلة: (**لا يسأل عما يفعل وهم يسألون**).

قــولــه تـعـالىٰ

وَقُلْنَا يَآ ءَادَمُ اسْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا، وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ، فَأَزَلَّهُمَا الشَيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ، فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِنْ رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا،

فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِئَايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

التفسير

فبعد ما انتهت حكاية ما جرى بينه تعالى وبين الملائكة وإبليس، وأخذ منها كل على قدر مشروبه، شرع في ذكر ما جرى بينه وبين آدم فقال: (**وَقُلْنَا يَا ءَادَمُ**) هو أبو البشر (**أَسْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ**) حواء (**الجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا**) أي من ثمارها (**رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا**) أي أكل وسع ورفاهية (**وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ**) أي بالأكل (**فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**) لأنفسهم بارتكابكما المنهي عنه، ثم أنّه اختلف في الشجرة ما هي؟ هل هي الحنطة أم التين أم غير ذلك؟ وليس تحت الإختلاف طائل، لأن المقصود هو ثبوت النهي عنها (**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا**) من زلت القدم حركته فحركهما إلى أن أوقعهما في المخالفة (**فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**) من النعيم (**وَقُلْنَا اهْبِطُوا**) الضمير يشمل حواء وآدم والشيطان (**بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**) فبذلك انتشرت العداوة بين الصنفين الإنس والشياطين إلى يوم الدين، فالبغضية راجعة لذرية الفريقين. البغض يتوارث والحب مثله (**وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ**) من الدهر، أي مدة ينقضي فيها أجلكم، (**ولكل أجل كتاب**)، (**فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِنْ رَّبِّهِ**) دون حواء وإبليس (**كَلِمَاتٍ**) وهي قوله: (**ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكنن من الخاسرين**)، (**فَتَابَ**

عَلَيْهِ) وعلى حواء بالتبعية (**إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**).

ثم أتى تعالى بما فيه تكرار للتأكيد، وليرتب عليه غيره فقال: (**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا**) أي من الجنة (**جَمِيعًا**) حتى لا يتوهم أنه أهبط الشيطان دون آدم وحواء لما وقعت منهما التوبة (**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى**) أي من التنصيص على سبيل الهداية، على لسان ملائكته أو رسل البشر (**فَمَنْ تَبِعَ**) منكم (**هُدَايَ**) أي تلك الطريقة المرسومة (**فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**) في الآخرة (**وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**) في الدنيا على ما فاتهم من الموافقة قبل التوبة (**وَالَّذِينَ كَفَرُوا**) منكم أو من ذريتكم (**وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**).

ثم أقول: إنه تعالى لم يتعرض لبيان الجنة التي أسكنها آدم، هل هي في الأرض؟ وبه قال أبو القاسم البلخي وأبو سليم الأصبهاني وغيرهما. ذكره الفخر الرازي. وعلى فرض أنها في السماء، فهل هي دار الخلد أم أحد الأجرام العلويات؟ وعلى كل حال، فالدليل أرجح في كونها ليست هي الجنة المدخرة بعد الموت لوجوه، منها: إن نعيم جنة الخلد غير منقطع، وهذه انقطع نعيمها.

الثاني: أن نعيمها غير مقيد بشجرة دون الأخرى، وهذه مقيد نعيمها.

الثالث: إنها محرمة على الشيطان أن يدخلها من كل الوجوه، وهذه دخلها.

الرابع: إنها لو كانت جنة الخلد لما صح للشيطان أن يشوش

على آدم بقوله: (**هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلىٰ**) والحالة أنه فيها.

الخامس: إن دار الخلد لا يعصى الله فيها، وهذه عصى آدم فيها.

السادس: إنها لا يحصل فيها حزن، وهذه قد حصل لآدم من الحزن ما الله أعلم به.

السابع: إنه قال للملائكة: (**إني جاعل في الأرض خليفة**)، ولم يقل في السماء، ولا في جنة المأوىٰ.

الثامن: إن وسوسة الشيطان كانت لآدم بعد أن قال له تعالىٰ: (**اهبط منها، فما يكون لك أن تتكبر فيها**). فكيف يسوغ له الرقي إلى جنة سقفها عرش الرحمٰن بعد ما حلّ له من الطرد.

التاسع: إن خلقة آدم كانت في الأرض ومن الأرض، ولم يبلغنا عنه أنه أعرج به إلى السماء، وأما الهبوط فمن المحتمل أن يكون على حد قوله تعالى: (**اهبطوا مصرا**)، والله أعلم.

والأحوط أن نعتقد أن آدم كان في محل يسمى بالجنة، بدون تعيين، وأما تصور المعصية في حق آدم – عليه السلام – فهو محل النزاع، فهل هي كانت قبل نبوته أو بعدها؟ وهل هي صغيرة أو كبيرة؟ وهل صدرت منه عمدا أو استغفالا؟ والطرق في ذلك تشعبت، والمسالك توعرت بين الإثبات والنفي، وفي كلا الوجهين ضرر، لأن إثبات المخالفة للأنبياء – عليهم السلام – تقضي بانحلال عقد الشرائع، لأنهم أمناء على أسرار الوحي، وإذا ثبتت الخيانة في شيء سرت في جميع الشرائع، وهذا لايخفى ضرره وهو الإثبات.

وأما النفي لا يبعد ضررا منه، لما فيه من رد النصوص الصريحة، كقوله: (**وعصى ءادم ربه**). وعليه فلم يبق لنا إلّا التأويل الحسن مهما وفقنا الله إليه، فأقول: إن آدم عند النفخ فيه في أول خلقته لم يكن مستعدا كل الإستعداد، ولن يستكمل قواه العقلية والفكرية إلّا شيئا فشيئا، كما هي سنة الله في خلقه، وما أسكنه تعالى الجنة إلّا ليكمل قواه الحسية والمعنوية، ونهيه تعالى له عن الأكل من الشجرة كان نهي حمية وشفقة، كما يحمى المريض عن الأكل بواسطة الطبيب عما لا يوافق طبعه، وربما كان طعم الشجرة ثقيلا لا تحمله معدتهما قبل الإستعداد له، ولما وقع ذلك في الوقت الذي حددته الإرادة دل ذلك على استكمال القوة ووجود الحرص فيهما، وهي دلالة تنبىء عن تمام استعدادهما للقيام بشؤونهما، ولو ألقاهما تعالى في الأرض قبل وجود الأهلية مع قفرتها لاختل نظامها.

وأما تشنيعه تعالى عليهما بالمعصية فحكمته ليرتب عليه إخراجهما من الجنة، ولولا ذلك لظهر لآدم أن إخراجه من الجنة ليس هو من قبيل الإحسان إليه، وفي ذلك ما يضر بعقيدته، ولما أثبت في نظره تلك المخالفة رجع على نفسه باللوم والإلتجاء لله. وفيها أيضا فائدة أخرى وهي بث العداوة بينه وبين الشيطان حتى لا يأمنه عند مقره على منصب الخلافة.

وبالجملة إن تحذير الله لآدم من الشيطان كان درسا بالفعل، وهذه هي الحكمة في إدخاله الجنة وإخراجه منها، وفي ما وقع له مع إبليس، والله أعلم.

الإستنبـــــاط

يستخرج من قوله تعالىٰ: (**وقلنا يا ءادم... إلى قوله: خالدون**)، ستة أحكام:

الأول: علمنا بأن آدم استقر في محل يسمى بالجنة برهة من الزمان في أول أمره، من قوله: (**وقلنا يا ءادم اسكن أنت وزوجك الجنة**).

الثاني: علمنا بأن الجنة التي كان فيها لحقته فيها بعض التكاليف من قوله: (**ولا تقربا هذه الشجرة**) حيث عبر بالقرب، فيكون أكله ممتنعا من طريق الأحروية.

الثالث: علمنا بأن الشيطان كان له نفوذ بالجنة بعد خروجه منها، وقبل هبوطه إلى الأرض، وإلا لما وصلت وسوسته إلى آدم وهو بالجنة من قوله: (**فأزلهما الشيطان عنها**).

الرابع: علمنا بأن الخروج من الجنة هو غير الهبوط الآتي ذكره، ولهذا بقيت يد للشيطان في الجنة، من قوله: (**فأخرجهما مما كانا فيه**).

الخامس: علمنا بأن الشيطان تأخر هبوطه عن خروجه من الجنة، حتى أهبطه الله مع آدم وحواء، من قوله: (**وقلنا اهبطوا**) حيث أتى بضمير الجمع.

السادس: علمنا بأن للشيطان فروعا وأبناء، كما لآدم، من قوله: (**بعضكم لبعض عَدُوٌّ**).

الإشـــــارة

في قوله: (**ولا تقربا هذه الشجرة**) حيث ذكرها بالجنس، ولم يذكرها بالنوع، تفيد وجوب التوقي والإحتراز من كل مشتبه، فضلا على المنصوص عليه بالمنع، لئلا يكون داخلا تحت الجنس، وفي تعبيره عن الأكل بالقرب كفاية، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

لســان الــروح

يقول: إن آدم وإن أساء في دار الإحسان، فقد أحسن في دار الإساءة، ليعلم أبناءه إحتمال وقوع الشيء في ضده، حتى لا يأمن أحدهم مع الأمن، ولا ييأس مع الخدلان.

قــولــه تــعــالىٰ

يَا بَنِيَ إِسْرَآئِيلَ أُذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِيَ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيَ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ، وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَاتِي ثَمَناً قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ، وَلَا تَلْبِسُواْ الحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ، وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ، وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ، أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ،

أَفَلَا تَعْقِلُونَ، وَاسْتَعِينُواْ بِالْصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الخَاشِعِينَ، الذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَاقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

التفسير

ثم بعد توجيهه الخطاب لعموم المكلفين لون العبارة تعالى واستلفت الخطاب لطائفة مخصوصة، كانت بينه وبينها مواصلة، تحريكا لحبل المودة، فعسى أن يلتحق الفرع بأصله والعبد بربه. ثم أن تخصيص بنى إسرائيل بالذكر هو الذي وضح حجة محمد ﷺ على العالمين، من أن كتابه من الله لا من عند نفسه، كما يقول الكافرون، فلو كان كما يزعمون لما حاج أهل الكتاب في كتابهم الذي بين أيديهم، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، والعالم يشهد بأن محمدا أمي في العربية فضلا عن العبرانية، فكيف حتى يهددهم بما في التوراة بقوله: (**قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين**). ومع كونه خطابا لهم فحظنا منه غير معدوم، فهي حكاية لنا، وتقدم أن الحكاية ليست هي لمجرد التفكه، إنما هي لنأخذ منها أحكاما عديدة يعقلها العالمون، ويأخذها المستنبطون، وزيادة إن لم يشملنا النداء من قوله: (**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**)، يشملنا الضمير من قوله: (**اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ التِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**)، ومن الذي تشمله نعمته التي من أعظمها نعمة الإيجاد، ثم نعمة الإمداد، ثم نعمة الإستعداد، ثم نعمة التعرف الذي تعرف سبحانه وتعالى لعبده بها، كل على قدر طاقته. قال تعالى: (**يابني إسرائيل**) هو سيدنا يعقوب،

ومعناه بالعبرانية صفوة الله، وقيل عبد الله (**اذْكُرُوا**) من التذكر، أي استحضروا (**نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**) بإدراككم زمن نبوءة محمد ﷺ وبعثته بين أظهركم، ليجدد لكم ما اندرس من الدين، ويهديكم سنن الأولين، وإياكم أن تفوتكم هذه النعمة (**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي**) الذي عاهدتموني عليه، لَئِن بعثت فيكم رسولا لتنصرونه، فها هو قد حلّ أوانه، وجاء إبانه، فآمنوا به وبما أنزل عليه، وأوفوا بعهدكم من الله (**أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**) عندي بما ندخره لكم من الثواب (**وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**) والرهبانية هي أعلى درجة الخائفين، أي خافوني ولا تخافوا غيري، فإنّه لا يغني عنكم من الله شيئا إن نقضتم عهده (**وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ**) على محمد ﷺ، وهو القرآن (**مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ**) من التوراة والإنجيل والزبور، وسائر الصحف السماوية، من جهة ما اشتمل عليه من الأحكام والقصص وغير ذلك، فهو يذكر ويقرر الكثير مما قررته الكتب السالفة، ولو كان القرآن على خلاف ذلك لقالت اليهود إنه مخالف لكتابنا (**وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ**)، أي كفركم أشد ضررا عليكم وعلى العالمين من جهة ما سبق لكم من دلائل نبوة محمد وصفاته في التوراة، واحذروا أن تكونوا ذريعة من جهة التأسي بكم لنسبتكم للكتاب، فيكون جرمكم أعظم، ولما كان تعالى على علم من أن أحبار اليهود أسهل من جهة الميل إلى الدنيا، فقد يستبدلون الحق بالباطل، جاء بما فيه تحذير، فقال: (**وَلَا تَشْتَرُوا**) أي تستبدلوا (**بِئَايَتِي**) التي جاءتكم في بيان صفة محمد ﷺ بأن تغيّروها وتحرفوا الكتاب لأجل (**ثَمَنًا قَلِيلًا**)، فكل شيء في الدنيا قليل بإضافته بجانب الحق (**وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ**) أي لا تتقون غيري في مثل ذلك، وإن

أكرهكم على تحريف الكتاب وتغيير الصواب. ألا ترى أن هذا الخطاب وما اشتمل عليه من التحذير، يشمل كل مداهن عالم بالكتاب، توراة كان أو إنجيلا، وهو في عصرنا بالقرآن أجمل وأحرى، فليحذر علماء الدين من الرخص الواهية، والمداهنة في دين الله، فإنه تعالى يقول لهم: (**وَلَا تَلْبِسُوا**) أي تستروا (**الحَقَّ بِالْبَاطِلِ**) بأن تخلطوه حتى يشتبه على من لا خبرة له، (**وَتَكْتُمُوا الحَقَّ**) أي تسكتوا عنه (**وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**) أنه الحق، والحق أحق أن يتبع. قال ﷺ: « **من كتم علما يعرفه ألجمه الله بلجام من النار** » (**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ**) في أوقاتها وبشروطها، فإنها عماد الدين يا معاشر المسلمين، وليس المراد بالقيام هو مجرد الإتيان بصورتها وإن كانت خالية من الحضور، وإنما وجود سر الإخلاص فيها، فقد تكون صورة بلا معنى فهي إذن ساقطة غير قائمة. قال في الحكم العطائية: « الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها ». فهذه هي إقامتها، (**وَءَاتُوا الزَّكَاةَ**) يا أهل الأموال فيما وجبت فيه، فإنها من أركان الدين (**وَارْكَعُوا**) واسجدوا وكونوا (**مَعَ الرَّاكِعِينَ**) أي مع جملة المسلمين، زيادة على إقام الصلاة في التمام، ولا يخفى ما في هذه الآية الكريمة من الخطاب الشامل لكل متظاهر بالخير متكاسل عن فعله، لا يأتي بالصلاة على وجهها، وإن أتى بها لا في أوقاتها، وإن كانت في أوقاتها جاءت بالإنفراد غالبا، وقد عمت هذه البلية في أكثر المعلمين، يأمرون بالخير ولا يأتمرون، وينهون عن المنكر ولا ينتهون، فلا جرم يتناولهم قوله تعالى: (**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ**) أي بفعل الخير مطلقا (**وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ**) لا تأمرونها بمثل ذلك (**وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ**)

وتعرفون ما فيه من الأحكام، أليس هذا من النفاق والخذلان البين! (**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**)، أي أليس لكم عقول تميزون بها، وبصائر تعتمدون عليها، حتى بلغت بكم شقوتكم إلى هذه الغاية، تأمرون ولا تأتمرون. ثم إن أردتم الخلاص فاتقوا الله (**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ**) على قول الحق بأن لا تكتموه مهما عرفتموه (**والصَّلَاةِ**) إنها تنهى عن الفحشاء والمنكر (**وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ**) أي ثقيلة على عموم الناس (**إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**) فإنها قرة أعينهم. قال عليه الصلاة والسلام: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**» (**الذِينَ يَظُنُّونَ**) في صلاتهم (**أَنَّهُمْ مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ**) بما استولت عليهم من الهيبة في حال وقوفهم مع الله، وإليهم الإشارة في قوله تعالى: (**والذين هم في صلاتهم خاشعون**) (**وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**) بعد الممات، فيجزيهم بما فعلوه، ولهذا خفت عنهم الصلاة في جانب ما أعده الله للمصلين، وكانت ثقيلة على من لم يَرْجُ ثوابا، ولا يخشى عقابا.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**يا بني إسرائيل... إلى قوله: راجعون**) أربعة عشر حكما:

الأول: علمنا بأن الخطاب إذا كان من الإنسان عامًّا بمكاتبة فالأحسن أن يخصص فيه بالذكر من يستحق الذكر، من قوله: (**يا بني إسرائيل**) حيث خصصهم تعالى بالذكر في صدر الكتاب.

الثاني: علمنا من حسن أسلوب الدعوة أن تُذَكِّرَ المخاطب بما

سبق بينك وبينه من الوداد، من قوله: (**أذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم**).

الثالث: علمنا بأنه يجب على من أنعم الله عليه بنعمة أن لا يجحدها، من قوله أيضا: (**أذكروا نعمتي**).

الرابع: علمنا بأنّه من أراد أن يوفي الله معه بعهده يوفي هو بعهده مع الله، من قوله: (**أوفوا بعهدي أوف بعهدكم**).

الخامس: علمنا بأن الوعظ أحسنه أن يكون متركبا من ترغيب وترهيب من قوله: (**وإياي فارهبون**)، بعد ما ذكر ما أنعم به عليهم.

السادس: علمنا بأنّ القرآن جاء مصدقا للتوراة طبق خبرها، من قوله: (**مصدقا لما معهم**).

السابع: علمنا بأن العوض كيفما كان على أن يتحاشا به الإنسان عن حكم من أحكام الله، فهو قليل، وفاعله ممقوت، من قوله: (**ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا**).

الثامن: علمنا بأن التدليس في دين الله ممتنع، من قوله: (**ولا تلبسوا الحق بالباطل**).

التاسع: علمنا بأن كتمان الحق مع العلم به أنّه حق محرم، من قوله: (**ولا تكتموا الحق وأنتم تعلمون**).

العاشر: علمنا بمطلوبية الإتيان بالصلاة جماعة، من قوله: (**اركعوا مع الراكعين**) وإلّا لاكتفى عن ذكر هذه الجملة بما سبق من قوله: (**وأقيموا الصلاة**).

الحادي عشر : علمنا بشناعة من يأمر الناس ولا يأتمر، من قوله : (**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم**).

الثاني عشر : علمنا بأن الصبر والصلاة مُعينان على القيام بحدود الله من قوله : (**واستعينوا بالصبر والصلاة**).

الثالث عشر : علمنا بأن الصلاة ثقيلة على العموم، بقدر ما خفت على الخصوص، من قوله : (**وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين**).

الرابع عشر : علمنا بأن الخاشعين في صلاتهم هم الذين يظنون أنهم قادمون على الله فيها، وأنهم إليه راجعون، وهذا المراد بالظن، وأما لو رجع إلى الآخرة لما صح إيمانا.

الإشـــــارة

في توجه الخطاب لبني إسرائيل يتناول كل نفس أمارة، وقد يشمل اللوامة أحيانا، ووجه الجمع بين الصنفين نقض العهد في كل منهما، وكفران النعم، وخبث الطوية، وبهذه المناسبة أراد تعالى أن ينبه النفوس المدبرة، ويستلفتها لبابه، فكأنه يقول : يا معاشر النفوس، (**أذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم**)، بالإضافة لنفوس البهائم والجمادات، (**وأفوا بعهدي**) الذي عاهدتموني في عالم الأرواح، إذ قلتم بلى ! (**أوف بعهدكم**) في عالم الأشباح بأن نكون منكم قريبا، ومنكم مجيبا، (**وإياي فارهبون**)، (**وآمنوا بما أنزلت**) من المعارف الغيبية والأسرار القدسية على عبدنا، وهو القلب الخالص لله، الفارغ مما سواه، المشار له في الحديث القدوسي : (**لا يسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي**

المؤمن)، فالإنسان بقلبه لا بجسمه، (**ولا تكونوا أول كافر به**) لأنكم على علم من خصائصه، (**ولا تشتروا بآياتي**) الدالة على معرفتي، أي تستبدلونها بأقل الثمن، فإن كل ما سوى الله بالإضافة إليه قليل، دنياوي أو أخراوي، (**ولا تلبسوا الحق**) الثابت الذي هو الله (**بالباطل**) الزائل الذي هو الخلق، بأن يقع نظركم على الخلق قبل وقوعه على الحق، وهذا هو اللبس وكتمان الحق بعد معرفتكم إياه، (**وأنتم تعلمون**) أن ليس في الوجود سواه. (**واستعينوا بالصبر**) على إظهار الحق، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، (**والصلاة**) لأنها وصلة بيني وبينكم، (**وإنها لكبيرة**) أي ثقيلة على كل محجوب (**إلا على الخاشعين**) العارفين الذين يكتمون، وفي مصحف ابن مسعود (**يعلمون أنهم ملاقو ربهم**) على نعت المشاهدة، (**وأنهم إليه**) أي في صلاتهم (**راجعون**).

لسان الروح

في قوله: (**ولا تلبسوا الحق بالباطل**) يقول: إن الحق الذي هو الخالق لا يلتبس بالباطل، إنما يلتبس بالحق المخلوق، وهو أيضا باطل، فليحذر المخالفون أن يكتموا الحق وهم يعلمون.

قوله تعالى

يَا بَنِيَ إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِيَ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَاتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ

نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ

التفسير

كل من يتأمل الخطاب لبني إسرائيل في صدر الكتاب بصفات المدح وأنواع الثناء يعلم ويستفيد كيفية الدعوة إلى الله والدلالة عليه إن كان من أهلها، وهذا كله من نتائج قوله تعالى: (**أُدْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**). وأي أسلوب أحسن وتلطف أمكن في القلوب من هذا الأسلوب، فإنه تعالى خاطب فروع الإسرائيليين بوصف أصولها احتراما لجنابهم، وتوقيرا لكتابهم، وتغليبا لجانب الصلحاء على جانب الطلحاء، وتعليما لنا كيفية الدعوة إلى الله، فطفق القرآن يسرد ما تواتر عليهم من النعم، تاركا ما حل بهم من النقم بنقضهم العهود، وقتلهم الأنبياء بغير الحق، وغير ذلك (**إن الله بالناس لرؤوف رحيم**). قال تعالى: (**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا**) أي انتبهوا وتثبتوا وتذكروا (**نِعْمَتِيَ الَّتِيَ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**) الآن بإدراككم نبوة محمد ﷺ كما تقدم، وقبل الآن بما سيأتي (**وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ**) حيث جعلت فيكم ومنكم النبوة والرسالة والملك غالبا فلن تجد طائفة انحصر فيها ما انحصر في الإسرائيليين، ولا يلزم من هذه الأفضلية دخول جنس العرب في المفضولية، كما يوهمه ظاهر اللفظ، وغاية ما فيه أنه جاء على حد قوله تعالى: (**والله فضل بعضكم على بعض في الرزق**)، فالأفضلية في الرزق لا تستلزم الأفضلية في العلم أو في النسب

مثلا، فأفضلية الاسرائيليين كانت من جهة حصر النبوءة فيهم غالبا، وأفضلية العرب جاءت من حيث وقوع الخاتمة منهم، والعبرة بالخواتم. وبعدما استعطفهم واستمالهم بأنواع الملاطفة والترغيب، هددهم الآن بشيء من الترهيب فقال: (**وَاتَّقُوا يَوْمًا**) مجموع له الناس، ومن نعمته أنه (**لَا تَجْزِي**) فيه (**نَفْسٌ**) كيفما كانت في علو المقام (**عَنْ نَفْسٍ**) بأن تخفف عنها من العذاب (**شَيْئًا**) مما حل بها (**وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**) والمعنى أنّ الشفاعة معدومة فيمن كفر ومات على كفره، وأما المؤمن لا يعدم حظه منها (**وَلَا يُؤْخَذُ**) أي يقبل (**مِنْهَا عَدْلٌ**) أي بدل أو فداء، فكل امرىء بما كسبت يداه رهين (**وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ**) أي يمنعون مما حل بهم بنصرة ناصر لهم كيفما كان.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**يا بني إسرائيل... إلى قوله: ينصرون**) ثلاثة أحكام:

الأول: علمنا بأن الداعي إلى الله يستحسن منه أن لا يباشر المدعوين إلا بأحب الألقاب إليهم، وأن لا يذكرهم أولا إلا بما يستحسنونه، من قوله: (**وإني فضلتكم على العالمين**) في حق بني إسرائيل.

الثاني: علمنا أن يوم القيامة لا تجزي فيه نفس عن نفس كيفما كانت.

الثالث: علمنا بأنه لا تقبل شفاعة الشفعاء فيمن كفر ومات

على كفره، من قوله: (**ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون**).

الإشـــــارة

إن النفوس وإن كانت خبيثة تتعين استمالتها بكل ملاطفة، فهي أخت الإسرائيلية، ترى لنفسها أفضلية على العالمين، فمن أراد استرشادها يذكرها بأحب الألقاب إليها، وإليها الإشارة في قوله: (**وإني فضلتكم على العالمين**) ولو لم يطرق سمع الإسرائيليين في القرآن أنهم فضلوا على العالمين لما التفتوا إليه بالمرة، والذي يشعرنا بأن الخطاب يشمل كل نفس هو قوله: (**واتقوا يوما لا تجزي نفس**) كيفما كانت، مطمئنة أو مرضية عن نفس أمارة أو لوامة شيئا فكل نفس تجادل عن نفسها.

لســـان الـــروح

في قوله: (**واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا**) يقول لا تجزي فيه النفس مهما كانت نفسا إلا إذا انعكست روحا، فقد تكون لها مكانة في القرب، (**قل الروح من أمر ربي**).

قـولـه تـعـالـىٰ

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ، وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَآءٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ، وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ

وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ، وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُّمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ، ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُم مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ، وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنْفُسَكُمْ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

التفسير

ثم إنه تعالى بعدما استطرد من أنواع الترهيبات ما هو اللائق بمقام الإستعطاف، أعقبه بسرد ما أجمله من النعم في قوله: (**اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم**) ولا يخفى ما في تفصيلها من الدلالة على صدق القرآن ونبوءته فإنه ﷺ أمي، نشأ بين الأميين لا يعلمون الكتاب، وبينه وبين يهود المدينة من المسافة ما لا يخفى على العموم، ولما حَلَّ بهم أخذ في تعديد النعم التي أنعم الله بها على آبائهم ولوازمها ولا من يقول أنها على خلاف ذلك، لأن الكتاب أعدل شاهد، (**قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين**). وزيادة على ما في تفصيل النعم من المعجزات الباهرة ما نستفيده من الحكم التي يعجز عنها القلم، فليتدبر قوله تعالى مخاطبا لبني إسرائيل عطفا على ما تقدم: (**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ**)، وفرعون هذا لقب لمن ملك العمالقة بمصر، كلقب كسرى لمن ملك الفرس، ولقب قيصر لمن ملك الروم،

وخاقان لمن ملك الترك. وفرعون هذا كان إسمه مصعب ابن ريان من بقايا عاد، وقيل كان عطارا، فتوصل لها بشدة حذاقته ودهائه وسياسته المعكوسة آخرا، حيث أراد أن يحارب أمرا سماويا وحقا جليا، ومن سل سيف البغي أغمده الله في رقبته. قيل: إنه قتل من أطفال رعيته في سنة واحدة نحو التسعة مائة وتسعين ألفا، حذرا أن يعيش في تلك السنة من يكون سببا في خراب ملكه على ما رآه في المنام، وأخبرت به الكهنة، ولن ينفع حذر من قدر.

ولما أراد الله خراب ملكه سلطه على الضعفاء من خلفه، فأراد تعالى أن يذكر بني إسرائيل إستنقاذه لهم من عتو ذلك الباغي، منزلا الأبناء منزلة الآباء، فكأنه يقول: تذكروا ما وقع لكم مع آل فرعون لما كانوا (**يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ**) أي يذيقونكم أشد العذاب على اختلاف أنواعه، ومن جملة ذلك (**يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ**) أي الأطفال الصغار (**وَيَسْتَحْيُونَ**) أي يتركون (**نِسَاءَكُمْ**) أي البنات من غير ذبح، لأنهم لا يخشون ضررهن فيما يعود على الملك بالدمار (**وَفِي ذَٰلِكُمْ**) القتل والعذاب (**بَلَاءٌ**) وامتحان (**مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ**) ومن وجوه عظمته أن كان القتل والعذاب مستندا لآل فرعون مفوضا لجنوده فيدخل فيه من الفضائح ما الله أعلم به، ومع هذه البلية والمذلة التي حلت بكم أنجيناكم منها، وجعلناكم ملوكا وأمراء، ومكنا لكم في الأرض ما لم نمكن لأحد من العالمين، أو ليست هذه نعمة من الله على آبائكم وإن احتقرتموها تذكروا (**وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ**) أي فلقناه وفرقناه بينكم ولأجلكم اثنتى عشرة طريقة يابسة ممهدة

للمسير على عدد الأسباط (**فَأَنْجَيْنَاكُمْ**) من فرعون وجنوده، ولما كانوا من خلفكم ومن البحر، فسلكتموه سالمين (**وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ**) نكالا من ربكم، واحتراما لجنابكم، واستجابة لدعائكم (**وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**) في غرقه وجنوده، وفيما وقع من آية الله، أفلا تعقلون، ولكنه من جبلتكم كفران النعم، فلا تزكوا أنفسكم، فالتاريخ شاهد، وإذا نسيتم فتذكروا (**وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ**) بن عمران عليه السلام (**أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**) وذلك بعد إهلاك فرعون، وكان - عليه السلام - وعد قومه لئن أهلك الله فرعون لنأتينكم بكتاب من الله، فيه هدىً وتفصيلا لكل شيء، ولما سأله من الله ضرب له ميقاتا أربعين ليلة، ويستفاد من هذا أن الإنقطاع إلى الله يعتبر بالليالي لا بالأيام، لأنها محل الهدوء والسكون، وتجلى الله تعالى إلى سماء الدنيا في الثلث الآخر من الليل، فهي غنيمة المنقطعين إلى الله.

ثم اعلم أن بني إسرائيل لما استأنسوا بالمدح أولا لزمه أن يلحقهم من الذم على لسان القرآن ما ينسيهم ما سلف، حتى إذا قالوا نحن ما عبدنا عجلا ولا نقضنا عهدا ولا قتلنا نبيا، تلك أمة قد خلت، فيقال لهم: ولا أنتم أيضا ممن فلق بهم البحر، ولا ممن نزل عليهم المن والسلوى، ولا ممن فضلوا على العالمين، فاتقوا الله واتبعوا النبي الأمي الذي تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة، لعلكم تهتدون، وهذا أوان التوبيخ، ومنه قوله: (**ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ**) فعبدتموه (**مِنْ بَعْدِهِ**) أي من بعد ذهاب موسى إلى إلها لا محالة (**ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ**) ما ارتكبتموه من الشرك البين، أوليس هذه منة كبيرة، ولولا عفونا عنكم ورحمتنا بكم بسبب

رجوع موسىٰ إليكم لا زلتم عاكفين على عبادة العجل إلى يومنا هذا، ومع جنايتكم قبلناكم (**مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**)، ولكن قليل من عبادي الشكور، إنما يتذكر أولو الألباب، واذكروا (**وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ**) وهو التوراة (**وَالْفُرْقَانَ**) وهو النور المفرق به بين الحق والباطل، ومن ليس له نور في كتاب الله لم يزدد من الله إلا بعدا بسببه، وهو المشار له أولا (**يضل به كثيرا**)، فبنوا إسرائيل ورثوا من موسى التوراة، ولم يرثوا الفرقان الذي هو النور، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور، ونعني بالنور المعرفة الخاصة بأسرار الكتاب، ولا تكون إلا بمتابعة الرسول وصدق الطوية، وآتيناه ذلك (**لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**) لما في الكتاب، ولكن غلبت عليكم شقوتكم (**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ**) من بعد ما بلغه عنهم من عبادة العجل، ومجيئه من الميقات (**يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ**) وهلكتموها (**بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ**) إلها يعبد (**فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ**) أي فارجعوا إلى مصوركم بالخضوع والإنكسار والندامة على ما فعلتموه، وإذا أردتم الأسباب الداعية لقبول التوبة، (**فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ**) القتل (**خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ**) إن فعلتموه (**فَتَابَ عَلَيْكُمْ**) على ذلك الشرط أي إن قتلتم أنفسكم (**إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ**) أي كثير قبول التوبة، وإن تكرر نقضها كما تكرر من الإسرائليين، ويفعل ذلك لأنه (**الرَّحِيمُ**) بعباده من أنفسهم.

ثم اعلم أن القتل هذا هو عبارة عن قتل النفس بالمجاهدة في طاعة الله عز وجل، والسعي في إبطال شهواتها بالمرة وهذه الموت المعتبرة في قبول التوبة، المشار لها في الحديث بقوله

ﷺ : « **موتوا قبل أن تموتوا** »، وقيل : إن المراد بالقتل هو قتل بالفعل، وذلك أن الله جل ذكره أمر من لم يعبد العجل أن يقتل من عبده، فأشفق القريب من قتل قريبه، فأرسل الله سحابة سوداء حتى لا يرى بعضهم بعضا، فمات في ذلك اليوم نحو السبعين ألفا، ولما رأى موسى القتل مسترسلا دعا ربه أن يكشف فيما حل ببني إسرائيل، فانقشعت السحابة وانتهى القتال.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالىٰ: (**وإذ نجيناكم... إلى قوله: رحيم**) أربعة عشر حكما:

الأول: علمنا بأن فرعون بلغ من تسلطه على الإسرائيليين إلى أن صار يذبح الأبناء الصغار، ولا من يواجهه بصفة الإنكار.

الثاني: علمنا بأنه كان يفعل ذلك لغرض، وإلّا لما ترك البنات من قوله: (**ويستحيي نساءكم**).

الثالث: علمنا بأن فعله ذلك كان مما تشمئز منه النفوس، فهو أبعد عن الإنسانية، من قوله: (**وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم**).

الرابع: علمنا بأن الضعيف لابد وأنّ الله ينتصر من أجله، من قوله: (**وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم**).

الخامس: علمنا بأن الظالم لابد وأن الله ينتقم منه كيفما كان، ويشفي صدور المظلومين، من قوله: (**وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون**).

السادس: علمنا بأن الإنقطاع إلى الله والإعتكاف من أجله من سنن المرسلين، من قوله: (**وإذ واعدنا موسىٰ أربعين ليلة**).

السابع: علمنا بأن الليل أفضل من النهار من جهة تفرغ القلب لعبادة الله من اعتباره تعالى الميقات لموسى بالليل.

الثامن: علمنا بأن الإعتكاف المنذور لابد وأن تعتبر فيه الليالي من القصة أيضا.

التاسع: علمنا بأن المرشد إذا أمر أحد التلاميذة بخلوة أن لا يزيد على الأربعين ليلة حصل أو لم يحصل من القصة أيضا.

العاشر: علمنا بأن المرشد إذا لم تنجح أتباعه ليس ذلك بنقص في حقه، من اتخاذ أتباع موسى العجل من بعده.

الحادي عشر: علمنا بأن المرتد أقرب من عفو الله إن رجع عن غيه، من قوله: (**ثم عفونا عنكم**).

الثاني عشر: علمنا بأن الفرقان ليس هو مما يحتمل حفظه، من ظاهر الكتاب، إنما هو عبارة عن شيء خصص به النبي ومن هو على شاكلته، وإلّا لما صح العطف في قوله: (**وإذ آتينا موسىٰ الكتاب والفرقان**).

الثالث عشر: علمنا بأن نزول الكتاب على الرسول لهداية قومه، وإلّا فهو قد اهتدى بدونه، من قوله: (**لعلكم تهتدون**).

الرابع عشر: علمنا بأن التوبة في غير الإسلام كانت لابد وأن تتوقف على شيء يشق فعله على النفس، من قوله: (**اقتلوا أنفسكم**).

الإشـــــارة

لا تعتبر من الفرعونية إلّا الوصف القائم بكل نفس أمارة، لأنها مهما تحكمت على مدينة البدن تعبث بالجوارح أكثر من عبث فرعون ببني إسرائيل، فتذبحن القلوب المعبر عنها بالأبناء، وتستحي النفوس المشار لها بالنساء، وتدعي بالإستقلال في البدن وأنها الفعالة فيه لا غير، وتقول للجوارح: (**ما علمت لكم من إله غيري**) فما عليكم إلا السمع والإمتثال، ويكون الإمتنان من الله راجعا لكل نفس لوامة، فهي الناجية من الوصف القائم بالأمارة مع بقية يخشى من عودها، ولهذا رجعت طائفة منها إلى عبادة العاجلة، المعبر عنها بالعجل، لما توجه القلب المعبر عنه بموسى إلى ميقات ربه، وهي خطيئة تستوجب عليها المقت. قال ﷺ: «**حب الدنيا رأس كل خطيئة**»، والإنكباب على الدنيا من وظيفة النفوس اللوامة، ولم تتحقق لها السلامة من ذلك إلا بالفناء والموت الأبدي، ولهذا لما جاء موسى فقال: إن أردتم الخلاص من جميع النقائص (**فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم**).

ثم إن الوصف الجامع بين الفرعونية والنفس الأمارة هو الخروج عن أمر الله، ودعوة الإستقلال في كل منهما، وعلى هذا كل من يرى لنفسه أدنى وجود يميزه عن العدم، فهو آخذ بحظه من الفرعونية، وأما الوصف الجامع بين العجل والعاجلة فهو الإسم، وكون العجل مصوغا من ذهب وفضة، فكان العكوف عليهما، وليس في الدنيا أطيب منهما، فالعاكف على الدنيا هو عاكف على العجل، والعاكف على العجل هو العاكف على

الدنيـا. والوصف الجامع بين القلب وموسى - عليه السلام - وجود الإختصاص بالحق في كل منهما، لأن موسى قال فيه تعالى: (**واصطنعتك لنفسي**) وقال في القلب: (**لا يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن**)، فموسىٰ أحوج إلى قلبه وأشد من احتياج قلبه إليه.

لســان الــروح

في قوله: (**وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون**) يقول: إن الإغراق نتيجة الإستغراق والبلل أحسن منهم، والعجب ممن خاض البحر ولم يبتل.

قـولـه تـعـالىٰ

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ، ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

التـفـسـيــــر

ولما انهى تعالى الكلام على الجناية التي ارتكبها بنو إسرائيل من جهة عبادة العجل، شرع في ذكر جناية أخرى فقال: (**وَإِذْ قُلْتُمْ**) أي تذكروا مقالتكم عندما خرجتم تعتذرون إلى الله من عبادة العجل (**يَا مُوسَىٰ لَن نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً**) أي بالأبصار، والقائلون هم السبعون المختارون للميقات

(فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ) التي كادت أن تذهب بكم إلى العدم المحض (**وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**) ما حل بكم (**ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ**) أي أرجعناكم إلى قيد الحياة. فدلت الآية على مفارقتهم الدنيا، وقال وهب: إنهم لم يموتوا، إنما أخذتهم رعدة ورجفة لما عاينوا تلك الهيبة الهائلة، وعلى هذا يكون إطلاق الموت هنا من قبيل إطلاقه على النوم أحيانا، والبعث من ذلك القبيل، كما في قوله: (**ثم بعثناكم لنعلم**)، والذي يقوي حجة ما ذكرنا هو قوله: (**وأنتم تنظرون**) إذ لو حصلت لهم مفارقة الأبدان لم يتمكن لهم النظر - والله أعلم -.

ثم أقول: لا جناية في سؤال الرؤية لأن موسى كان سألها من قبل، إنما الجناية في تعليق الإيمان عليها في قولهم: (**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**)، وهذا أبلغ غاية في ضعف العقيدة لما يلزم أنهم ليسوا بمؤمنين في حال سؤالهم لها، وهذا مستبعد جدا في عصبة من خيار قوم كليم الله، ولكن من المحتمل أن يكون المراد بقولهم: (**لن نؤمن لك حتى نرى الله**) على حد قضية سيدنا إبراهيم - عليه السلام - عندما قال له تعالى: (**أولم تؤمن، قال بلى، ولكن ليطمئن قلبي**). ولعلك تقول: فأي جناية إن كان السؤال سبقهم به كليم الله، ونص السؤال جاء على حد قضية خليل الله؟

فأقول: إن الجناية تتحقق في عدم شكرهم نعمة البعث المشار لها بقوله: (**ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) وهذا بالنظر إلى نص السؤال فمحتمل. وأما لو تتبعنا ألفاظه لوجدنا في كل لفظ جناية وتقصيرا، ومن ذلك قولهم: (**يا موسى**)

فهو خطاب مجرد من كل إحترام، ولا شك أن الله لا يرضى به حسبما جاء في القرآن: (**لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا**).

الثاني: سوء التعبير في قولهم: (**لن نؤمن لك حتى نرى الله**)، فلو قالوا لن تطمئن قلوبنا حتى نرى الله لكان أجمل.

الثالث: زيادتهم اللام والكاف، وهو قولهم: لك، فكأنهم يمنون عليه إيمانهم، والحق ينهى عن ذلك، كما في القرآن: (**قل لا تمنوا عليّ إسلامكم، بل الله يمن عليكم**).

الرابع: تقيد الرؤية بكونها جهرة فيه خروج عن سنة موسى - عليه السلام - لأنه لم يقيدها بكونها جهرة، إنما قال: (**ربي أرني أنظر إليك**).

الخامس: فرط الجفاء المستفاد من قولهم: حتى نرى الله بعدم إضافته لهم، ولو قالوا حتى نرى ربنا وإلهنا لكان أحسن، وهكذا سائر ألفاظهم لو تتبعتها غالبا.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالىٰ: (**وإذ قلتم... إلى قوله: تشكرون**) خمسة أحكام:

الأول: علمنا بأن الإسرائيليين كانت لهم جفوة وغلظة في مخاطبتهم لموسى - عليه السلام -، من قوله: (**يا موسىٰ لن نؤمن لك**).

الثاني : علمنا بأن إيمان الكثير منهم كان على غير أساس متين فهو إلى الضعف أقرب منه إلى القوة، من قوله : (**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**).

الثالث : علمنا بأن شدة البحث في إقامة الحجة، وتكليف الداعي إلى الله بما يزيد على القدر المحتاج إليه هي خطة وخيمة، وذلك من تشنيعه تعالى على بني إسرائيل في مثل ذلك.

الرابع : علمنا بأن بني إسرائيل عاينوا ما حل بهم وقت الصعقة، فالمعنى لم تحصل لهم مجرد غمرة، من قوله : (**وأنتم تنظرون**).

الخامس : علمنا أنّ ما حلّ بهم يؤذن بمفارقتهم الحياة، إما من طريقة المعنى، وإما من طريقة الحس، من قوله: (**ثم بعثناكم**).

الإشـــــارة

في قوله : (**وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**)، لاتعتبر القصة إلّا منة من الله عليهم، إلّا من جهة عدم الشكر عليها عادت جناية على أفرادهم، وكيف لا وهي صادرة من خاصة أتباع كليم الله المختارين لميقات الله، المستمعين لكلام الله، فبعدما استمعوا من كلامه اشتاقوا لرؤية ذاته، وهي قاعدة مطردة، كل من سمع الكلام إشتاق إلى رؤية المتكلم، وهي خطة موسى، فلا تعدم تماما من أتباعه، فإنه عليه السلام لما كلّمه ربه قال : (**رب أرني أنظر إليك**)، لأن ظهور الذات يستلزم تقدم ظهور الصفات غالبا، ولما ظهرت صفة الكلام لن

يبعد حينئذ ظهور المتكلم فسؤالهم الرؤيا ليس بمحال إلا من جهة عدم الإستعداد لها المحتمل في البعض.

ثم إن السؤال يتضمن شيئا من رفع الهمة. قال ﷺ: « **إذا سألتم الله فعظموا المسألة** » ومن المعلوم أن همة هؤلاء أرفع ممن قال لموسى : (**أدع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض**) إلى آخره. وفي كون ألفاظ السؤال فارغة من الأدب لا يضر إن كان الحامل على ذلك الإشتياق، لأن الإساءة لا تضر مع الحب وإن كانت لم توجد هذه الصفة في جميعهم لا تعدم من بعضهم، وعلى هذا يصير معنى الآية تذكروا إذ قلتم لما سمعتم من الكلام الذي هو أعلى وأرفع من أن يسمعه كل مخلوق، يا موسى لن نؤمن لك الإيمان الكامل الذي ترضاه منا حتىّ نرى الله رؤية عيان لا رؤية إيمان، فأخذتكم الصعقة التي هي من لوازم التجلي على ما يقتضيه الفناء، كما حصلت لموسى، ولا شك أنها حاصلة لهم بسؤال موسى لها، وإلا فهي أبعد من أن تحصل بمجرد قولهم : (**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**)، وبعد حصول الفناء والإضمحلال، بعثناكم إلى البقاء لعلكم تقومون بشكر نعمة التجلي، لأن صاحب الفناء لا يقوم بواجب الشكر إلّا إذا انبعث بالله بعد الفناء بنفسه.

لسان الروح

يقول : إن موسى لم تصبه هذه الصعقة التي أصابت قومه لأنها قد كانت أصابته من قبل.

قوله تعالى

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ، كُلُواْ مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ، وَمَا ظَلَمُونَا، وَلَكِنْ كَانُواْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ، وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ يُغْفَرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ، وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ، فَبَدَّلَ الذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ

التفسير

ومن تمام لطفه تعالى، وحسن عطفه على عباده، أن يذكر لهذه الطائفة من جنايتها، ثم يذكر من إنعامه عليها ومن ذلك قوله: (**وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ**) أي من بعد ما بعثناكم من الصعقة ظللنا عليكم الغمام، تقيكم حر الشمس في التيه، تسير بسيركم، أو ليس هذا من الإحسان في مكان (**وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ**) هي نوع من الأكل تشبه العسل، تنزل من الجو على هيئة الثلج آخر الليل ويجمعونها صباحا (**وَالسَّلْوَىٰ**) وهو نوع من الطير، يساق إليهم بإذن الله، فيذبحون منه ما يحتاجون إليه من غير تعب ولا كلفة، وكل ذلك لتتفرغوا لعبادة الله، وقلنا لكم: (**كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**) وهي المن والسلوى والطيب فيهما من وجهتين، من جهة المذاق والحلية، فبنو إسرائيل لم يمنعوا النعمة إنما منعوا الشكر. قال تعالى: (**وَمَا ظَلَمُونَا**) بكفرانهم

تلك النعم الجلية والخيرات الجزيلة (**وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**) فوبال أمرهم راجع عليهم، فلحقهم من الهوان بقدر ما حصل لهم من النعم، سواء بسواء، ومن كفرانهم وعدم امتثالهم قوله تعالى: (**وَإِذْ قُلْنَا**) لبني إسرائيل بعد فراغهم من التيه: (**ادْخُلُوا هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ**) وهي بيت المقدس على ما قيل (**فَكُلُوا مِنْهَا**) أي مما فيها من الفواكه والنعم (**حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا**) أي وسعا ورفاهية (**وَادْخُلُوا الْبَابَ**) أي من باب القرية إذا أردتم الدخول (**سُجَّدًا**) حال الدخول، أي خاضعين لله، لا متكبرين ولا معجبين بأنفسكم، وأما السجود على وجهه فلا يتصور حال الدخول إلا إذا أُوِّلَ بالإنحناء (**وَقُولُوا حِطَّةٌ**) في حال الدخول، وهي كلمة من المتشابه، لم يتضح معناها، امتحنهم الله بذكرها (**يُغْفَرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ**) أي نستر عنكم جميع ما ارتكبتموه من المخالفة ونقض العهود إن دخلتم الباب سجدا وقلتم حطة، وهذا تكليف غير شاق لمن سبقت له العناية (**وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ**) منكم من غفران الخطيئة من الثواب الجزيل (**فَبَدَّلَ الذِينَ ظَلَمُوا**) من بني إسرائيل (**قَوْلًا غَيْرَ الذِي قِيلَ لَهُمْ**) أي فاستبدلوا قول حطة بما بدالهم، حيث لم يتضح عندهم معناها ودخلوا الباب أيضا غير ساجدين، وكل هذا استهزاء منهم واستخفاف بمن بلغهم الأمر على لسانه، ولكنه لم يصدر ذلك من خاصتهم (**فَأَنْزَلْنَا عَلَى الذِينَ ظَلَمُوا**) منهم (**رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ**) أي داء ووباء، فمات من بني إسرائيل في نحو اليوم والليلة ما يعلم به الله، وكان ذلك جزاء (**بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**) وبآية الله يستهزؤون.

الإستـنبـــــاط

يستخرج من قوله تعالىٰ: (**وظللنا عليكم الغمام... إلى قوله: يفسقون**) ثمانية أحكام:

الأ و ل: علمنا بأن الولاية كرامة من الله لعبده، لا تتوقف على حسن سيرة العبد من أول أمره. من قوله: (**وظللنا عليكم الغمام**) بعد ما ذكر تعالى من سوء معاملتهم ما يؤذن بالإنقطاع.

الـثـانـي: علمنا بأن المنقطع إلى الله حقيق بأن يأتيه رزقه رغداً، من حيث لا يتعب كثيرا من أجله، من قوله: (**وأنزلنا عليكم المَنَّ والسلوٰى**).

الـثـالـث: علمنا بإباحة أكل الطيبات للمنقطعين إلى الله. من قوله: (**كلوا من طيبات ما رزقناكم**).

الـرابـع: علمنا بأن ظلم الضالم عائد عليه، وأن الله متعالٍ على أن يصل إليه، (**وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**).

الخـامـس: علمنا بـأن السجود قـد يطلق على غير السجود المعروف بوضع الجبهة على الأرض، من قوله: (**وادخلوا الباب سجدا**) لأنه لا يتصور حال الدخول.

الـسـادس: علمنا بأن الألفاظ التي لا ندرك معناها قد يؤجر العبد عليها مهما استعبدنا تعالى بذكرها، كفواتح السور ونحوها، من قوله: (**وقولوا حطة**) لأن معناها لم يتضح عندهم حال الأمر بها.

الـسـابـع: علمنا بعدم جواز استبـدال المتعبـد بذكرهـا، ولو

بمرادفها ، من قوله : (**فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم**) .

الثامن : علمنا بأن التبديل والتغيير في أحكام الله أشر عقوبة على الفاعل من ترك الفعل به، من قوله: (**فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء**)، حيث رتب نزول المسخ على تبديل القول.

الإشـــــارة

تحمل تظليل الغمام بعد صاعقة الفناء على إثبات رواق الحس وقاية من شعاع حضرة القدس حال الحيرة من عظمة الله ، المعبر عنها بالتيه ، ولولا وجود الرِّوَاقِ المعبر عنه بالغمام لوقع التلاشي ، لما في الحديث : « **لو كشف عن سبحات وجهه لاحترق ما انتهى إليه بصره** » وإذا لتعطلت الحكمة ، وسقط التكليف ، والحق أرفق بعباده من ذلك ، فقدر تعالى نوعا من الشيء كلا شيء في نظر العارف ، حتى تقوم بنْيَتُهُ ، ويستقيم سيره ، وهو نعمة من الله على العبد في صورة عكسها ، قال ﷺ : « **إنه لَيُغَانُ على قلبي حتى أستغفر الله سبعين مرة في اليوم** » فكان الغين نعمة على أهله بهذا الإعتبار ، حيث كان مستجلبا للإستغفار . ثم إن النزول المنّ والسلوى يشمل نزول المعارف الإلـٰهية على قلوب الأصفياء من غير اكتساب . (**إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**) ، فمن قيدها بعقالها دامت ، ومن تركها رجعت من حيث جاءت (**ومن شكر فإنما يشكر لنفسه**) ، وإليها الإشارة في قوله : (**وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**) .

ثم إن دخول القرية بعد التيه، وإباحة الأكل منها رغدا،

عبارة عن الرجوع إلى الشريعة والعمل بمقتضاها بدون أن يستثني العارف شيئا مما حوته، كما كان في البداية، وإن وقع منه في حال التيه ما يوهم الخروج عنها، ولهذا يقولون: «حقيقة النهاية هي الرجوع إلى البداية».

ثم إن الدخول إلى هذه القرية والمكث فيها والأكل منها رغدا لا يحصل للعارفين إلا إذا دخلوها سجدا لجميع أوامرها ونواهيها، ومن بدل قولا غير الذي قيل له، يُخشى أن ينزل الله عليه رجزا من عنده، وأقل ذلك أن يطرده عن بابه، عصمنا الله من سوء العواقب.

لسان الروح

سألته عن هذه القرية التي أُذِنَ لبني إسرائيل في الدخول إليها، فقال: أظنها كانت أوسع عليهم من الجنة التي دخلها آدم لو دخلوها ساجدين. فقلت: وكيف ذلك؟ فقال: إنها لم تقيّد عليهم بشجرة دون أخرى كما قيدت على آدم، ألا ترى أنه قال: (**فكلوا منها حيث شئتم رغداً**) غير أن آدم زَلَّ في جنته بعد المكث فيها، وهؤلاء زَلُّوا حال الدخول.

قوله تعالى

وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ، كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِنْ رِّزْقِ اللهِ، وَلَا تَعْثَوْاْ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

التفسير

ثم أخذ تعالى في تذكيرهم بنعمة أخرى، فقال: (**وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ**) أي سأل الغيث من الله كما هي السنَّةُ (**لِقَوْمِهِ**) لما طلبوا ذلك منه عندما فقدوا الماء في التيه، وظنوا بالله الظنون (**فَقُلْنَا**) لموسى لما أردنا إغاثته (**اضْرِبْ بِعَصَاكَ**) وهي العصا التي أخذها من سيدنا شعيب عليهما السلام (**الْحَجَرَ**) قيل: هو حجر معين، وقيل: إن الألف واللام فيه للجنس، وهو الأقرب، وليس في الآية تخصيص (**فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ**) أي من ذلك الحجر المتقدم (**اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا**) على عدد الأسباط، حتى لا يقع بينهم تزاحم على الماء، فربما ينشأ عنه ما هو كالقتال وما في معناه (**قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ**) إما بإلهام من الله، أو بأمر من موسى، وكان عددهم على ما قيل يقرب من الستّمائة ألف.

ثم إن نبينا محمدا ﷺ كان يستسقي لقومه على المنبر، فلا ينزل من فوقه حتى تمطر السماء عليهم مدرارا (**كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِّزْقِ اللهِ**) أي قلنا لهم كلوا من المن والسلوى، واشربوا من الماء، واعلموا أنّ ذلك من رزق الله. ولما كان الوسع في العيش والرفاهية قد يفضيان إلى العتو والفساد، حذرهم تعالى من ذلك فقال: (**وَلَا تَعْثَوْا فِي الارْضِ مُفْسِدِينَ**) عصمنا الله من الفساد، ووقانا سوء المعاد، آمين.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**وإذ استسقىٰ موسىٰ... إلى قوله: مفسدين**) أربعة أحكام:

الأ و ل : علمنا بأن الإستسقاء هو من سنن الأنبياء عليهم السلام، من قوله: **(وإذ استسقى موسىٰ)**.

الثـانـي : علمنا بأن الأنبياء على ثقة من الله من جهة وصول ما به قوام البدن، إنما يسألون من الله ما هو من ذلك القبيل لقومهم، لأنهم أضعف يقينا من أنبيائهم، من قوله: **(وإذ استسقى موسىٰ لقومه)**، أيضا حيث أسند الإستسقاء لهم.

الثـالـث : علمنا بأن القوم كانوا أحوج إلى الماء من جهة الشراب لا لنحو السقي، وإلّا لأرسلت عليهم السماء بدل انفجار الحجر.

الـرابـع : علمنا بأن المشارب تختلف في كل شيء حسا ومعنى، من قوله: **(قد علم كل أناس مشربهم)**.

الإشـــــارة

ترى الإستسقاء عبارة عن طلب الغيث المعنوي المعبر عنه بمطر القلوب، فهو أولى في الإلتجاء إلى الله من أجله، لأن القلوب أحوج إلى الأسرار من الأجسام إلى نزول الأمطار، وهذا عند أهل القلوب. وأما أهل الأجسام لا يعرفونه حتى يسألوه، «ومن جهل شيئا عاداه» إنما يسألون ما به قوام البدن لأنهم أبدان بلا قلوب. ولعلك تقول: قد استسقىٰ نبي الله موسىٰ وغيره من الرسل – عليهم صلوات الله وسلامه –. فأقول: إنما الإستسقاء منهم لقومهم، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى: **(وإذ استسقى موسىٰ لقومه)**. وأما لو استسقى لنفسه فيما هو محتاج إليه من

جهة قوام البدن لقال كما قال خليل الرحمٰن : « **علمه بحالي يكفيني عن سؤالي** ».

وأما ما يختص بالقلوب من جهة استمطار الفضل فهم أحوج إليه، ومن ذلك ما اعتادته القوم - رضوان الله عليهم - من الإنقطاع إلى الله، وانفرادهم عن الخلق، وخرق العوائد في أنفسهم وأموالهم، وغير ذلك مما لا تألفه النفوس، متعرضين بذلك لنفحات الله، قاطعين النظر عما يهمهم من جهة قوام البدن، جريا على خطتهم من الثقة بالمضمون، والعمل بالمطلوب، ويحذرون كل الحذر من العكس. قال في الحكم العطائية: « اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك، دليل على انطماس البصيرة منك ».

لسان الروح

سألته عن العصا التي كانت لموسى فلم تعمل الأعمال ؟ قال : لأنها كانت في يد آدم، وآدم منفوخ فيه من روح الله.

قوله تعالىٰ

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ،

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ

التفسير

قوله تعالىٰ: (**وَإِذْ قُلْتُمْ**)، أي تذكروا يا بني إسرائيل جنايتكم وسوء اختياركم لما قلتم: (**يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ**) ما عشنا، وهو المن والسلوى، بل نريد تلوين الأطعمة تارة هذا وتارة هذا، وليس لنا ما به التوصل لذلك (**فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا**) أي لأجلنا (**مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا**) أي خضرتها، والمراد ما يُؤكل كالكرفس والنعنع ونحوهما (**وَقِثَّائِهَا**) وهو نوع من الخيار، (**وَفُومِهَا**) لغة في الثوم (**وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا**) هما نوعان معروفان، وغير ذلك مما لا يحصر كثرة، وكأنهم يريدون أن تكون لهم أرض التيه روضة يانعة، وإن كان ذلك ليس على الله بعزيز، غير أنهم يخرجون به عما طلب منهم من التجريد والإنقطاع إلى الله بما يشغلهم من لوازم الفلاحة، ولهذا (**قَالَ**) تعالى لهم بصيغة الإنكار عليهم (**أَتَسْتَبْدِلُونَ الذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالذِي هُوَ خَيْرٌ**) أي تختارون ما هو الخسيس من جهة تعاطي الأسباب، وتتركون الشريف الأعلى المساق لكم من الله بلا واسطة. ولما لم ينجح فيهم الوعظ، ولم ترتفع همتهم عن بطونهم قال تعالى: (**اهْبِطُواْ مِصْرًا**) فكأنه تعالى يقول لهم: إنكم لستم أهلا لرفع الهمة وأشرف المنازل، وحيث كنتم كذلك ورضيتم بما لا قيمة له

بالنظر لما كنتم عليه، انحدروا من التيه الذي هو محل الإنقطاع إلى الله، وادخلوا أحد الأمصار (**فَإِنَّ لَكُمْ**) فيه جميع (**مَا سَأَلْتُمْ**) مبذول لكل أحد، وليس هو من قبيل ما تتشوف إليه الهمم العالية (**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ**) مستعار من ضرب الطين على الحائط بان التصقتا بهم وصارتا من لوازمهم. وإلى الآن تجد من بقائهما فيهم، وحتى لو انفكتا عن البعض منهم ظاهرا فهو يعلمهما من نفسه باطنا، وهذا جزاء من يجعل همته في بطنه، فخسروا بذلك خسرانا أبديا (**وَبَاؤُوا**) أي رجعوا وانصرفوا من التيه إلى مصر (**بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ**) عليهم عظيم (**ذَٰلِكَ**) الذلة والمسكنة والغضب حقّ بهم (**بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِئَايَاتِ اللهِ**) أي يجحدونها بعد ثبوتها لديهم (**وَيَقْتُلُونَ النَّبِيئِنَ**) كيحيٰ، وزكريا، وشعيب، وغيرهم (**بِغَيْرِ الحَقِّ**) قيّد في القتل، مع أن قتل النبي لا يتصور أن يكون بحق، وفائدته زيادة في إيضاح عتوهم وجراءتهم على الله، فكأنه تعالى يقول: يقتلون الأنبياء بغير حجة يعتمدونها ولا تأويل، وإن كان بعيدا، إنما يفعلون ذلك ميلا لجانب الدنيا، وغُلوًّا في العصيان، كما يفصح عنه قوله: (**ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ**) فكأنه تعالى يقول: بلغوا إلى ما بلغوا إليه من قتل الأنبياء، والكفر بآيات الله بسبب ما ارتكبوه من الذنوب، فبتراكم الذنوب تنطمس البصائر والقلوب.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالىٰ: (**وإذ قلتم يا موسىٰ... إلى قوله: يعتدون**) ثمانية أحكام:

الأول: علمنا بأن المتجرد حقه أن لا يتشوف لما زاد على الطعام الواحد، لذمه تعالى لبني إسرائيل على مثل ذلك.

الثاني: علمنا بأن شدة الحرص لأجل تنويع الأطعمة مظنة السقوط من عين الله حسبما يستفاد من القصة.

الثالث: علمنا بأن الطعام الذي كان عليه الإسرائيليون في حالة التيه، هو أرفع مما طلبوه من تنويع الخضر، من قوله: (**أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير**).

الرابع: علمنا بأن المدينة التي أمروا بالهبوط إليها، هي محل يوجد فيه جميع ما يحتاج إليه من جهة رفاهية العيش من قوله: (**اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم**).

الخامس: علمنا بأن أصحاب التيه كان أكثرهم في الحضرية أمكن، وإلا لما تشوفوا إلى القثاء والثوم والعدس، وما هو من ذلك القبيل.

السادس: علمنا بأن المتجرد إلى الله أبعد من أن تضرب عليه الذلة والمسكنة، من قوله: (**وضربت عليهم الذلة**) بعد دخولهم لمصر، واشتغالهم بلوازم المعاش.

السابع: علمنا بأن الذل والمسكنة وقف على اليهود من بعد

موسى، إلا من تاب وآمن وعمل صالحا، من قوله: **(وضربت عليهم)**.

الثامن: علمنا بأن الإسترسال في المعاصي قد يكون سببا في الكفر ونحوه، من قوله: **(ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)** أي كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء كان بسبب استرسالهم في المعاصي.

الإشـــــارة

تفيد ما من ذلة ترتبت، ومحنة تحتمت إلا وأصلها الشر وتحكم الشهوة الباطنية. وتفيد أيضا أنّ العز كلّ العز في رفع الهمة وتهذيب الطبع، وترويض النفس على الطعام الواحد، بعدما جاهدهم موسى - عليه السلام - كل المجاهدة في رياضتهم عليه بما تحكم فيهم من الطبع. ولهذا كان نبينا محمد ﷺ ينهى عن الجمع بين إدامين على مائدة، أو في آنية، احتياطا من تحكم الطبع، كما تحكم في بني اسرائيل، فانحدروا بسببه موافقة لسلطانه إلى مصر، محل تعاطي الأسباب الجالبة لتلوين الأطعمة، واستصغروا جانب الذل والمسكنة في مقابلتها. قال ﷺ: «**من جعل همته في بطنه قيمته عند الله ما يخرج منها**». وهي في الخسة بمكان، ومن أجل هذا تعين عند القوم تهذيب الأخلاق وترويض الطباع، لأنهم وجدوا العز كل العز في رفع الهمة، والصبر على الطعام الواحد، والذل كل الذل في التشوف لما زاد على ذلك، لأن مناله تحت يد الخلق غالبا. قال في «الحكم العطائية»: «إرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد، انحطاط عن الهمة العالية».

لسان الروح

لا يعتبر من الطعام الواحد إلا ما صرف إلى الحقائق، الذي هو غذاء الروح المقدس، فمن لم يصبر عليه بعد تحصيله في حال خروجه عن التقييد وما هو من لوازم العبيد، حتما يرجع بغضب إلى دركة التكليف بما فيها من الذل والمسكنة، وقال أيضا: إن بني إسرائيل لم يصبروا على الطعام الواحد، لأنهم كانوا أرضيين، والطعام الواحد سماوي، بخلاف أصحاب عيسى فإنهم سماويون، ولهذا قال نبيهم - عليه السلام -: **(اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء)**.

قوله تعالى

إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَالذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِـينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ

التفسير

إن كل من تأمل القرآن، وتمعن في نظامه وحسن أسلوبه، يعلم يقينا أن الله تعالى أرحم بعبده من نفسه، ومن ذلك أنه تعالى لما قرع سمع الإسرائيليين أنهم باؤوا بغضب من الله، وأن ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، وذكرهم بكل بغي وفساد على ما يقتضيه العدل، ظهرت منه تعالى صفة الرحمة التي هي أسبق من الغضب، فأخذت اليهود من سوء الحضيض ورفعتهم إلى أن

جمعتهم مع الذين آمنوا في الخطاب، ثم عمت غيرهم من الفرق، ولا أبلغ من هذا في الإستعطاف. قال تعالى: (**إِنَّ الذِينَ ءَامَنُوا**) بما جاء به القرآن (**وَالذِينَ هَادُوا**) أي دخلوا في اليهودية، مأخوذة من قولهم: (**إنا هدنا إليك**)، أي تبنا ورجعنا إليك، سموا بذلك عند توبتهم من عبادة العجل (**وَالنَّصَارَىٰ**) وهم أتباع المسيح – عليه السلام – فسموا بإسم من قال من الحواريين: (**نحن أنصار الله**)، لما قال المسيح: (**من أنصاري إلى الله**) (**وَالصَّابِينَ**) وهم أهل ديانة ملفقة من النصرانية والمجوسية، وقيل إنهم على ديانة نوح – عليه السلام –، ومجموع هذه الفرق وغيرها أن (**مَنْ ءَامَنَ**) منهم (**بِاللهِ**) وبما يجب في حقه من صفات الكمال (**وَالْيَوْمِ الاخِرِ**) وبما يدخل تحته من المغيبات كالجنة والنار والصراط والميزان، وغير ذلك مما قررته الشرائع (**وَعَمِلَ**) في سره وعلانيته عملا (**صَالِحًا**) على وفق ما جاءت به شريعة الإسلام حتى مات على ذلك (**فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ**) ثابت (**عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**) يوم القيامة من جميع الجنايات التي ارتكبوها قبل الإسلام (**وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**) يوم يحزن من سواهم على ما فاته من موافقة الرسول.

وإن قلت: فلم أجمل الذين آمنوا مع من سواهم مع اعترافه لهم بالإيمان؟ فأقول: أجملهم لفوائد، منها أنه قد تقدم أن الخطاب جاء في معرض الإستعطاف للإسرائيليين.

ثانيا: ليرتب على الإيمان العمل الصالح، فكأنه يقول إن الإيمان بانفراده غير كاف في نفي الحزن والخوف إلّا بانضمام العمل الصالح إليه.

ثـالثـا : إنّ الذين آمنوا المذكورين أولا هم المحكوم عليهم آخرا في الآية، بقوله: (**ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**) وعلى هذا فلا إخراج.

رابعـا : إن في الآية شيئا من نفي الإختصاص، فكأنه يقول: لا فرق بين من آمن أولا وبين من آمن آخرا بالإضافة للإسلام.

خـامسا : إنّ في تخصيص هذه الفرق بالذكر دون المشركين والمجوس والزنادقة نوعا من الإحترام.

سـادسا : إنّ في هيئة العطف المرتب ما يشعر بفضل المعطوف عليه على المعطوف.

سـابعـا : إنّ ذكر الذين آمنوا في جملة من سواهم فيه من كسر شوكة العجب المخشيّ لحوقه بالذين آمنوا عندما يبلغهم ما حل بالإسرائيليين - والله أعلم -.

الإستـنبـــاط

يستخرج من قوله تعالىٰ: (**إن الذين ءامنوا... إلى قوله: ولا هم يحزنون**) ثلاثة أحكام:

الأ و ل : علمنا بأن الفرق من حيث هي بالإضافة للإسلام على السواء، وذلك يؤخذ من إجمالهم في الذكر.

الـثـانـي : علمنا بأن الإيمان بما جاء به الإسلام إذا كان مجردا عن الأعمال الصالحة ربما يحمل صاحبه بأهل الكتاب، حسبما يستفاد من الجملة إلا إذا أنيط بالعمل.

الثالث : علمنا بأن الصابين المذكورين في الآية كانوا على شرعة سماوية، وذلك يستفاد من ذكره لهم تعالى مع أهل الكتاب دون المشركين.

الإشـــــارة

تتضمن تسوية هذه الفرق ودخول المؤمنين في جملتهم أن لا يرى الإنسان دونه مسلما ولا كافرا، ولا طائعا ولا عاصيا ما دامت عاقبة أمره مجهولة، لأن العبرة بالخواتم، وإلى الله عاقبة الأمور، والناس في جانب التقدير سواء.

لســان الــروح

على ما فهمت من لغزه، أن جميع هذه الفرق لها مكانة في الدين، وأن التفاضل فيما بينها حسبما رتبه الكتاب المبين، وأن الأسفل منها أعلى درجة من المشركين.

قـولـه تـعـالـىٰ

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ، خُذُواْ مَآ ءاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ، فَلَوْلَا فَضلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِّنَ الْخَاسِرِينَ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الذِينَ اعْتَدَوْاْ مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ، فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ

التفسير

إنه تعالى بعد ما كاد أن يقطع حبل المودة تماما بينه وبين بني إسرائيل لقوله: (**ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله**) فاسترضاهم ثانيا بأبلغ عبارة، حيث أجملهم بالذكر عقب الذين آمنوا ليواجههم الآن بالعتاب، سعيا منه تعالى في تحسين الروابط، لأن العتاب أبلغ داع في تحريك الوداد، وفي هذه الجملة من حسن الأسلوب ما هوَ أولى بالإعتبار. قال تعالى مخاطبا لهم: (**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ**) أي تذكروا حالة أخذ الميثاق منكم على العمل بما في التوراة أن جاءكم به موسى، ثم نقضتم العهد، وامتنعتم عن العمل بما فيه حتى هدّدناكم بأبلغ تهديد (**وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ**) الجبل المسمى (**الطُّورَ**) حتى صرتم من تحته ترونه من فوقكم، وأنتم مشفقون أن يقع عليكم، فالتجأتم حينئذ إلى قبول ما جاء به موسى، فقلنا لكم: (**خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ**) وهو التوراة (**بِقُوَّةٍ**) أي بجد واجتهاد لا على وجه التراخي (**وَاذْكُرُوا**) لغيركم (**مَا فِيهِ**) من الأحكام والحلال والحرام، والآيات الدالة على نبوءة موسى ومن بعده من الأنبياء كيحيٰ، وزكريا، وعيسى، ومحمد - صلى الله وسلم عليهم أجمعين - (**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**) الله في الحق بأن لا تكتموه، مهما عرفتموه (**ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ**) أي رجعتم على أدباركم، ونكستم على أعقابكم (**مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ**) الميثاق الغليظ المأخوذ عنكم من الله، فزغتم وحرفتم وفعلتم ما فعلتم (**فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ**) بالنسبة لما اقترفتموه من نقض العهد وغيره مما لا يحصى كثرة (**لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ**) وكأنكم إلى حال

الخطاب لم يتحقق خسرانهم، وهذا من حسن العتاب في غاية، ومصداقه الوداد التام بمجرد انقيادهم لما جاء به محمد ﷺ وفيه إنباء من الله عن بقاء تأهلهم لفضل الله ورحمته، ولهذا حذرهم تعالى بقوله: (**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ**) لما حرمنا عليهم الصيد في ذلك اليوم، فتجاوزوا الحدود واخترعوا حيلا لا تغني عنهم من الله شيئا، وستأتي قصتهم، (**فَقُلْنَا لَهُمْ**) لما تحقق الإعتداء منهم، واستمروا عليه (**كُونُوا**) أي كوّنّاهم (**قِرَدَةً**) أي على صفة القردة (**خَاسِئِينَ**) أي ممسوخين ممقوتين (**فَجَعَلْنَاهَا**) أي آية المسخ (**نَكَالًا**) أي عبرة وردعا (**لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا**) أي لمن حضرها وشهدها (**وَمَا خَلْفَهَا**) ممن جاء من بعدها وسمع بها (**وَمَوْعِظَةً**) أي تذكرة (**لِّلْمُتَّقِينَ**) فيزدادون تقاة في كل عصر.

ثم إن استطراد هذه الجملة عقب العتاب تتضمن فوائد منها إفادتنا تغير أسلوب العبارة حال العتاب، إن كان المراد منه جبر الخواطر إلى كيفية أرفق بالمخاطب حسبما يتضمنه قوله: (**ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت، فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين**) فحاشاهم تعالى عن الذين اعتدوا في السبت، ولو لا ما يقتضيه المقام لقال: وإذ اعتديتم في السبت فقلنا لكم كونوا قردة خاسئين، كما جاءت العبارة في معرض التوبيخ (**وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون**). وثانيا: إن في استطراد هذه القصة عقب قوله: (**وإذ أخذنا ميثاقكم**) إلى قوله: (**واذكروا ما فيه**) تهديد بالمسخ بطريق خفي إن نقضوا ميثاقهم بعدم إظهار ما يدل على نبوءة محمد ﷺ في التوراة.

الإستنبـــــاط

يستخرج من قوله تعالى: (**وإذ اخذنا... إلى قوله: المتقين**) خمسة أحكام:

الأول: علمنا بأن جميع من آمن بالكتاب إلّا وأخذ عنه الميثاق عن العمل بما فيه، ومن أراد أن ينقض ميثاقه مع الله فليترك العمل به، فذلك يستفاد من القصة.

الثاني: علمنا بأن أحكام الشرع ينبغي لِلآخِذِ بها أن يكون بقوة وعزيمة وحرص، من قوله: (**خذوا ما ءاتيناكم بقوة**).

الثالث: علمنا بوجوب ذكر ما اشتمل عليه الكتاب من الأحكام المتوقف فهمها على الخصوص من قوله: (**واذكروا ما فيه**).

الرابع: علمنا بأن بني إسرائيل وإن مع ما ضربت عليهم من الذلة والمسكنة، فإنه لن ينسد عنهم باب التوبة، من قوله: (**ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين**)، لأن الخسران لا يتحقق إلا بانسداد باب التوبة.

الخامس: علمنا بأن الناقض لعهد الله، المتجاسر على تغيير أحكام الله هو المتعرض للمسخ، لأنه لا موجب لحلوله ببني إسرائيل إلا ما هو من ذلك القبيل - والله أعلم - .

الإشـــــــارة

إن في قوله تعالىٰ: (**وإذ أخذنا ميثاقكم**) تشمل كل عالم بحكم الله متحاش عن العمل به. قال ﷺ: « **ما آتى الله عالما علما إلا أخذ الميثاق عنه أن لا يكتمه** » فمن أوفى بعهده من الله، فهو العالم، ومن خاب فهو الظالم، فكأنه تعالى يقول: اذكروا إذ أخذنا ميثاقكم يا معاشر العلماء أن لا تكتموا علما، ولا تجاوزوا أحدا، ولا تنقضوا عهدا لعلكم تتقون (**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**) وأعلمكم لا أقرأكم، فقبلتم وأقررتم، ثم توليتم عن أدباركم، ونكستم عن أعقابكم، فآثرتم الحيـاة الدنيـا على الآخرة، واخترعتم حيلا ورخصا واهية، تتوصلون بها لأغراضكم، ظنا منكم أن الله غافل عما تعملون. ولقد علمتم ما وقع للذين اعتدوا منكم، أي من جنسكم الإنسان في السبت، لما حرمنا عليهم الإصطياد في ذلك اليوم، فجعلوا عند الشطوط حياضا تدخلها الحيتان يوم السبت، ويأخذونها يوم الأحد، فمسخناهم قردة، باستعمال حيلة واحدة في دين الله، فكيف بمن يستعمل حيلا متعددة، فهذا يحلل الخمر بدعوى أن المحرم هو ما يؤثر في العقل، والآخر يحلل الربا بدعوى أن المحرم مضاعفة أضعافا، وهذا يسعى في كشف وجه المرأة ومخالطتها الرجال، وإن كانت مخشية الفتنة، بدعوى أن الوجه ليس بعورة، فما أجرأهم على دين الله، فقد انتقض الميثاق وحل مسخ القلوب، منهم القردة والخنازير وَعَبَدَةُ الطاغوت، فما أضر هؤلاء بالدين. قال ﷺ: « **إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي منافق عالم اللسان جاهل القلب** ».

لســان الــروح

في قوله تعالى: (**واذكروا ما فيه**) على ما فهمت من مستنبطاته أنه يقول: أهل كتابنا إلى الآن يذكرونه ولا يذكرون ما فيه، والحق يقول: (**واذكروا ما فيه لعلكم تتقون**).

ثم قال في أخذ الميثاق هذا أنه يصرف عندنا غالبا إلى ميثاق الأرواح المأخوذ عنها يوم ألست بركم. فإنه يقول: وإذ أخذنا ميثاقكم يامعاشر الأرواح، ورفعنا فوقكم طور الاشباح، خذوا ما آتيناكم من الحس المضروب على كل روح ونفس، واذكروا ما فيه، لا تحتجبوا بظاهره عن باطنه، (**قل انظروا ماذا في السموات والأرض**)، ثم توليتم عن النظر فيه واحتجبتم بظاهره عن باطنه، ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم، لكنتم من الخاسرين.

قـولـه تـعـالـىٰ

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً، قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا، قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ، عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ، فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ، قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا، تَسُرُّ النَّاظِرِينَ، قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا

وَإِنَّا إِن شَآءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ، مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا، قَالُواْ الآنَ جِئتَ بِالْحَقِّ، فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ، وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا، وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ، فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا، كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوَ أَشَدُّ قَسْوَةً، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

التفسير

ثم أخذ تعالى في سرد قصة جرت لموسىٰ مع قومه لما اشتبه عليهم أمر القتيل الذي قتله بنو أخيه ليرثوه، لكونه موسرا، ثم وضعوه خارج المدينة، وجاؤوا يطالبون بدمه، فاختلفت الآراء، وتعارضت الحجج في شأن من قتله، فطلبوا من موسىٰ أن يحيي الله المقتول فيخبرهم عمن قتله، فسأله تعالى أن يفعل ذلك، فقلق الأحياء على ذبح البقرة، وضرب الميت ببعضها لحكمة يعلمها الله، وذلك قوله: (**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ**) الذين طلبوا منه إحياء الميت (**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً**) إن أردتم ذلك (**قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا**) أي أتهزأ بنا يا موسىٰ، فكيف يكون إحياء الميت موقوفا على ذبح البقرة (**قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ**) أي

أتحصن بالله (**أَنْ أَكُونَ منَ الجَاهِلِينَ**) المستهزئين بالمؤمنين (**قَالُوا**) إن كنت كذلك (**ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ**) أيْ أيَّ بقرة يريد، وما سنها (**قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ**) أي لا مسنة جدا (**وَلاَ بِكْرٌ**) أي صغيرة لم يطرقها فحل (**عَوَانٌ**) أي متوسطة (**بَيْنَ ذَٰلِكَ**) فهذا هو بيانها (**فَافْعَلُوا مَا تُومَرُونَ**) به، واتركوا شدة البحث (**قَالُوا ادْعُوا لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لنَا مَا لَوْنُهَا**) أصفراء هي أم سوداء أم غير ذلك؟ (**قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا**) أي شديدة الصفرة زيادة في الإيضاح (**تَسُرُّ النَّاظِرِينَ**) من جهة صفاء اللون وكمال الإعتدال، ولم يكفهم هذا في البيان حتى (**قَالُوا ادْعُوا لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَّنَا مَا هِيَ**) أعاملة هي أم سائمة؟ (**إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا**) أمره (**وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ**) لك بذبحها بعد هذا البيان. وكأنهم يريدون أن تمتاز البقرة المقصودة بالعين من جنس البقر، ولو فعلوا عند قوله: (**إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة**) لأجزأتهم أي بقرة كانت، لكنهم شددوا فشدد الله عليهم، حتى قيل إن البقرة اشتروها من صاحبها بملء جلدها ذهبا، وكانت ليتيم بار بوالدته، فأغناه الله من أجلها. (**قَالَ**) لهم موسىٰ جوابا لسؤالهم الآخر: (**إِنَّهُ**) تعالى (**يَقُولُ**) لكم (**إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ**) أي مذللة بكثرة الأعمال بأن (**تُثِيرُ الأَرْضَ**) بالحراثة (**وَلاَ**) هي (**تَسْقِي الحَرْثَ**) بأن جعلت لسقي الحرث (**مُسَلَّمَةٌ**) من العيوب والأعمال (**لاَ شِيَةَ**) أي لا لون يخالط لون الصفورة (**فِيهَا**).

ولما انتهى إلى حد هذا البيان (**قَالُوا**) لموسىٰ (**الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ**) البين الذي لا خفاء فيه (**فَذَبَحُوهَا**) بعد ما اتضحت

عندهم (**وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ**) أي كادوا أن لا يذبحوها لغلاء ثمنها وشدة تعسفهم. ثم أخذ تعالى في ذكر الداعي لذبح البقرة فقال: (**وَإِذْ قَتَلْتُمْ**) يا معاشر اليهود (**نَفْسًا**) بغير حق (**فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا**) أي اختلفتم، واختصمتم فيمن قتلها، وأخفيتم في أنفسكم أمر القاتل طمعا في الدنيا (**وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**) من أمر القاتل والمقتول، ولما ذبحت البقرة (**فَقُلْنَا**) لبني إسرائيل على لسان موسىٰ: إن أردتم إحياء المقتول (**اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا**) واختلفت في البعض هل هو اللسان أم غيره من الأعضاء، ولا فائدة في تعيينه، أما الفائدة فَثُبوتُ الإحياء من كونها موقوفة على ضرب الميت ببعض البقرة (**وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ**) الدالة على كمال قدرته في كل شيء شيء. (**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**) وتطمئن قلوبكم للإيمان (**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ**) من بعد ما عاينتموه من آية الله الدالة على وحدانيته وتمام اقتداره على الإحياء والإماتة (**فَهِيَ**) الآن أي القلوب (**كَالْحِجَارَةِ**) في القساوة والصلابة (**أَوْ**) معناها، بل (**أَشَدُّ قَسْوَةً**) من الحجارة، وهو كذلك بدليل قوله: (**وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا**) أي ما هو (**يَتَفَجَّرُ مِنْهُ**) أي من الحجر (**الْأَنْهَارُ**) واللام الداخلة على الموصول في قوله تعالى: (**لما**) للابتداء، والأنهار جمع نهر، وهو عبارة عن السيل العظيم (**وَإِنَّ مِنْهَا**) من الحجارة أيضا (**لَمَا يَشَّقَّقُ**) أي تقع فيه شقق، (**فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ**) من شقوقه عيونا (**وَإِنَّ مِنْهَا**) من الحجارة (**لَمَا يَهْبِطُ**) أي ينحدر إلى الأسفل (**مِنْ خَشْيَةِ اللهِ**) وهذا استبعاد لما هم عليه من قساوة قلوبهم، فكأنه تعالى يقول: ما من

شيء في الوجود إلا وهو ألين طبعا، وأسهل انقياداً لله من قلوبهم **(وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)** من السيئات على اختلافها، حسبما تتضمنها قساوة القلوب التي هي كالحجارة أو أشد قسوة.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالىٰ: (**وإذ قال موسىٰ... إلى قوله: تعملون**) ثمانية أحكام:

الأول: علمنا بأن قوم موسى لا يحملون جميع ما يأمرهم به على طريقة الجد، فلهذا تركوا بعض المأمورات، وذلك يؤخذ من قوله: (**قالوا أتتخذنا هزؤا**).

الثاني: علمنا بأن الإستهزاء بالمؤمنين ليس هو من نعت الكرماء، من قوله: (**أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين**).

الثالث: علمنا بأن سرعة الإمتثال لأمر الداعي إلى الله أولى من شدة الفحص عن تحقيق المسألة، وذلك يؤخذ من فحص الإسرائيليين، وعدم سرعتهم لذبح البقرة.

الرابع: علمنا بوجوب صبر المذكر لأسئلة السائلين، يؤخذ من صبر موسىٰ على أسئلة قومه.

الخامس: علمنا بأن المعلم يحسن منه أن يبالغ في تصوير المسألة إن لم تفهم إلى ثلاثة تصويرات، ثم يعرض عن السائل إن شاء، وذلك يؤخذ من إقتصار قوم موسىٰ عن السؤال الثالث، وما ذلك إلا لعلمهم بمجاوزة حد الإطناب، وكانوا يتوقعون إعراض موسىٰ عنهم لو زادوا.

السادس : علمنا بأن استرجاع الروح للبدن من الممكنات، ومن المحتمل أن يتوقف على بعض خواص، قد يطلع الله عليها من يشاء من عباده، يؤخذ من إحياء قتيل بني إسرائيل، وتوقف ذلك على ذبح البقرة والضرب ببعضها.

السابع : علمنا بأن بعض القلوب قد تماثل الحجارة في القساوة وتزيد، من قوله : (**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة**).

الثامن : علمنا بأن خشية الله ليست مقصورة على العقلاء من خلقه، بل كل له نصيب بقدر وسعه، كالحجر ونحوه لا يعدم حظه من خشية الله، وذلك يؤخذ من قوله : (**وإن منها لما يهبط من خشية الله**).

الإشـــــــارة

في أمر الله تعالى الإسرائيليين بذبح البقرة تومي إلى الأمر بذبح النفس وإشفاق أهلها، وتعسفهم وامتناعهم عن ذبحها أشد من امتناع الإسرائيليين لغلاء ثمنها، فهي عندهم أرفع قيمة من البقرة عند الإسرائيليين، وإن مع علمهم أن الله يأمر بذلك، قال تعالى (**فاقتلوا أنفسكم**)، وقال ﷺ : « **موتوا قبل أن تموتوا** ». لأن في ذبحها إحياء القلوب، وفي حياتها موتهم، ولهذا لما ذبحت البقرة قال تعالى : (**فقلنا اضْربوه ببعضها**) إشارة للقلب، (**كذلك يحي الله الموتى، ويريكم ءاياته**) التي من أعظمها كمون الأشياء في أضدادها، فكانت حياة القلب كامنة في موت النفس، والعكس بالعكس، ولهذا قال بعضهم :

فـــاقتلوني ـــا ثقـــاتي ☆ إن فـــى قتلـــي حيـــاتي

وقال غيره:

فـــالموت فيـــه حيـــاتي ☆ وفـــي حيـــاتي قتلـــي

ولما كان القتل المعبر عنه بالفناء عند القوم أبعد من أن يتحقق لكل من يدعيه، فقد يفنى الإنسان عن شيء، وتبقى له أشياء، فيحيا قلبه نوع حياة، وإن لم يتداركه الله بلطفه بأن يفنيه عن الكل في الجملة، فربما تأخذه تلك البقية من نفسه أخذا وبيلا، ويكون الظفر بها ثانيا عزيز المنال، وإلى هؤلاء الإشارة في قوله تعالى: (**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك**) أي من بعد الحياة، فهي الآن، أي حال الخطاب، كالحجارة في الجمود والصلابة، أو أشد قسوة من الحجارة، بدليل (**وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله**). وفي ذكره تعالى الحجارة على أصناف ثلاثة ما يشمل المقامات الثلاثة، فأهل مقام الإحسان تتفجر من قلوبهم الأنهار، وأهل مقام الإيمان تشقق قلوبهم أي تنفسح شيئا، فيخرج منها الماء دون التفجر ، وأهل مقام الإسلام يهبط من قلوبهم الماء بدون انشقاق ولا تفجير، والماء في هذا الباب عبارة عن التوحيد الخالص لله عز وجل، فهو الماء الذي منه الحياة الأبدية، (**وجعلنا من الماء كل شيء حي**).

لسـان الـروح

راجعته في قوله : (وإن منها لما يهبط من خشية الله) فقال : إن الخشية فرع العلم (إنما يخشى الله من عباده العلماء) قلت : وكيف ذلك، قال : لا تستغرب ، إنَّ ما صدر عن العلم لا يعدم حظه منه.

قـولـه تـعـالىٰ

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُواْ ءَامَنَّا ، وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ، أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ، وَإِنْ هُمُ إِلَّا يَظُنُّونَ ، فَوَيْلٌ لِّلَذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ

التفسيـر

قد تقدم في ذكر البقرة وبيان أوصافها ما فيه إطناب، وحكمته تعالى تتضمن فوائد منها : زيادة الإيضاح في صدق محمد ﷺ بمناسبة ما يخبرهم به على التفصيل.

ثـانيـا : فيها تأس له بموسىٰ – عليهما السلام – من جهة الصبر على أسئلتهم له عن أوصاف البقرة حتى لا يسأم من شدة بحث الإسرائيليين.

ثـالثـا : فيها تسلية له عن عدم انقيادهم، فكأنه تعالى يقول : من كانت هذه جبليتهم من جهة عدم الإنقياد، حسبما اتضح في ذبح البقرة، فلا عجب حينئذ في عدم انقيادهم لما هو أهم من ذلك، وهذا هو المقصد الأهم من استطراد هذه القصة حسبما يتضمنه المعطوف عليها، وهو قوله تعالى خطابا لمحمد ﷺ وأصحابه : (**أَفَتَطْمَعُونَ**) يا معاشر المؤمنين (**أَنْ يُّؤْمِنُوا لَكُمْ**) اليهود (**وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ**) أي طائفة (**مِّنْهُمْ**) أي من أحبارهم (**يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ**) وهو التوراة، ويعرفون أنه كلام الله (**ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ**) أي يغيرونه ويبدلونه (**مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ**) أنه كلام الله، وليس ذلك منهم إلا حسدا أن يظهر ما فيه دلالة على صفة محمد ﷺ حذرا أن ينتشر أمره، (**والله متم نوره ولو كره الكافرون**) (**وَهُمْ يَعْلَمُونَ**) أن ما فعلوه جراءة على الله، بدليل اعترافهم لبعضهم بعضا (**وَإِذَا لَقُوا الذِينَ ءَامَنُوا**) بمحمد الإيمان الخالص (**قَالُوا**) لهم (**ءَامَنَّا**) كما آمنتم، وإنه النبي المبشر به التوراة (**وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ**) في مجتمعهم الخصوصي، الذي لا يطلع عليهم فيه غيرهم (**قَالُوا**) لهم شياطينهم أهل الجحود المحض، يلومونهم على اعترافهم لمحمد ﷺ بالنبوءة، ويقولون لهم : (**أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ**) في التوراة، وبما عرفتموه من أوصاف المبعوث آخر الزمان (**لِيُحَآجُّوكُمْ بِهِ**) أي ليحتجوا عليكم بحديثكم يوم القيامة (**عِنْدَ رَبِّكُمْ**) بأنكم عرفتم محمدا

بأوصافه، وجحدتم نبوءته (**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**) أن ما فعلتموه هو حجة عليكم. ولما أثبتوا من العقل لأنفسهم ما نفوه عمن تحدث بأوصاف النبي، أتى تعالى بما فيه توهين لمعتقدهم فقال: (**أَوَلَا يَعْلَمُونَ**) أي أوليس يعلمون (**أَنَّ اللهَ**) تعالى (**يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ**) في أنفسهم (**وَمَا يُعْلِنُونَ**) من أقوالهم وأفعالهم، ولكنهم لا يعلمون ذلك، ولو كانوا على بصيرة من أوصاف ربهم لما ظنوا أن كتمان ما عرفوه من الحق منجيهم من عذاب الله، ثم قال تعالى: (**وَمِنْهُمْ**) أي من اليهود (**أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ**) أي لا يعرفون (**الْكِتَابَ**) وهو التوراة حتى يجادلوا فيه (**إِلَّا أَمَانِيَّ**) يمنونهم بها أحبارهم فأخذوها منهم على سبيل التقليد، وليسوا على يقين من أمرهم، (**وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**) فيما يعارضونه من الحق.

وبمناسبة ما ذكره تعالى من أن في اليهود (**أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني**) يتلقونها من أحبارهم. ومن جملة جرأتهم على الله أن كانوا يكتبون الكتاب طبق أغراضهم، ثم يقولون للعموم إن ما فيها هو من عند الله، فقال تعالى: (**فَوَيْلٌ**) هي كلمة وعيد وتهديد (**لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ**) للأميين الذين لا يعرفون الكتاب (**هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ**) فانصتوا، هل فيه ما يلزمنا بمتابعة هذا النبي؟ أو فيه مما يطابق أوصافه، أو يطابق ما جاء به؟ ويفعلون ذلك (**لِيَشْتَرُوا**) أي ينالون من أجل ذلك (**بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا**) من أعراض الدنيا والكل في جانب الله قليل (**فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ**) من الإفتراء على الله (**وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ**) من أعراض الدنيا في مقابلة ما يكتمون.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**أفتطمعون... إلى قوله: يكسبون**) سبعة أحكام:

الأول: علمنا بأن اليهود أبعد الطوائف عن الإيمان بما جاء به الإسلام، من قوله: (**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم...**) إلى آخره.

الثاني: علمنا بأن المتلو عليه كتاب الله فهو كالسامع له من الله مهما عقله من الله، من قوله: (**يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه**).

الثالث: علمنا بأن في أهل الكتاب من كان منافقا مع النبي، من قوله: (**وإذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا...**) إلى آخره.

الرابع: علمنا بأن اليهود كانوا لا يرون تعلق علمه تعالى بالجزئيات، من قوله: (**قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم**).

الخامس: علمنا بأن الكتابي لا يشترط فيه أن يكون ممن يحسن الكتابة، من قوله: (**ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب**).

السادس: علمنا بأن الأميين منهم ليسوا على يقين بما يخبرهم به أحبارهم في شأن الإسلام، من قوله: (**وإن هم إلا يظنون**).

السابع: علمنا بتشديد الوعيد على من يتناول كتاب الله طبق الأغراض (**فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله...**) إلى آخره.

الإشـــــــارة

تتسع في أهل الكتاب ليدخل كل من يتناول كتاب الله أو سنة رسوله طبق الأغراض حسدا من عنده، أو ليصل بذلك للأغراض، وهذه الطائفة أبعد من أن تنقاد للحق ولو عاينته، وبهذا الإعتبار يكون الخطاب راجعا لأهل الخصوصية، وعليه فتصير المعنى أتطمعون يا معاشر العلماء بالله أن يؤمن لكم الفساق من بعض القراء بعلومكم الوهبية، وأسراركم الغيبية التي جلت أن تكون مباحة لهؤلاء، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله، ويعرفون سنة رسوله وما فيهما من الدلالة، على أن في الشريعة علوما غيبية، وعلى أن لها في هذه الأمة حملة، ثم يحرفونه بالتآويل الواهية، ويصرفونه بالأقاويل الخالية حسب أغراضهم، وهم يعلمون أنهم مخطئون في ما فعلوه، وإذا لقوا الذين آمنوا بسر الخصوصية قالوا: آمنا مثل إيمانكم، فنحن لا ننكر وجود الباقيات، وإذا خلا بعضهم إلى بعض بأن انفردوا مع شياطينهم المنكرين ما عليه القوم، كأفراد المعتزلة، ومن فيه رائحة القدرية، قالوا لهم: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم وعرفتموه، ليحاجوكم به عند ربكم يوم القيامة، أولا يعلم هؤلاء السفهاء أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، ولو كانوا يعلمون لما قال البعض منهم: إن علم الله لا يتعلق بالجزئيات. ومنهم أي من هذه الطائفة أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني، تلقوها من رؤسائهم، فتعلقوا بها، فتجدهم يجادلون في مثل ذلك، ويستدلون بمن يتناول كتاب الله أو سنة رسوله على نفي ذلك، وأكثرهم الفارغون من الأعمال الشرعية، **(فويل للذين يكتبون الكتاب**

بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله، ليشتروا به ثمنا قليلا، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون).

لسان الروح

سألته في معنى قوله: (**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله**)، فما هو موجب إستبعاد إيمانهم مع ما كانوا عليه من استماع كلام الله؟ فقال: من سقط من أعلى درجة المكالمة، فلا يرضى بحضيض الإيمان، فإنه يستنكف أن يكون مؤمنا بعد أن كان محسنا، فيفوته خير المقامين، الأول: باضطرار، والثاني: باختيار.

قوله تعالىٰ

وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ، بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ فَأُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

التفسير

(**وَقَالُوا**) أي اليهود، أحبارهم لجهالهم، تثبيتا لهم لما بلغهم من زواجر القرآن ووعيده ما أخجلهم: (**لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ**) في

الآخرة (**إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً**) أي لا يلحقنا عذابها إلا أياما قلائل، على زعمهم أربعين يوما، مدة عبادة آبائهم العجل، وبهذه المناسبة فلا تضرنا عدم متابعتنا لمحمد، وإن كان على حق، فقال تعالى لنبيه ﷺ (**قُلْ**) لهم على سبيل الاستفهام التوبيخي (**أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا**) وميثاقا عهد لكم به أن النار لا تمسكم إلا أياما معدودةً (**فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ**) فيما أوجبه على نفسه بمقتضىٰ قوله: (**إن الله لا يخلف الميعاد**) (**أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**) صحته إلا ظنا، والظن (**لا يغني من الحق شيئا**) (**بَلَىٰ**) إن مقتضى الواقع هو (**مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ**) من كل الوجوه، كما أحاطت باليهود، إلى أن حرفوا كلام الله، وبدلوا ما أنزل الله، ونقضوا العهود، وتعدوْا الحدود (**فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ**) وسكانها (**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) أي ماكثون، ردا على قولهم: (**لن تمسنا النار إلا أياما معدودة**). ولما سدت عليهم الأبواب من كل الوجوه، استلفتهم تعالىٰ لباب التوبة، فإذا هو ليس بمسدود فقال: (**وَالَّذِينَ ءَامَنُوا**) وإن من بعد ذلك، وأحرى من قبل (**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) فيما يستقبلهم من بقية العمر (**أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ**) وسكانها (**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**).

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالىٰ: (**وقالوا... إلى قوله: خالدون**) خمسة أحكام:

الأول: علمنا بأن الأولىٰ للمؤمن أن لا يتحكم على الله فيما

يفعله به يوم القيامة، من قوله: (**وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة**).

الثاني: علمنا بأن الواجب على من لم يعاهد الله له بشيء يأمن به خوفه أن يكون دائما على وجل، بحيث لا يقطع على نفسه بالنجاة من قوله: (**قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده**).

الثالث: علمنا بمنع القول على الله بغير علم، من قوله: (**أم تقولون على الله ما لا تعلمون**).

الرابع: علمنا بأن المعاصي إذا تراكمت قد تفضي بصاحبها إلى ما يوجب الخلود في النار، من قوله: (**بلىٰ من كسب سيئة وأحاطت به خطيئاته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**).

الخامس: علمنا بأن الإيمان وصالح الأعمال موجبان للخلود في دار النعيم، إن لقي العبد الله بهما، من قوله: (**والذين آمنوا وعملوا الصالحات...**) إلى آخره.

الإشارة

تشفق أن تدخل الجاهلية من هذه الأمة في الضمير من قوله: (**وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة**) حسبما هو الجاري على ألسنة السفهاء، من جهة ما بلغهم أن المؤمن لا يخلد في النار، وحيث كان كذلك فما هي إلا أيام معدودة، وعليه فلا تضر المعصية مع الإيمان، وهو كذلك غير أنه من المحتمل أن يتناولهم قوله تعالى: (**قل اتخذتم عند الله عهدا**) بحيث عهد لكم

بالخصوص أنتم بأنفسكم، لا تدخلون النار إلا أياما معدودة فلن يخلف الله عهده، (**أم تقولون على الله ما لا تعلمون**)، بلىٰ من كسب سيئة واسترسل فيها، وأحاطت به خطياته، واستغرق فيها، (**فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**). لأنها تفضي بهم إلى الردة - والعياذ بالله - لأن الأصل في الكفر الإسترسال في المعاصي. قال تعالى في قتل بني إسرائيل الأنبياء (**ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**) فجعل المعاصي سببا لما وصلوا إليه.

لسان الروح

في قوله: (**قل اتخذتم عند الله عهدا**) قال لا يعاهد الله في الدنيا لعبده بالنجاة إلا إذا لم تبق له بقية في الأرضين ولا في السموات.

قوله تعالىٰ

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيَ إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ، وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا، وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ، ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ

التفسير

فيما سيذكره تعالى تنبيه للنبي ﷺ، وتوبيخ لليهود بفعل أسلافهم. قال تعالى: (**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**) أي

عهدنا لهم في التوراة، وقلنا لهم في ذلك العهد : (**لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللّٰهَ**) ولا تشركوا به شيئا (**وَبِالْوَالِدَيْنِ**) كونوا محسنين لهم (**إِحْسَانًا**) بأن تعاملوهم بكل البرور (**وَذِي الْقُرْبَىٰ**) كذلك من جهة الإحسان، فروع وأصول (**وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ**) وهكذا سائر الضعفاء، لا تعاملوهم إلا باللين والتواضع (**وَقُولُوا لِلنَّاسِ**) عامة (**حُسْنًا**) وبالأخص من أردتم هدايته، فلا تخاطبوه إلا بالمساعفة، ولا تجادلوه إلا بالملاطفة، وقلنا لهم في ذلك العهد أيضا : (**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ**) التي فرضها الله عليكم بشروطها (**وَآتُوا الزَّكَاةَ**) التي وجبت عليكم في أموالكم (**ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ**) يا معشر اليهود أنتم وأسلافكم عن جميع العهود، ونقضتم كل المواثيق، (**إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ**) وهم الذين آمنوا وأسلموا مع محمد ﷺ لله رب العالمين (**وَأَنْتُمْ**) خطاب لمن لم يسلم من اليهود (**مُعْرِضُونَ**) عن جميع العهود والمواثيق التي عرفتم بأنها أخذت عنكم في التوراة، فمالكم لا تتقون.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالىٰ : (**وإذ أخذنا ميثاق. . . إلى قوله : معرضون**) أربعة أحكام :

الأول : علمنا بأن من دخل في شرع فقد أوثق نفسه بالعمل به، فذلك ميثاقه مع الله، فليحذر من نقضه. من قوله : (**وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل. . .**) إلى آخره.

الثاني : علمنا بأن برور الوالدين هو أهم شيء في الدين،

وذلك يؤخد من عطفه على الإيمان بالله. من قوله: (**لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا**).

الثالث: علمنا بأنه يجب على الإنسان إذا كان له حظ في الإحسان أن يصرفه للوالدين، ثم لقرابته المتحدين معه في الدين، ثم إلى أيتام المؤمنين، ثم إلى ضعفائهم، ثم للناس عموما، بقطع النظر عن جنسيتهم، وإذا لم يتعدّ إحسانه إلى مثل ذلك بالفعل، فقد يتعدى بالقول، وكل ذلك يستفاد من ترتيب الميثاق المأخوذ عن بني إسرائيل، واختتامه بحسن القول لعموم الناس.

الرابع: علمنا بتعذر الوفاء بهذا العهد على عامة المسلمين من جهة المواساة للقرباء، واليتامى والمساكين، والإحسان بالقول لعموم الناس، فلهذا لم يؤخذ منهم في صريح القرآن، إنما طرقهم على سبيل الحكاية، رحمة منه تعالى بهم، فمن تأسى به فهو المحسن، ومن لا فهو مؤمن على كل حال.

الإشـــــــارة

لاترى الميثاق المأخوذ عن بني إسرائيل في التوراة بأعظم من الميثاق المأخوذ من أمة محمد ﷺ في القرآن، فهو يتضمن الأمر لكم معاشر المؤمنين (**أن لا تعبدوا إلا الله، وبالوالدين إحسانا، وذي القربى واليتامى والمساكين، وقولوا للناس حسنا، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة**). فهذه شريعتنا الأحمدية، فمن سار عليها فهو محمدي النسبة، ومن تولى عن شيء مما تضمنه،

يخشى عليه أن يشمله الضمير. من قوله تعالى: (**ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون**) عصمنا الله والمسلمين.

لسـان الـروح

في قوله تعالى: (**وقولوا للناس حسنا**) يقول: المقول الحسن ما كان حسن المآل، لا كونه حسنا في الحال، وإلّا لاتسعت المداهنة وتعطلت الشريعة.

قـولـه تـعـالىٰ

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَـآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ، ثُمَّ أَنْتُمْ هَـٰٓؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنْكُمْ مِّنْ دِيَارِهِمْ تَظَّاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَإِنْ يَّأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، فَمَا جَزَآءُ مَنْ يَّفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ الْعَذَابِ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ، أُوْلَـٰٓئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ

التفسير

وبعدما قدم تعالى من صفة اليهود ما أغلبه متعلق بفعل أسلافهم، من نقض العهود والمواثيق، وغير ذلك، باشر الآن المعاصرين لنبي الله ﷺ، بما هو فعلهم، حتى لا تكون لهم مندوحة في نفيه عنهم، فقال تعالى تذكيرا للنبي وتوبيخا لهم: (**وَإِذْ أَخَذْنَا**) أي أذكروا أخذنا عنكم (**مِيثَاقَكُمْ**) في التوراة، حيث قلنا لكم فيه (**لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ**) بقتل بعضكم بعضا، ظلما وعدوانا (**وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِن دِيَارِكُمْ**)، أي لا تتسببون في إخراج بعضكم بعضا من مساكنكم (**ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ**) بهذا الميثاق بأنه أخذ عنكم واعترفتم به (**وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ**) الآن على أنفسكم بذلك (**ثُمَّ أَنْتُمْ**) مع ذلك الاعتراف (**هَٰؤُلَاءِ**) نداء بإسقاط الياء يتناول المشار إليهم (**تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ**) أي شارعين في قتال بعضكم بعضا (**وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِن دِيَارِهِمْ**) وتخربونها، وتفعلون بهم أشد ما يفعل العدو بعدوه، وزيادة على ذلك (**تَظَّٰهَرُونَ**) أي تتعاونون على قتلهم وإخراجهم، وتستعينون بالغير (**عَلَيْهِمْ**) حالة كونهم ملتبسين (**بِالإِثْمِ**) في ذلك الفعل، وهو عبارة عن كل فعل تشمئز منه النفوس، ولا تطمئن إليه القلوب (**وَالْعُدْوَانِ**) وهو عبارة عن التجاوز في الظلم، أو ليس هذا من نقضهم الميثاق الذي أخذ عنهم. ثم إن القصة تتضح بإيرادها، وبيانها أنّ بني قريظة وبني النضير فرقتان من اليهود قرب المدينة، كانت الحرب بينهما سجالا، فانتصرت كل فرقة على أختها بطائفة من العرب، فقريظة حالفوا الأوس، والنضير حالفوا الخزرج، وعادت كل فرقة تتظاهر على أختها بحلفائها،

وتفعل بها ما هو المذكور في الآية، وكانت التوراة تحرم عليهم مثل ذلك. قال ﷺ: «**أخذ الله عليهم أربعة عهود: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة وفداء أسرائهم، فأعرضوا عن كل ما أمروا إلا الفداء**»، وهو قوله تعالىٰ: (**وَإِنْ يَاتُوكُمْ أُسَارَىٰ**) في أيدي عدوهم (**تُفَادُوهُمْ**) أي تفدوهم بالمال، قائلين: إن الفداء أوجبه الله علينا، أوليس هذا من التناقض في مكان، فما بالكم تفعلون مع بعضكم ما تقدم، وهو أي الشأن أنه (**مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ**) من ديارهم، وقتلهم، والمظاهرة عليهم، فتركتم العهود الثلاثة وعملتم بالفداء (**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ**) أنه من الله، وهو الفداء (**وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**) وهو ما حرم عليكم من القتل والإخراج والتظاهر، فكأنه من عند غير الله (**فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ**) يا معشر اليهود (**إِلَّا خِزْيٌ**) وهي عبارة جامعة للذل والهوان والفضيحة، يلحق من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض (**فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) وقد حصل لهم منه أوفر نصيب (**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ**) أي يصيرون (**إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ**) الذي يعلمه الله. ثم أتى بما فيه مبالغة في التهويل فقال: (**وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**) من أعمالهم التي من جملتها أن يؤمنوا ببعض الكتاب، ويكفروا ببعض (**أُولَـٰئِكَ**) الموصوفون بنقض العهد هم (**الذِينَ اشْتَرَوُا**) أي آثروا واستبدلوا (**الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**) الفانية (**بِالْآخِرَةِ**) الباقية فبئس ما فعلوه (**فَلَا يُخَفَّفُ**) الله (**عَنْهُمُ**) في الآخرة (**الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ**) في الدنيا، أي يمنعون مما لزمهم من الخزي، صبغة الله، إلا إذا انتقلوا من اليهودية إلى الإسلام.

الإستنبـــاط

يستخرج من قوله تعالى: (**وإذ أخذنا ميثاقكم... إلى قوله: ينصرون**) ثلاثة أحكام:

الأول: علمنا بأن الله تعالى يريد من المؤمنين العمل بهذا الميثاق المأخوذ عن بني إسرائيل، أن لا يسفكوا دماءهم، ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، ولا يظاهرون على بعضهم بأعدائهم، وإن لم يؤخذ هذا الميثاق عنا في صريح الأمر به، وما ذلك إلا رحمة منه تعالى، حيث أدرجه في قالب الحكاية، إذ لو أُخِذَ عنا لنقضناه حسب الواقع في صدر الإسلام وإلى الآن.

الثاني: علمنا بأن العمل ببعض المأمورات مع عدم اجتناب المنهيات قد لا يعد إيمانا. من قوله: (**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض**)، وما ذلك إلّا أنهم فعلوا بعض المأمورات مع عدم اجتناب المناهي.

الثالث: علمنا بتشديد الوعيد على مثل من يفعل ذلك، من قوله: (**فما جزاء من يفعل ذلك**) إلى آخره.

الإشـــــارة

يتحقق من الآية تهويل يتعدى أمره إلى غير الإسرائيليين، على ما يتضمنه معنى الموصول من قوله تعالى: (**فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا**). إلا أننا إذا تحققنا المشار إليه نجده ليس هو إلا فعل بعض الواجبات، وهو الفداء

مع عدم اجتناب المنهيات، وهي: القتل والإخراج والتظاهر، وهذه الصفة قد تحقق في غير اليهود من فعل بعض المأمور به مع عدم اجتناب المنهي عنه، وعليه فإن كان جزاء من يفعل ذلك **(خزي في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب)** والملتجأ إلى الله من سوء العذاب، والذي أدهى من هذا، هو تعبيره تعالى عمن يفعل ذلك بأنه يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض.

اللهم إنك شاهد على أنني أومن بالكتاب كله، وما أبرىء نفسي من التقصير، من جهة الأخذ بجميع ما فيه، فلا تجعل ما هو من عمل أبداننا مخلا بإيماننا، يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين.

لسان الروح

في قوله: (**فما جزاء من يفعل ذلك**) يقول: إن الإسم الموصول جاء بشمول العذاب لولا أن قيده كاف الخطاب.

قوله تعالى

وَلَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ، وَءاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ، أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ، فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ، وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ، وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ، بَلْ لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ

التفسير

ثم أخذ تعالى في ذكر جناية يتعلق معظمها بفعل أسلاف اليهود، مع بقاء الحظ الوافر منها لمن عاصر النبي ﷺ من اليهود، والتصدير بجملة القسم يشعرنا بأهمية المذكور بعدها، قال تعالى: (**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى**) بن عمران – عليه السلام – (**الْكِتَابَ**) وهو التوراة، نزل عليه جملة واحدة (**وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ**) أي من بعد موسى (**بِالرُّسُلِ**) أي بعثنا رسلا على آثاره كثيرة بينه وبين عيسى – عليهم السلام –، كيوشع، واشموعيل، وشمعون، وداوود، وسليمان، وشعيب، وعزير، وحزقيل، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيىٰ، (**وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ**) جمع بينة، وهي الحجة الواضحة الدالة على صدقه، كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله، وغير ذلك من خرق العوائد (**وَأَيَّدْنَاهُ**) في جميع ذلك، وسددناه وقويناه (**بِرُوحِ الْقُدُسِ**) المنفوخ فيه منه. فعيسىٰ – عليه السلام – هو روح متجسم، فلهذا يعمل الأعمال، وحكمة تخصيصه بذلك دون من سبقه من الرسل لمجيئه بالنسخ لكثير من أحكام التوراة، المتمكنة من القلوب أشد صلابة من الحديد، فهي أبعد من أن تنقاد بالدليل، فلهذا جاء بالبينات، وأما من سبقه من الرسل لم تكن بعثتهم إلا تقريرا لأحكام التوارة، فكان احتياجهم بالبينات أخف من احتياج المسيح إليها، ومع ذلك فلابد وأن يكون للرسول من الخواص ما يباين به من سبقه، (**سنة الله التي قد خلت من قبل**) ولن تخرج خواصه على ما فيه مباينة للنفوس وشهواتها، ولذا قال تعالى: (**أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ**) يا معشر

اليهود (**بِمَا لَا تَهْوَىٰ**) أي تشتهي (**أَنْفُسُكُمُ**) الخبيثات (**اسْتَكْبَرْتُمْ**) في أنفسكم على أن تؤمنوا بما جاءكم به (**فَفَرِيقًا**) من الرسل (**كَذَّبْتُمْ**) بما جاءكم عنهم كموسى وعيسى ومحمد ﷺ (**وَفَرِيقًا**) منهم (**تَقْتُلُونَ**) كزكريا ويحيىٰ وغيرهما، فإنه لم يكفكم فيهم مجرد التكذيب، وهذا ما اعتدتموه لأنبياء الله ورسله، وبمناسبة ما نشره القرآن من فضائحهم نكسوا رؤوسهم (**وَقَالُوا**) لمحمد بصفة الإستهزاء: (**قُلُوبُنَا غُلْفٌ**) أي عليها غشاوة لا تعي ما تدعونا إليه، فرد عليهم تعالى بقوله، وألبسهم حلة من مقته فقال: (**بَل**) ليست قلوبهم غلف، إنما (**لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ**) أي أبعدهم عن رحمته، فمن أجل ذلك (**فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ**) أي إيمانهم قليل، والميم جاءت مؤكدة للقلة، والله أعلم.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالىٰ: (**ولقد آتينا موسى... إلى قوله: فقليلا ما يؤمنون**) خمسة أحكام:

الأول: علمنا بأنه تعالى بعث رسلا بين موسى وعيسى، وفي الغالب أن شرع موسى كان شرعا لهم، من قوله: (**وقفينا من بعده بالرسل**).

الثاني: علمنا بأن ما أوتي عيسى من البينات كانت أبين وأوضح من غالب الآيات الصادرة على يد أنبياء الله. من قوله: (**وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس**).

الثالث: علمنا بأن الرسل كانت في الغالب تأتي بما لا تهواه

النفوس الخسيسة. من قوله: (**أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم**).

الرابع: علمنا بأن عدم إيمان بني إسرائيل بأنبيائهم كان ناشئا عن كبرٍ. من قوله: (**استكبرتم**).

الخامس: علمنا بأن تعلق اليهود بأنبيائهم كان قليلا، بالنسبة لجراءتهم عليهم. من قوله: (**ففريقا كذبتم، وفريقا تقتلون**).

الإشــــــارة

في تخصيص موسى بالكتاب، وعيس بالبينات، مع أن لعيسى كتابا، كما أن لموسى بينات، تفيد أنه تعالى مكّن لموسى في شهادة الظواهر ما لم يمكّن فيه لعيسى، ومكّن لعيسى في غيب السرائر ما لم يمكّن فيه لموسى، وتفيد أيضا أن الرسل التي بينهما جاءت إلى الظواهر أميل، بدليل قوله تعالى في حق موسى: (**وقفينا من بعده بالرسل**) فهي تابعة لأثر موسى لا غير.

ثم أقول: إن النبوءة مع البواطن أجمل، وهي مع الظواهر أكمل، وكلاهما بانفراده لا يعمل، ولهذا لما انتزعت النبوءة من المسيحيين بقي ما يقتضي الإلحاد، ولما انتزعت من الإسرائيليين بقي الجحود والعناد، لأن الظواهر بانفرادها تتضمن القساوة التامة والجحود المحض، وهما نتائج الغشاوة التي تقع على القلب، المشار لها في قوله تعالى: (**وقالوا قلوبنا غلف، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون**).

لسان الروح

مترجما عن البينات التي آتاها الله عيسىٰ - عليه السلام - فقال: هي من البيان، أي الإظهار، ولا تكون البينة بينة إلا إذا كانت ظاهرة في نفسها مظهرة لغيرها، ولا تضرب بهذا الإعتبار إلا للصفة الأزلية، وكونه تعالى آتى عيسىٰ إياها، أي ظهر فيه بها، بمعنى صار له سمعا وبصراً ويداً ورجلًا، حسبما جاء في الحديث القدسي، فكان يعمل الأعمال بصفة الله لا بصفته، حتى كان يخلق من الطين كهيئة الطير. وهل ترىٰ أن فعله هذا كان بالقدرة الحادثة فكلا! لا عيسى ولا قدرته، قال تعالى: (**وأيدناه بروح القدس**) والقدوس هو الله. أي ظهرنا فيه بروحنا، وطويناه في وجودنا. وبهذه المناسبة قال: «**أنا روح الله وكلمته**» أي ذاته وصفته. ولا يتهم الحصر إلا جاهل بصفة الإطلاق، وما عليه إذا لم تفهم البقر.

قوله تعالىٰ

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ، فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ، بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَّكْفُرُواْ بِمَآ أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُّنَزِّلَ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ

التفسير

ولما ذكر تعالى من وصف اليهود أنهم قليل ما يؤمنون بها، لعنهم الله بكفرهم، أتى بحجة ذلك فقال: **(وَلَمَّا جَاءَهُمْ)** بواسطة محمد ﷺ **(كِتَابٌ)** وهو القرآن **(مِنْ عِنْدِ اللهِ)** سبحانه وتعالى **(مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ)** أي معضد للتوراة، ومصدق لما أخبر به **(وَكَانُوا)** اليهود **(من قَبْلُ)** أي من قبل بعثته ﷺ ونزول القرآن **(يَسْتَفْتِحُونَ)** أي يسألون من الله الفتح والنصر **(عَلَى الذِينَ كَفَرُوا)** بدينهم من المشركين، ويقولون: اللهم افتح بيننا وبينهم، وانصرنا عليهم بالنبي المبعوث آخر الزمان، الذي نجد نعته في التوراة **(فَلَمَّا جَاءَهُم مَا عَرَفُوا)** في التوراة، أي جاءهم الموصوف بتلك الأوصاف **(كَفَرُوا بِهِ)** أي جحدوه حسدا من عند أنفسهم، وقالوا: هو المبشر به لمجيئه على خلاف ما تهوى أنفسهم. قال تعالى: **(فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ)** برسوله، الذين يجحدون الحق بعد ظهوره، ويعتقدون أنهم اشتروا أنفسهم من عذاب الله **(بِيسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ)** أي بئس شيئا المشترى به، والمخصوص بالذم هو **(أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ)** من النبوة والكتاب، والحالة أن كفرهم هذا **(بَغْيًا)** أي جوراً. فهو مجرد حسد واستنكاف منهم **(أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)** لأنه إن كان ذلك يتعد الفضل والنبوءة إلى العرب وغيرهم. والإسرائيلية لا ترضى أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده **(فَبَاءُو)** أي انصرفوا عن الإيمان، ورجعوا **(بِغَضَبٍ)** من الله حل بهم بسبب كفرهم بمحمد، زادهم **(عَلَىٰ غَضَبٍ)** كان متعلقا بهم بما نكروه من نبوة عيسى وغيره من

الرسل (**وَلِلْكَافِرِينَ**) برسل الله (**عَذَابٌ**) يوم القيامة (**مُهِينٌ**) أي يهانون بسببه، ويخلدون في النار من أجله.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالىٰ: (**ولما جاءهم . . . إلى قوله: مهين**) أربعة أحكام:

الأول: علمنا بأن اليهود كانوا على خبرة من بعثة الرسول آخر الزمان. من قوله: (**وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا**).

الثاني: علمنا بأن أوصاف محمد ﷺ كانت على طبق ما كان معلوما عندهم في التوراة. من قوله: (**فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به**) في التوراة، أي جاءهم الموصوف بتلك الأصاف (**كفروا به**).

الثالث: علمنا بأن كفر اليهود بمحمد ﷺ كان حسدا منهم أن يُنَزِّلَ الله من فضله على غير بني إسرائيل. من قوله: (**أن يكفروا بما أنزل الله . . .**) إلخ.

الرابع: علمنا بأن التحجير على الله أن يُنَزِّلَ من فضله على من يشاء، خطة وخيمة العواقب. من قوله: (**فباؤوا بغضب على غضب**) وما ذلك إلا بسبب ما سبق من بغيهم و جراءتهم على الله.

الإشـــــارة

لن تزال هذه النزعة كامنة في أفراد يعرفون من أوصاف القائم حسبما يجدونه منصوصا عليه، ويحققونه من أخلاقه، ومنهم من هو على بينة من أمره، إما بمنام أو بإلهام، أو بما هو أوضح من ذلك، مما تشمله الأذواق، وينكرون ذلك، ويجحدون ما هنالك حسدا من عند أنفسهم، وبغيا أن يُنَزِّلَ الله من فضله على من يشاء من عباده. قال بعضهم: «ما هي إلا نزغة شيطانية إسرائيلية، صدقوا بإبراهيم وموسى ولم يروهما، وكذبوا بمحمد وهو معهم».

لسـان الـروح

في قوله: (**فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به**) يقول: إن (**ما**) هنا نافية لمعرفة الحقيقة، إذ لو عرفوا ما فيه ما كفروا به.

قـولـه تـعـالى

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ اللهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذتُّمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ، وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ، خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ، قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، وَأُشْرِبُواْ

فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ، قُلْ بِيسَمَا يَامُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمُ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ

التفسير

ثم أتى تعالى بجملة فيها من حسن أسلوب الدعوة من المؤمنين، وشدة تعصّي وصلابة الإسرائيليين. فأما حسن الدعوة فيؤخذ من قوله تعالى: (**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ**) أي لليهود، والقائلون هم المؤمنون، والمقول هو (**آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ**) ووجه الملاطفة في الدعوة يؤخذ من قولهم: (**آمنوا بما أنزل الله**)، وكان المتبادر من الفهم أن يقول: (**آمنا**)، فيدخل الإيمان بالقرآن فيما أنزل الله، فلله در المؤمنين ما أشفقهم على العباد، فإنهم أرادوا أن يأخذوا اليهود بطرف خفيّ إلى الإيمان، لأنها كلمة أدعىٰ في قبول الإيمان، من قولهم: آمنوا بالقرآن. وشدة دهاء المخاطب منه تفطن لمراد المخاطبين (**قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا**) وهذا أبلغ من التفطن، لأنهم لو قالوا لا نؤمن، لزم كفرهم بالتوراة، ولو قالوا آمنا، لزم إيمانهم بالقرآن، فأتوا بكلمة جامعة بين الإيمان والكفر، فإنهم يريدون أن يؤمنوا بالتوراة (**وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ**) والمكفور به (**وَهُوَ الْحَقُّ**) أي القرآن حَقٌّ، ومن الحق نزل، حالة كونه (**مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ**) من التوراة، مقررا للكثير من أحكامه، ولما كان هذا الشق من الإيمان لم ينجح بانفراده، فأراد تعالى أن ينفيه عليهم البتة، وإنه لو صح لهم الإيمان بالتوراة لصح بالقرآن، قال لمحمد ﷺ: (**قُلْ**) لهم (**فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِئَاءَ اللهِ مِن قَبْلُ إِ كُنتُم مُّومِنِينَ**) بالتوراة كما

تزعمون؟ فهل وجدتم أنتم وأسلافكم قتل الأنبياء محللا فيما أنزل الله؟ ولما كان قد يقال لم تصح نبوءتهم عند من قتلوهم، أتى تعالى بما لا مندوحة عنه، فقال: (**وَلَقَدْ جَاءَكُم مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ**) الواضحة الدالة على صدقه، وقد اعترفتم برسالته (**ثُمَّ اتَّخَذتُّمُ الْعِجْلَ**) إلـها (**مِن بَعْدِهِ**) أي من بعد ذهابه إلى المكالمة (**وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ**) في اتخاذكم له، أي لا حجة لديكم تعتمدون عليها، فماذا تقولون؟ فهل هذا من مقتضيات الإيمان بالتوراة؟ فبئس الإيمان إيمانكم! ثم أتى تعالى ثانيا بما فيه تكذيب لدعواهم الإيمان بالتوراة، فقال: (**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ**) أي اذكروا إذا أخذنا عليكم العهد عن العمل بما في التوراة بعدما هددناكم (**وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ**) عندما أعرضتم عن قبوله، وبعدما أقررتم قلنا لكم: (**خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم**) فيه من الأحكام (**بِقُوَّةٍ**) وحرص (**وَاسْمَعُوا**) أمر الله، مطيعين لله رب العالمين (**قَالُوا سَمِعْنَا**) القول (**وَعَصَيْنَا**) الأمر بما استولى عليهم من القساوة وحل بهم من الشقاوة (**وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ**) أي امتلأت قلوبهم بحب العجل كما تمتلئ معدة الظمآن من الماء، فلهذا لا يتمكن منها الإيمان، وكان ذلك (**بِكُفْرِهِمْ**) بالتوراة، إذ لو كانوا مؤمنين لما عبدوا العجل، ولا تمكنت محبته من قلوبهم (**قُلْ**) لهم يا محمد: إن كان ما فعلتموه من قتل الأنبياء وعبادة العجل، وغير ذلك هو مما يأمر به الإيمان (**بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ**) أي بئس شيئا يأمركم به إيمانكم، وبئس الإيمان إيمانكم (**إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**) بهذه الصفة، فكأنه تعالى يريد أن ينفي عنهم الإيمان بالمرة، وإن من قبل بعثته ﷺ، ولم ندر هل أراد بذلك الإيمان الكامل، أو الإيمان من أصله، فالله أعلم بمراده.

الإستنبـــــاط

يستخرج من قوله تعالىٰ: (**وإذا قيل لهم آمنوا... إلى قوله: بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين**) خمسة أحكام:

الأول: علمنا بأن التصديق بما أنزل الله إجمالا كافٍ في الإيمان بالكتب السماوية، من قوله: (**وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله**) إذ لو قالوا آمنا لصح منهم.

الثاني: علمنا بأن الأولى عدم حصر ما أنزل الله على أنبيائه لئلا يخرج ما هو داخل، ولا ندفع ما لا تصل إليه معلوماتنا مما بلغنا من ذٰلك القبيل، لئلا يكون هو الحق، إنما نوكل أمره إلى الله، وذٰلك يؤخذ من قوله: (**قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه، وهو الحق**).

الثالث: علمنا بأن الإيمان المستفاد من البينات الحسيات كخرق العوائد لا يؤمن على صاحبه الإرتداد، حسبما وقع لقوم موسى بعد ما جاءهم بالبينات، اتخذوا عجلا بعده، بخلاف ما لو كان مستفادا عن بينة عقلية.

الرابع: علمنا بأن بني إسرائيل تلقوْا أحكامهم من موسى عن كره، والمكره على الشيء لا يدوم عليه، من قوله: (**وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور**).

الخامس: علمنا بأن حب الشيء يمنع من ملاحظة عيوبه، وإن كان كله عيبا، كعجل بني إسرائيل، من قوله: (**وأُشربوا في قلوبهم العجل**).

الإشـــــارة

تحذرنا أن يتجمد الإنسان على ما وصل إليه فهمه من ظواهر الكتاب والسنة، وينكر ما وراء ذلك، مما هو من شأنه الخفاء عن العموم، فقد ينكر الحق الثابت المشار له بقوله تعالى: (**وهو الحق مصدقا**) وموافقا لما معهم من الظواهر، ويكون الأخذ بالظواهر غير كاف في الإيمان، مع نكران البواطن، وأما مع العجز عنها فقد يصح مع النقص، وفي مجيء الحق من وراء الظواهر دلالة على أن لا وصول إليه إلا من بابها (**وأتوا البيوت من أبوابها**) ومن زعم أنه آخِذٌ بالظواهر، عاملا بما فيها، فهو بهذه المناسبة غير محتاج لما بطن فيها، فيقال له: لِمَ تأخذ بها ولا عملت بما فيها، ولو عملت بما علمته لأورثك الله علما لم تكن تعلمه. ويقال لهم أيضا: لو كنتم آخذين بالظواهر مؤمنين بما فيها، لسرتم على سنن الأنبياء فتستبدلون الرغبة بالزهد، والهزل بالجد، والبطالة بالكد، والضد بالضد، إلى ما لا نهاية من أوصافكم الخسيسة مع أوصافكم النفيسة، ولكنكم قتلتموهم بهذا الإعتبار، وأحييتم سنن الشياطين، فلا جرم يتناولكم قوله تعالى: (**فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين**) كل ذلك مما أُشرب في قلوبهم من محبة الدنيا، المستفادة من قوله: (**وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم، قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين**).

لسان الروح

في قوله: (**وإذا قيل لهم**) أي للنفوس السفلية من حضرة الملأ الأعلى (**آمنوابما أنزل الله**) بالمعنى تَنَزَّل، سواء إليكم أو لغيركم من العقول العلوية، والأرواح النورانية والقلوب الصافية، (**قالوا نؤمن بما أُنزل علينا**) وتحققناه من أنفسنا، وبلغناه بعقولنا (**ويكفرون بما وراءه وهو الحق**) أي المكفور به الذي هو من وراء ما عرفوه، وإذا كان ما كفروا به حقا، وما عرفوه حقا، عاد الْكُلُّ حقا عند من عرف الحق بهذا الإعتبار، لأن الباطن مصدق لما معهم من الظواهر.

قوله تعالىٰ:

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، وَلَنْ يَّتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، وَاللهُ عَلِيمُ بِالظَّالِمِينَ، وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ، وَمِنَ الذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ، وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُّعَمَّرَ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ

التفسير

ولما كانت دعوة أحبار اليهود أوسع وأعرض من فعلهم، ومن ذلك يرون كأن الجنة خُلقت بالخصوص من أجلهم، أتى تعالى

بما فيه تبكيتا لهم، وتضعيفا لدعواهم، فقال: (**قُل**) لهم يا محمد (**إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ**) أي الجنة ونعيمها (**عِندَ اللهِ خَالِصَةً**) أي سالمة لكم (**مِن دُونِ النَّاسِ**) على أي عقيدة كانوا (**فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ**) واستبشروا بوروده عليكم (**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**) في دعواكم أن الدار الآخرة خالصة لكم، فمن كان على بينة من أمره من أن الجنة هيئت من أجله فلا يستنكف من ورود الموت، بأن يتمناه، لأنه ملاقيه. ثم أتى تعالى بما في نفس الأمر، فقال: (**وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**) أي بسبب ما قدموه إلى آخرتهم من الذنوب، فكانوا على علم من مصيرهم، فلهذا لا يركنون للموت (**وَ اللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**) وأي ظلم أعظم من جحودهم الحق بعد ما عرفوه (**وَلَتَجِدَنَّهُمْ**) أي اليهود (**أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ**) أي أشد الناس طلبا لها فضلا على أن يتمنوا الموت، فلا تجدن يهوديا إلا وإيمانه متاع الدنيا، فهم أحرص الناس مطلقا على الحياة (وَ) أحرص حتى (**مِنَ الذِينَ أَشْرَكُوا**) أيضا (**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ**) أي يتمنى كل واحد منهم (**لَوْ يُعَمَّرُ**) أي يعيش في عمره (**أَلْفَ سَنَةٍ**) في الدنيا، وما ذلك إلا لعلمه بسوء المنقلب (**وَ مَا هُوَ**) تعميره (**بِمُزَحْزِحِهِ**) أي ليس هو بصالح أن يزحزحه ولو أدنى شيء (**مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ**) ما شاء، فمصيره إلى النار (**وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**) في تعميرهم، فيجزيهم بسوء أعمالهم.

الإستنبـــــاط

يستخرج من قوله تعالىٰ: (**قل إن كانت لكم الدار... إلى قوله: بما يعملون**) أربعة أحكام:

الأول: علمنا بأن أبلغ شيء يستدل به الإنسان على صلاحية نفسه لما عند الله من النعيم تشوفه للموت واطمئنانه بمجيئه، من قوله: (**فتمنوا الموت إن كنتم صادقين**).

الثاني: علمنا بأن الموجب لعدم رضانا بالموت هو ما ارتكبناه من الذنوب، من قوله: (**ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم**).

الثالث: علمنا بأن أهل الكتاب هم أحرص الناس على الحياة الدنيا، وحتى من المشركين. من قوله: (**ولتجدنهم أحرص الناس على الحياة**).

الرابع: علمنا بأن شيخوخة الإنسان وشدة تعميره في الدنيا لا تفيده شيئا في التزحزح عن العذاب مع سوء الأعمال، من قوله: (**يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب**).

الإشـــــارة

إن في قوله تعالى: (**قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين**) ما يتناول سائر المنتسبين، فليحقق الإنسان نفسه على هذا المعيار الصادق مهما سولت له أنه علىٰ قدم راسخ، فإن كان الموت بغيته وتحفته حسبما قال ﷺ: «**الموت تحفة المؤمن**» فهو المؤمن حقا، ولهذا

تجد حزب الله أرغب فى التسارع إلى الموت منها إلى الحياة، لعلمهم يقينا بما أعده الله للمحسنين، وهذا هو دليل الصدق في دعواه، وأما أهل الدعاوي الكاذبة، الذين هم أكثر من أن يقيدوا بالحصر، فيشملهم قوله تعالى: (**ولتجدنهم أحرص الناس على حياة، ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر، والله بصير بما يعملون**) من أعمالهم المخالفة لأقوالهم (**كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**).

لسان الروح

في قوله: (**ولن يتمنوه أبدا**) يقول: لا يتمنى الموت إلا من ذاقه في حياته، ولهذا اختار المصطفى ﷺ اللقاء على البقاء، فقال: «**رجل عرضت عليه الدنيا...**» إلى آخر الحديث.

قوله تعالىٰ

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُومِنِينَ، مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَآئِيلَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ، وَلَقَدْ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ، وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا الْفَاسِقُونَ

التفسير

ولما كان من اليهود من حاج النبي ﷺ في عدة مسائل، ومن جملتها أن سألوه عمن يأتيه بالوحي، فقال: جبرائيل، فقالوا: إنه عدوٌّ لنا لأسباب، من جملتها أنه وعدنا أن لا يجعل النبوءة في غيرنا، وحاشا لِلَّهْ أن يصدر من أمين الوحي مثل ذلك، فأنزل تعالى: (**قُلْ**) لهم يا محمد (**مَن كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ**) المسخر في طاعة الله، فعداوته لله في نفس الأمر لا لجبرِيل، لأن جبريل لا يملك من جهة الوحي شيئا (**فَإِنَّهُ**) أي القرآن الذي استفزهم وعيده، وآلمهم تهديده (**نَزَّلَهُ**) أي جبريل (**عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ**) لا باختياره، حتى تتوجه عليه الملامة أو تصح عداوته حالة كون القرآن (**مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**) من الكتب السالفة، (**وَهُدًى**) لمن سبقت له العناية، فإنه يهتدى به لطرائق المعاش والميعاد (**وَبُشْرَىٰ**) برضوان الله الأكبر (**لِلْمُومِنِينَ**) به، العاملين بما فيه.

وأما ما يتعلق بالنزول، وفي كونه على القلب، فالكلام يأتي عليه إن شاء الله من غير هذا الموضع. ثم إنه لما كانت عداوته تعالى لا تتأتى إلا بعداوة أحبابه، والخروج عن أمره ونهيه، وقد حصلت من اليهود على الوجه الأكمل، فتحققت عداوتهم لله حينئذ، وبتلك المناسبة صدر بنفسه فقال: (**مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّه وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ**) من البشر (**وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ**) من رسل الملائكة (**فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ**) والمعنى إن عداوة أحد مما ذكر تستلزم عداوة الآخر، فكأنه تعالى يقول: من كان عدوّاً لله بالخصوص، محبا للملائكة كالصابين على ما قيل: إنهم يعبدون

الملائكة، أو كان عدوّاً للملائكة عموما، بأن ذكرهم بما هم برءاء منه، أو كان عدوّاً لرسله من البشر عموما، أو كان عدوا للبعض منهم، أو للبعض من الملائكة كجبريل وميكائيل مثل عداوة اليهود فهو كافر، والله عدوٌّ للكافرين من أي طائفة كانوا، مما ذُكِرَ ومما لم يذكر.

ثم أتى تعالى بما فيه تثبيتا لنبيه ﷺ من أن لا يهتم من إعراض اليهود، فقال: (**وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ**) يا محمد (**آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ**) أي واضحات الدلالة (**وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ**) فكفران الفاسقين بها لا ينافي وضوحها بدليل أن من اهتدىٰ من أجلها أكثر ممن كفر بها، وما يكفر بها إلا الفاسقون.

الإستنباط

يستخرج من قوله تعالىٰ: (**قل من كان عدوًّا لجبريل... إلى قوله: الفاسقون**) ثلاثة أحكام:

الأول: علمنا بأن النبي كان يتلقىٰ القرآن من جبريل تلقيا قلبيا، فيكون إدراكه له في الغالب بالحواس الباطنة، من قوله: (**فإنه نزله على قلبك**).

الثاني: علمنا بأن عداوة الملائكة والرسل تستلزم عداوة الله، والمعنى أن عداوة أحدهما تستلزم عداوة الآخر، من قوله: (**قل من كان عدوّاً لجبريل...**) إلى آخره.

الثالث: علمنا بأن جميع من كفر بما جاء به محمد ﷺ من أهل الكتاب إلا وهو فاسق الجارحة والاعتقاد قبل مجيء القرآن، من قوله: (**ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون**).

الإشـــــارة

تفيدنا أن محبة الله لا تكتسب إلا بمحبة أحبابه، وعداوته لا تتأتى إلا بعداوتهم. جاء في الحديث القدسي: (**من عادىٰ لي وليا فقد آذنته بالحرب**)، فليحترز اللبيب من أن يسعىٰ فيما يؤذي المنتسبين لله، كما يجتهد أن يأخذ الحق حيثما وجده، ولا يقول كما قالت اليهود لمحمد ﷺ: «لو كان الوحي جاءك به ميكائيل لاتبعناك، ولكن جبريل عدوٌّ لنا». وكان الحق منهم أن يأخذوا الحق مهما عرفوه، ولكن الأغراض قد تحول عن المراد.

قـولـه تـعـالىٰ

أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم، بَلَ اَكْثَرُهُمْ لَايُومِنُونَ، وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ، وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ احَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ احَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ، وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ

اشْتَرَاهُ، مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ

التفسير

ولما كان كفران اليهود بما جاء به محمد ﷺ من قبيل نقض العهد مع الله، حسبما كانوا يستفتحون على الذين كفروا، ونقض العهد مما تشمئز منه النفوس الكريمة، ولا تألفه القلوب السليمة، ذكر تعالى أن ذلك من جبليتهم فقال: (**أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا**) مع الله، ثم إن الهمزة للإنكار، والواو للعطف على ما تقدم (**نَبَذَهُ**) أي طرحه ونقضه (**فَرِيقٌ مِنْهُم**)، وكأنه تعالى يقول: ما من عهد عاهده اليهود قديماً أو حديثا إلا وقام فريق بنقيضه، ولما كان ذكر الفريق فيه ما يثبت عدم النقض للكثير منهم، جاء بما يزيل الإيهام، فقال: (**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُومِنُونَ**) فصدق عدم النقض حينئذ على القليل منهم، فيدخل فيه من آمن بالنبي ﷺ ومن ذلك (**وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ**) وهو محمد ﷺ مرسلا (**مِنْ عِندِ اللهِ**) إليهم ليهديهم إليه (**مُصَدِّقٌ**) وموافق (**لِمَا مَعَهُمْ**) من العلم في التوراة بأوصاف النبي المبعوث آخر الزمان، سواء بسواء (**نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ**) أي التوراة، ورموه (**وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ**) كناية عن الإعراض عن العمل به، لما وجدوه مطابقا لأوصافه ﷺ، وأدبروا عن جميع ذلك (**كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**) من التوراة شيئا (**وَاتَّبَعُوا**) أحبار اليهود (**مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ**) من السحر (**عَلَىٰ**) عهد (**مُلْكِ سُلَيْمَانَ**) بن داوود - عليهما السلام -، والمعنى، أن

اليهود لما وجدوا التوراة مطابقا على نعت محمد ﷺ أعرضوا عما فيها، والتفتوا لبقايا ما كانت تتلوه الشياطين على عهد سليمان من السحر، لأنه كان مجتمعا لديهم. وبيان القصة - على ما قيل - إن الشياطين - وهم المتمردون من الجن - كانوا يسترقون السمع على عهد سليمان - عليه السلام - بمناسبة دخولهم تحت أمره، وحضورهم في مجلسه، ثم يأتون الكهنة بما اطلعوا عليه من أمره وأمر الملائكة المقبلين عليه، وما هو من قبيل المغيبات، ويضمون إلى ذلك أكاذيب وتخليطات حتى شاع الخبر في ذلك العصر، وفيما بعده، أن ملك سليمان كان مبناه على مثل ذلك، وحاشا لله (**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ**) بأن استعمل السحر على ما في زعمهم الفاسد (**وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا**) بسبب تمردهم وتضليلهم العباد، وبما (**يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**) ويحرضونهم على العمل به، وإلا فمجرد التعليم ليس بكفر (**وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ**) أي ويعلمون الناس أيضا ما أنزل من السحر على الملكين (**بِبَابِلَ**) قرية بسواد العراق، وهما: (**هَارُوتَ وَمَارُوتَ**) بعثهما الله لتعليم السحر محنة واختياراً، ولهذا (**وَمَا يُعَلِّمَانِ**) أي الملكان (**مِنْ أَحَدٍ**) السحر (**حَتَّى**) ينصحانه و (**يَقُولَا**) أي على سبيل التحذير (**إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ**) لكم واختبار فإياك (**فَلَا تَكْفُرْ**) بالعمل به، وأما علمه لا ينافي الإيمان. ثم أتى تعالى ببيان ما يتعلمون منهما، فقال: (**فَيَتَعَلَّمُونَ**) الناس (**مِنْهُمَا**) أي من هاروت وماروت (**مَا**) أي شيئا (**يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**) فتحدث بينهما عداوة وبغض لسببه. ولما كان المقام مظنة التوهم من جهة إسناد التأثير للسحر نفاه سبحانه وتعالى بقوله: (**وَمَا هُم**) أي السحرة

أيضا (**بِضَارِّينَ بِهِ**) أي بسحرهم (**مِنْ أَحَدٍ**) المعمول له ذلك السحر (**إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**) إلا بتقديره، فلا تأثير لسحر كغيره، فلا ضار ولا نافع إلا الله (**وَيَتَعَلَّمُونَ**) أي السحرة (**مَا يَضُرُّهُمْ**) في آخرتهم (**وَلَا يَنفَعُهُمْ**) في دنياهم، فلا تجدن سحاراً إلا وفضيحته أعظم من سحره.

ولما أعطى تعالى الحكاية مستحقها إستلفت الخطاب لمن وردت من أجلهم، وهم الذين نبذوا كتاب الله، واتبعوا ما تتلو الشياطين فقال: (**وَلَقَدْ عَلِمُوا**) أي اليهود (**لَمَنِ اشْتَرَاهُ**) اللام للقسم، والضمير للسحر، والمعنى أنهم على علم بحكم من استبدل كتاب الله بالسحر (**مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ**) عند الله يوم القيامة (**مِنْ خَلَاقٍ**) أي ما له من حظ ولا نصيب (**وَلَبِيسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ**) أي بئس الشيء الذي سلموا به أنفسهم لعذاب الله، والمخصوص بالذم هو استبدالهم كتاب الله بما تتلوا الشياطين.

الإشـــــارة

تتناول الآية من نبذ كتاب الله بأن أدبر عن التدبر فيه، والوقوف مع أمره ونهيه، واتبع ما تتلو الشياطين على ملك سليمان الذي في الغالب منها أكثر الأوفاق الواهية والأسماء العبرانية، فليحذر متعاطيها أن يشمله من الحكم ولو جزؤه، وهذا ما لم يتضح صرفها لما هو السحر المبين المشتمل عليه قوله تعالى: (**فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه**) وهذه مناخ السفهاء من القراء وبغيتهم القائل فيهم ﷺ: «**فساق أمتي قراؤها**» (**فلبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون**).

قـولـه تـعـالىٰ

وَلَوَ اَنَّهُمُ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ، يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انْظُرْنَا وَاسْمَعُواْ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ اَلِيمٌ، مَّا يَوَدُّ الذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُّنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِنْ رَّبِّكُمْ، وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَّشَآءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

التـفـسـيـــــر

قال تعالى خطاب راجع لليهود المنكرين نبوءة محمد ﷺ (**وَلَوَ اَنَّهُمُ آمَنُوا**) بما جاء به القرآن (**وَاتَّقَوْا**) عقوبة الله المترتبة على كل من يجحد الحق بعد ظهوره (**لَمَثُوبَةٌ**) تعرضوا لها (**مِنْ عِندِ اللهِ**) يوم القيامة (**خَيْرٌ**) لهم من نكران الحق (**لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**) العلم النافع لقالوا: الحق أحق أن يتبع.

ولما كان الغش من جبلية اليهود لزم لهم في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم قديما وحديثا. ومن جملة ذلك أنهم كانوا يدسون للنبي في حديثهم ما هو في الظاهر بصفة المدح، وفي الباطن بعكسه، فأراد تعالى تنبيه المؤمنين عن مثل ذلك، فقال: (**يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا**) لنبيكم (**رَاعِنَا**) أي إجعل رعايتك علينا، فإن اليهود تقولها معكم، وتريد بها معنى آخر في لغتهم مضمونه سبا (**وَقُولُوا انْظُرْنَا**) بدل قولكم راعنا حتى لا تكون ذريعة،

فإن المعنى واحد (**وَاسْمَعُوا**) ما قلناه لكم، فكان الأخذ بهذه الكلمة بدل الأولى على سبيل الوجوب (**وَلِلْكَافِرِينَ**) المتجرئين على رسول الله (**عَذَابٌ أَلِيمٌ**) بقدر جراءتهم وطغيانهم.

ثم أتى تعالى بما فيه تحذير المؤمنين من أعدائهم، فقال: (**مَا يَوَدُّ**) أي يحب (**الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**) وهم اليهود (**وَلَا الْمُشْرِكِينَ**) من العرب وغيرهم (**أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِنْ خَيْرٍ**) مطلقا، وبالأخص ما هو كالوحي (**مِن رَّبِّكُمْ**) فتكون لكم به السعادة الأبدية في الدين والدنيا (**وَاللهُ**) سبحانه وتعالى تجل إرادته عن موافقة الأغراض، فله الإختيار التام (**يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ**) ونبوءته وولايته (**مَنْ يَشَاءُ**) من عباده، وبما شاء، وكيف شاء، فالناس في جانب الفضل سواء (**وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**) الممتنع تقييده بشخص دون الآخر.

الإشـــــارة

في قوله تعالى: (**ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب...**) إلخ ما يتناول كل حسود، ويكون الكاف من ضمير المخاطبين شاملا لأهل الخصوصية مطلقا في كل عصر وزمان، والمستفاد الأهم من الآية هو علمنا ببعد المشيئة عن الإرتباط بالعلل والأسباب، من قوله: (**يختص برحمته من يشاء**).

ولما كان الوهم قد يسلم ذلك، غير أنه يسبق إلى تخصيص المتقدمين بما يتعذر في الإمكان وصول المتأخرين إليه، نفاه تعالى بكيفية كادت تثبت شيئا من عكسه، بقوله: (**ما ننسخ من

آية أو ننسها نات بخير منها أو مثلها، ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) ولعلك تقول: إن الآية السابقة تامة الإستقلال بنفسها. فأقول: وهو كذلك، غير أن الإشارة تؤخذ من سر ترتيب الآي مع بعضها، وما يعقلها إلا العالمون، فما من آية إلا وتعضد ما قبلها بطرف إما خفي وإما جلي.

قوله تعالىٰ

مَا نَنسَخْ مِنَ ءايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَاتِ بِخَيرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ

التفسير

ومن كفالته تعالى بمصالح خلقه أن رتب الشرائع في سابق علمه على ما تقتضيه المصلحة العامة طبق الأزمنة والأماكن، وجعل الشرع اللاحق حاكما على ما قبله، مصدقا لمعناه، منقحا لمبناه، وبموجب ما جاءت به الشريعة الأحمدية من تحليل بعض المحرمات، وتوجيب بعض المباحات بالنظر للتوراة ونحوه، فاستشكلت اليهود أمر النسخ، واستبعدت معناه، وقالت: إن الله لا ينسخ شرعا قرره بنفسه. وكان تمسكهم بذلك اغتنام فرصة لمعارضة القرآن، وإلا فالتوراة نفسه ناسخ لبعض الشرائع قبله، ومن ذلك ما جاء فيه أن الله تعالى قال لنوح – عليه السلام – لما خرج من الفلك: **(إني جعلت كل دابة مؤكلا لك ولذريتك)** مع أن في التوراة الكثير من الحيوانات محرمة على بني إسرائيل من بعد نوح، وهذا غير خافٍ على بعض

اليهود، ولكن العصبية أشد مانع في قبول الحق. وبعدما أنكروا وجود النسخ من أصله توسعوا في النكير، والتفتوا للقرآن في نفسه وقالوا: إن محمدا ﷺ يأمر أصحابه بأمر ثم يأتيهم بنقيضه، وهم على علم من أن التكاليف لم تأت في صدر الإسلام جملة، إنما أتت على التدريج، ومنها ما بُدئ مخففا كتحريم الخمر، ووجوب الصلاة وغير ذلك، والحق سبحانه وتعالى أعلم بمصالح الخلق من أنفسهم، فرب مصلحة في وقت يكون غيرها أصلح منها في وقت آخر، ولا أصلح منها في وقتها. وبموجب ما ذكر بين تعالى الحكمة في وجود النسخ فقال: (**مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَاتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**).

ثم أقول: إن في الآية معترك نزاع بين المفسرين، باعتبار توجيه القراءة في ننسها، لأنها جاءت على وجوه. وعلى كل حال، ينحصر الخلاف في إنسائها، هل هو مأخوذ من النسيان، حسبما دلت عليه قراءة من أسقط الهمزة وضم النون؟ أو من النسء الذي هو التأخير على ما دلت عليه قراءة من فتح النون وأثبت الهمزة؟ وإذا فرضنا أنه من النسيان يحتاج إلى تقدير، لئلا يكون وصمة في جانب التبليغ، لأن النسيان إذا تطرق شيئا من الأحكام إنجرّ لما فيها، وهذا لا يخفىٰ ضرره، وعليه فيحمل النسيان على ذهول الآية من القلوب بعد رفعها حكما وتلاوة، فتكون منسية بالنظر للحفظ العام، ويدخل هذا القسم في الشرائع السابقة والأحكام الغابرة التي جاءت موقتة، ولا ينكر فكري أن ما كان من ذلك القبيل هو من بقايا شعاع التوراة أو الإنجيل، أو من مقدمة نزول القرآن لا نفسه، وأما القرآن الذي

تولى الله حفظه مما هو كالنسيان، بقوله: (**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**) لم ينقص منه شيئا، ولم يزد فيه شيئا، وهذا هو الذي ندين الله تعالى به، وعلى هذا يكون تقدير الكلام في الآية: ما ننسخ من حكم آية مع بقاء تلاوتها، أو ننسها، بأن نُذْهِبَ بها من القلوب، حتى كأنها لم تكن بما نرفعه من حكمها وتلاوتها، نأت بخير منها، من جهة ما يتعلق بمصالح العباد من حيث الزيادة في الفضل والرشاد، أو مثلها في المنفعة. ومن المعلوم أن قوله تعالى في الخمر المنجر في سياق تعديد النعم (**تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا**) هو من الصلاح، لأنه أبلغ داع في الإستجلاب، بالنظر لما كانت عليه جفاوة الأعراب، ووصفه له تعالى فيما بعد بكونه رجسا من عمل الشيطان، هو منه أصلح لهم بالنظر للغاية المطلوبة منهم، ولو وضعت كلًّا من الآيتين مكان أختها لتعطلت فائدتهما معا، وحكمة الله تأبى ذلك.

والملخص من هذا هو وجوه حملنا النسيان في الآية إذا وقع من النبي وعموم الصحابة يكون بعد رفع الحكم والتلاوة لا قبل ذلك، لما يترتب على ذلك من نسيان أكثر الأحكام، لأنه مهما ثبتت في شيء سرى الحكم فيما بعده، حسبما تقدم، مع أنه لا يتسنى وقوعه في الأحكام بعد اشتهارها بين عموم الصحابة، إنما يتصور في اللفظ. وأما كون الشيء محللا أو محرما بعد ثبوت الأمر به أو النهي عنه، لا يتصور ذهوله عن عموم الصحابة، وزيادة أن المنسي جاء أكثره - إن لم نقل جميعه - منحصرا فيما هو كالوعظ والترغيب والترهيب، حسبما دلت عليه الرواية لمن تتبعها، ومن ذلك ما روي عن أُبيّ بْنِ كعب، قال: قال لي

رسول الله ﷺ : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن فقرأ : (**لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين**) ومن بقيتها « **لو أن ابن آدم سأل واديا من مال فأعطيه سأل ثانيا ، وإن سأل ثانيا فَأُعْطِيَهُ سأل ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ، وأن ذات الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية ، ومن يعمل خيرا فلن يكفره** ».

ومثله أيضا ما قاله أنس - رضي الله عنه - إنه مما نزل في قتليْ بئر معونة : « أن بلغوا عنا قومنا إن لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا » اهـ.

ومن ذلك ما ذكره ابن مسلمة إن مما نزل قوله تعالى : (**إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، ألا ابشروا وأنتم المفلحون ، والذين آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليه ، أولئك لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعلمون**) وهذا وما لم ينقل مهما ثبت نزوله لا مساس له بالأحكام الشخصية البتة. وأما ما كان له تعلق بذلك فيكون من قبيل منسوخ التلاوة لا الحكم، ومع وجود النهي عن رسمه والتعبد بذكره لم يذهل لفظه من عموم الأفكار تماما، فضلا عن ذهول حكمه، ومن ذلك آية رجم المحصن إذا زنى.

عن أبي أمامة بن سهل أن خالته قالت : « لقد أقرأنا رسول الله ﷺ آية الرجم وهي الشيخ والشيخة فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة ».

وعن عائشة - رضي الله عنها - فيما يتعلق بالرضاع أنها

قالت: «كان فيما نزل عشر رضاعات معلومات، فنسخن بخمس معلومات، ثم نُسِخَ اللفظ وبقي الحكم».

ولعلك تقول: ما الحكمة في نسخ اللفظ مع بقاء الحكم، وهلا بقي اللفظ لتجتمع فائدة الحكم وثواب التلاوة؟ فأقول: إن سقوط اللفظ مع بقاء الحكم أخذ من محاسن الشريعة بأوفر نصيب، وبيان ذلك أن بقاء الحكم فيما يتعلق بالرجم فيه ردع للمولع بانتهاك حرمات الفروج مهما تصور الهيئة التي تقام عليه، فبقاؤه أبلغ في الترهيب.

وأما حكمة سقوطه من التلاوة فلكونه أفضع الحدود وأثقلها على النفوس، فحذف حتى لا يشتهر تمام الإشتهار رحمة منه تعالى بعباده، وتغليبا لجانب الستر. قال أُبَيُّ بن كعب - رضي الله عنه -: «أتى علينا عمر وأنا أستقرأ رسول الله ﷺ آية الرجم، فدفعني في صدري، وقال: أتستقرىء آية الرجم وهم يتسافدون تسافد الحمير». وفي سقوط اللفظ والتلاوة ما يشعرنا أيضا بلزوم التغافل عن التسارع لتنفيذه، مهما كانت مندوحة، حسبما بلغنا عنه ﷺ في قصة ماعز بن مالك لما جاءه وقال: «يا رسول الله إني زنيت فطهرني. فتغافل عنه، ثم قال له: **أبك جنون**؟ قال: لا، ثم أخذ يستفسره، ومن جملة ذلك أن قال له: **ولعلك استكرهت على ذلك، أو رأيته في منامك**. إلى غير ذلك مما هو من هذا القبيل، حتى أرسل لقومه: **أتعلمون بعقله بأسا؟**. وكأنه ﷺ يريد أن يسمع منه ولو أدنى تعليل، فربما يعتمده في سقوط الحد عليه، ولما لم تكن مندوحة عنه فأمر برجمه». وهكذا لما جاءته الغمادية ﷺ، وقالت: «يا رسول الله إني قد

زنيت فطهرني، فرددها، فقالت: تريد أن ترددني كما رددت ماعزا، فو الله إني لحبلى، فقال: **اذهبي حتى تلدين**. فلما ولدت أتته بالصبي، قال: **فاذهبي فأرضعيه حتى تفطميه**. فلما فطمته أتت به وفي يده كسرة من خبز، فقالت: ها هو قد فطمته، وأكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر برجمها». رضي الله عنها وأرضاها، وعفانا مما ابتلاها، وهذا ونحوه مما يشعرنا بحكمة حذف الرجم وبقاء الحكم.

وأما حذف اللفظ من جهة ما يتعلق بالرضاع ففيه من لطف الله أيضا، وتغليبا لجانب الستر على اشتهار الحكم بالتلاوة لعموم البلوى به، فلا تجدن بيتا في الغالب إلا ويخللها من نسب الرضاع بالنظر لما هو كالخمس رضاعات على ما جبلت عليه النساء من عدم الإحتراز في مثل ذلك، إذ لا يعتبر القلة إلا الخصوص، فيكون بقاء الحكم من أجلهم، وحذف الرسم رحمة بغيرهم، والأولى أن يقال: (**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**). في وجوه الحكمة والتعليل.

ثم إن ما قدمناه في تفسير الآية هو على قراءة ضم النون وكسر السين وإسقاط الهمزة في ننسها، وأما على قراءة الفتح وإثبات الهمزة فتكون مادة ننسئها مأخوذة من النسء، وهو التأخير لغة، على حد قوله ﷺ: «**من سره النسء في الأجل** - التأخير فيه والزيادة في الرزق - **فليصل رحمه**».

وعلى هذا فلا يحتاج إلى تقدير حسبما تقدم، في حمله على النسيان، غير أن النسخ حينئذ يحمل على المرفوع حكما

وتلاوة، فيكون من قبيل المحو، على حد قولهم: نسخت الشمس الظل، والمنسأ عبارة عن متروك اللفظ، فهو مؤخر العمل به، غير منسوخ في الحقيقة، وما ترك اللفظ في المصحف إلا لحكمة يعقلها العالمون.

ثم أقول: إن الفهم الخاص لا يرىٰ لفظا في كتاب الله معطلا، بالمعنىٰ هو لمجرد التلاوة حسبما يتبادره الفهم العام من منسوخ الحكم، بل يعتبره محكما من وجهة، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالىٰ: (**كتاب أحكمت آياته**)، أي ولا آية إلا وهي محكمة صالحة وقتا ما بالنظر لتغيرات الزمان والمكان. ومن هنا أنكر أبو مسلم بن بحر وقوع المنسوخ في القرآن، وكان يقول: «هو ناسخ غير منسوخ». ولا تظن أن قوله هذا كان مخالفا به الجمهور من جهة ما يتعلق بِطُرُوّ الحكم على ما قبله، فهو أبعد من أن ينكر مثل ذلك، إنما كان يرىٰ الأحكام المقيدة بالعلل والأزمنة هي باقية مهما علمنا وجه الحكمة في تأخرها. ومن المعلوم أنها ما أخرت عن العمل وتركت في المصحف إلا لحكمة أو لوقت استتر الله بعلمه، وهذا فيما لا نجد له صلاحية للعمل به الآن، وهو أقل القليل، ولا تتولع بما أدخله المكثرون في المنسوخات، ظنا منهم أن ذلك من سعة معلوماتهم، حتى كادوا أن يحكموا على أكثر من كتاب الله بالتعطيل. ومما يوجب الأسف، وينبي عن عدم انتباه المكثر، أن أدخل في المنسوخات قوله تعالى: (**وقولوا للناس حسنا**) ظنا منه أنها منسوخة بآية السيف، ولم ينتبه أنها جاءت في معرض حكاية فيما أخذَ من الميثاق عن بني إسرائيل. ومنهم من أدخل في المنسوخات قوله

تعالى: (**فأينما تولوا فثم وجه الله**) ظنا منه أنها منسوخة بآية التوجه إلى الكعبة، ولم يعلم أن قوله: (**فثم وجه الله**) هو خبر من الله، ينبىء عن استواء الجهة بالنسبة لوجوده، وهل مثل ذلك يحتمل النسخ. ومنهم من أدخل الكثير مما فيه رائحة الوعد والوعيد والأخبار، مما يستحيل وقوع النسخ فيه، لما يلزم عنه من وقوع الأخبار على خلاف ما في نفس الأمر، والنظر السديد لا يعتبر من هؤلاء ما جمعوه، إنما يرى المنسوخ هو عبارة على حكم من الله تقرر العمل به في زمن لا حكم أولى منه فيه، ومهما استدار ذلك الزمان كهيئته يكون هو أولى به من غيره. ألا ترى في زماننا باعتبار ضعفنا ما هو أولى به، أآية السيف أم آية الصبر والتحمل، حتى يأتي الله بأمره؟ ومن هنا نعلم أنها ما تركت في التنزيل إلا لمن هو على شاكلتنا، وهكذا لو تأملت كتاب الله.

والذي يشعرك بذلك سيرة الداعين إلى الله، فإنهم يستعملون كل آية فيما نزلت من أجله، حتى لو أرادت قبيلة الدخول في الإسلام، ولم يمنعها إلا صوم رمضان، فيقول لهم الداعي إلى الله قال الله تعالى: (**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين**) وهكذا لو استصعبوا ترك الخمر مثلا يقال لهم: (**ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارىٰ**) وقس على ذلك فإنهم - رضي الله عنهم - على قدم النبوءة من جهة قيامهم بدعوة الخلق حسبما تقتضيه العوارض الشخصية والظروف الزمانية. وقد بلغنا عن بعض الداعين إلى الله أنه دخل قرية فوجد أهلها لا خبرة لهم بمفروضيات الصلاة، فأمرهم بها، فاستصعبوا شروطها، فأمرهم بركعتين بغير وضوء، ثم أخذ في ترقيتهم إلى أن أخذوا بالغاية

منها. فرضوان الله عن ساداتنا، ما أشفقهم على العباد، وما أحرصهم على الهداية والرشاد!

لسان الروح

يعتبر المنسوخ من الكتاب هو عين الناسخ منه، بالنظر للمعنى القائم بالذات المتحد وجوده فيهما، فمنسوخ قبل نسخه كان ناسخا لما قبله، فالمجاز ناسخ للعدم، والحقيقة ناسخة للمجاز، وعليه فهي الظاهر فيهما، أي في الفاعل بصلاحيته للفاعلية، وفي المفعول بصلاحيته للمفعولية.

قوله تعالى

أَلَمْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، أَلَمْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

التفسير

وبمناسبة ما كانت عليه جبليته ﷺ من جهة تمسكه بالتنزيل، فكان ما من آية نزلت إلا وتمكنت من باطنه، وأخذت بمجامعه، فهو بالطبع يألفها، ويشفق من نسخها كل الإشفاق، خشية أن لا يعوضه تعالى بمثلها من جهة ما يراه لها من التأثير في القلوب، فجاءت آية النسخ تشجيعا من الله له على أن يتلقى الناسخ بأبلغ ما تلقى به المنسوخ، وربما يوجد فيه من الخيريات ما لا يوجد في ضده، حسبما يؤخذ من قوله تعالى:

(ما ننسخ من آية أو ننسها نات) أي نأتيك يا محمد **(بخير منها أو مثلها)**. ولما كان الوهم ربما يستبعد وقوع الخيرية باعتبار امتزاج الآية السابقة بذوقه وارتشافها في لبه، أتاه تعالى بما فيه تقرير، واستلفته لما سبق في علمه ﷺ من استطلاعه على قدرة القادر، فقال: **(أَلَمْ تَعْلَمْ)** يا محمد **(أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**. فكأنه يقول: أليس في علمك أن القدرة الذاتية هي التي أوجبت الإنفعال في القلوب، حتى تأثرت بالآي القرآنية، ولن يزال ربك موصوفا بالقدرة على كل شيء، فالذي أتاك بالخير، هو قادر على أن يأتيك بخير منه **(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ)** زيادة في توسيع النظر، لينطرح المخاطب أمام تصرفاته تعالى انطراح الميت بين يدي الغاسل، بموجب ما يعتبره من خلقة السماوات والأرض، وما فيهن واندراج الكل تحت حكمه وكفالته، فيعلم يقينا أن اختياره أولى من اختيار غيره، ولو لنفسه، كائنا من كان، فيتلقى الناسخ بما تلقىٰ به المنسوخ أول مرة.

وبمناسبة مشاركة الصحابة للنبي ﷺ من جهة تأثرهم بوقوع النسخ خشية قدح المعارض في القرآن. وكان ذلك أشد عليهم من السيف، شاركهم تعالى في الخطاب احتراما لجانبهم، فقال: **(وَمَا لَكُم)** يا معشر المؤمنين **(مِن دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)** فكأنه يقول لهم: كونوا على حذر من أمر الخلاف، فإنه ليس لكم في الأرض صديق ولا ولي حميم، كما قال إبراهيم – عليه السلام – : **(فإنهم عدو لي إلا رب العالمين)** فلا تركنوا لمدحهم، كما لا تتأثروا من قدحهم، فالله وليكم ومتوليكم لا غيره.

ثم إن الولي لغة هو عبارة عن القريب الملاطف. ومهما تحققت ولايته تعالى للمؤمنين فقد تحققت لهم السعادة الأبدية. غير أن الولاية لا تستلزم صفة الناصرية، بالمعنى لا يلزم من الولي نصرة المتولى، فقد لا تستكمل في غير الله لعجزه عنها من بعض الوجوه، والمعنى أن النصر قد يتخلف عن الولاية باعتبار النظر المتعلق بالظواهر (**وكأين من نبيء قتل، معه ربيون كثير**) وكونه تعالى وليهم هي نعمة تخصهم فيما بينهم وبين الله، وكونه ناصرهم نعمة تخصهم فيما بينهم وبين الخلق، فاستجمعت النعمتان لديهم، ولاية البواطن ونصرة الظواهر. ولما كانت كثرة النعم قد تفضي بمن لم يتثبت إلى حلول النقم، حذر تعالى المؤمنين من أمر ذي أهمية، ممكن الوقوع، قد يتساهل فيه الإنسان غالبا، ومن ذلك ما يلقى على الأنبياء من كثرة المسائل، وتكلفهم بما هو كخرق العوائد، ربما كان مثل ذلك يخلج في أفكار بعض المؤمنين بما مر على أسماعهم.



البحر المسجور

في تفسير القرآن بمحض النور

تأليف الأستاذ الشيخ :

أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي

الجزء الثاني

الطبعة الأولى

المطبعة العلاوية بمستغانم

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْئَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسىٰ مِن قَبْلُ، وَمَنْ يَّتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالاِيمَانِ فَقَدْ ضَّلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ، وَدَّ كَثِيرٌ مِّنَ اَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّنَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً، حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ، فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَاتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ، إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ

التفسير

من كثرة أسئلة اليهود لموسى عليه السلام، وربما كانت تغريهم اليهود عن مثل ذلك، فتداركهم تعالى قبل أن يقع السؤال منهم فقال: (**أَمْ تُرِيدُونَ**) أي بل تريدون يا معاشر المؤمنين (**أَن تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ**) محمداً ﷺ، (**كَمَا سُئِلَ مُوسىٰ مِن قَبْلُ**) أي سأله قومه، فأردتم التشبه بمن سبقكم (**وَمَنْ يَّتَبَدَّلِ**) أي يستبدل منكم (**الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ**) بأن يشرع في أسباب الكفر الذي من جملتها التعنت مع الرسل، وتكلفهم بما لا فائدة فيه غالبا، (**فَقَد ضَّلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**) أي خرج عن وسط طريق الهدى الذي أنتم فيه سائرون، وكون الخطاب في الآية عائداً

على المؤمنين هو قول الإمام وأبي مسلم، ويعضده قوله تعالى: (**ومن يتبدل الكفر بالإيمان**) لأنه يستلزم تقديم إيمان المخاطب، والذي يقوي ما قدمناه من أن وارد السؤال ربما منشؤه تحريض اليهود عن صدور مثله هو قوله: (**وَدَّ**) أي أحب وتمنى (**كَثِيرٌ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً**) لو يجدون لمثل ذلك سبيلا يسارعون إليه بكل صفة، ويفعلون ذلك (**حَسَدًا مِنْ عِندِ أَنفُسِهِم**) فوا عجبا يفعلون هذا (**مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ**) وظهر واتضح (**لَهُمُ الْحَقُّ**) الذي لا شبهة فيه من جهة دلائل نبوءة محمد ﷺ.

ولما ذكر أن فعلهم ذلك مجرد حَسَدٍ من بعد ما تبين لهم الحق، تشوفت نفوس الصحابة إلى وجه العمل الذي يريده الله مع هؤلاء، فأتاهم تعالى ببيان ما فيه صلاحيته لذلك الوقت فقال: (**فَاعْفُوا**) يا معاشر المؤمنين عنهم، والعفو عبارة عن ترك المجازاة، لأن الوقت كان غير قابل لها (**وَاصْفَحُوا**) والصفح عبارة عن الإعراض عن الفعل حتى كأنه لم يصدر من المسيء شيء، فهو أعم من العفو، كأن الحال يستشعر سؤالاً: وإلى متى تنتهي مطلوبية ذلك منا؟ فقال: (**حَتَّىٰ يَاتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ**) لنبيه ويؤذنه بالقتال لإظهار كلمة الحق، فقاتلوهم حينئذ وهو قادر على نصركم عليهم، (**إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) فكان الأمر كذلك والحمد لله.

الإشـــــارة

في قوله تعالى: (**ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير**) خطابا

لمن يتأتى منه العلم، والمراد به العالم بالله لا العالم بأحكام الله، فهو أبعد من أن ينكشف له تعلق القدرة بكل مقدور، نعم يتأتى له أن يدخل بعض المقدورات تحت قدرة القادر، أما جميعها فلا، لثبوت القدرة المجازية في نظره، ولن يستطيع أن يتنصل منها تماما، وبهذه المناسبة لا يتسنى له أن يراه على كل شيء قدير مهما وجد لغيره معه أدنى اكتساب ولو على طريق المجاز، فهو يضيف إلى قدرة الله شيئا وتتعذر عليه أشياء إلا إذا سقط الخلق من نظره تمام السقوط، وبعدما استشعر المخاطب بتمحض صفة الفاعلية له سبحانه وتعالى، وهي أحد الشقين من الوجود المقيد، لأن الأشياء بواطنها قدرة وظاهرها مقدور، وباطنها علم وظاهرها معلوم، وباطنها سمع وظاهرها مسموع إلى غير ذلك، أتى تعالى بما يشمل الشق الثاني ليتمحض له الخلق والأمر فقال: **(ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض)** والمراد بالملك ما ظهر من حواس الكائنات، كما أن الملكوت ما بطن فيها من أسرار المعاني. ثم قال: **(وما لكم من دون الله)** معاشر العلماء بالله ولي يتولاكم ولا نصير ينصركم، وقد تحققت ولايته لهم كما تحققت ولايتهم له، وتحققت نصرته لهم كما تحققت نصرتهم له، قال ﷺ: «**لن تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله**».

وأما الإشارة في قوله تعالى: **(أم تريدون أن تسئلوا رسولكم...)** إلى آخره. تفيد منع المقتدي في طريق الله أن يبالغ في بحث المقتدى به، ومن ذلك قولهم: «إن طريق القوم بنيت على النية والتصديق لا على البحث والتحقيق»، ومن التغالي في التحرز

حتى قالوا: «من قال لشيخه لماذا، لم يفلح أبدا».

وأما قوله تعالى: (**ودّ كثير من أهل الكتاب**) فيه تحذير لهم من أضداد هم أرباب الظواهر المعارضين لهم بما يفشل عزمهم، وقد رجع الكثير منهم عن السير إلى الله بما يلقونه إليهم من الشكوك والأوهام، وليس ينجو منهم إلا من أخذ الله بيده، ولهذا يحذر أهل الله أتباعهم في حال السير من مجالسة الأضداد، ويأمرونهم أن لا يأخذوا منهم سوى الأحكام، ويفعل أرباب الظواهر مثل ذلك مع المنتسبين بعد ما تبين لهم الحق في طريقهم والصدق في سيرتهم، ولعلهم يحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله، ومن حسن سيرة القوم أن يقابلوا الأضداد بكل ملاطفة وبرور، قاطعين النظر عن إساءتهم لهم، ولكن بموجب قوله تعالى: (**فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره**) وقيل: «إن الغاية من ذلك خروج المهدي ونزول عيسى عليهما السلام، لأنهما ينتصران بالذاكرين». ذكره الشيخ الأكبر «محي الدين بن العربي الحاتمي» – رضي الله عنه – في الباب السادس والستين وثلاث مائة من فتوحاته ما ملخصه: «إن المهدي – رضي الله عنه – أتباعه العارفون بالله فهم أنصاره، وأما الفقهاء لا يدخلون تحت حكمه إلا خشية من السيف فهم أعداؤه في الباطن». نقله في كتاب: «الإشاعة في أشراط الساعة».

قوله تعالىٰ

وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ، وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ، إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

التفسير

وبعد ما أمر تعالى المؤمنين بالعفو والصفح عمن عارضهم في دينهم إلى أن يأتي الله بأمره بأن أوضح لهم صفة المعاملة مع الخلق، ألزمهم الآن بما يهمهم من جهة الحق، وهي صفة المعاملة معه تعالى فقال: (**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ**) عطفا على ما قد سبق، فكأنه يقول: ومع ما طلب منكم من العفو والصفح على من آذاكم ألزموا أنفسكم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة أي اشتغلوا بصلاح أنفسكم مع الله فهو يكفيكم شرهم. ثم إن الصلاة المذكورة هنا، هي المفروضة على هذه الأمة المعروفة الآن فيما بينهم، وكذلك الزكاة المقررة لديهم، والأمر بهما في الآية شامل عموم المؤمنين، لأن الخطاب كان يعمهم، فلينتبه المخاطب لأمر الله مهما كان له حظ في الإيمان. ثم قال: (**وَمَا تُقَدِّمُوا**) معاشر المؤمنين (**لِأَنفُسِكُم مِنْ خَيْرٍ**) أي مما هو من جنس الخير مطلقا دخل فيما افترض عليكم أو خرج (**تَجِدُوهُ**) يوم القيامة في صحائفكم (**عِندَ اللهِ**) لم ينقصه شيء، بل يزيدكم الله من فضله، فمن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها (**إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**) زيادة عن كونه عليما بها، فهو سبحانه تعالى شاهد على كل فعل كيفما كان.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**وأقيموا الصلاة... إلى قوله: إن الله بما تعملون بصير**) أربعة أحكام:

الأول: علمنا بأهمية الصلاة من غيرها في المأمورات من

التصدير بها في أول الأمر، وتكريرها في التنزيل.

الثاني: علمنا بأن قرب الزكاة منها في الأهمية من مصاحبتهما في الأمر غالبا.

الثالث: علمنا بأن الخير ليس مقصورا عليهما أي قد يوجد في غيرهما من القربات من قوله تعالى: (**وما تقدموا لأنفسكم من خير**) حيث جاء به منكرا.

الرابع: علمنا بأن الخير لا يكون خيرا إلا إذا استحضرنا كون الله به بصير، وهي درجة أعلى من استحضار العلم.

الإشـــــارة

في قوله تعالى: (**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**) إن الصلاة في شرع القوم عبارة عن حالة تخصص العبد بالوقوف مع الله في حضرته الخاصة، وأول مقاماتها الهيبة، ثم الدهشة، ثم الحيرة، فمن مقتضيات الهيبة قول المصلي (**إياك نعبد وإياك نستعين**) ومن مقتضيات الدهشة الركوع، ومن مقتضيات الحيرة السجود، وهي عبارة عن الفناء المحض حسبما يقتضيه القرب المشار له في قوله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**».

وأما الزكاة فهي عبارة على صرف ما للعبد وما عليه لما خلق لأجله قال تعالى: (**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**) قيل: معناه ليعرفون.

لســان الــروح

في قوله تعالى: (**وما تقدموا لأنفسكم...**).

يقول: إن النفس إذا تصفت وتجوهرت بأن رجعت لأصلها بمقتضى قوله تعالى: (**ارجعي إلى ربك راضية**) تكون نائبة الحق في العالم، فمعاملتها معاملته، ومعاملة الحق معاملتها، ولهذا كان ما يقدم لها يكون لله ويوجد عنده، وما يقدم لله يكون لها، وأما قبل تصفيتها فيكون عملها مردودا عليها أي لا يوجد عند الله.

قـولـه تـعـالىٰ

وَقَالُواْ لَنْ يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً اَوْ نَصَارَىٰ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ، بَلَىٰ مَنَ اَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ

التـفـسـيـــر

أخذ تعالى الآن في سرد مقالة صدرت من أهل الكتاب بقصد تشويش ضعفاء الايمان، خالية من كل حجة وبرهان، وهو قوله حكاية عنهم (**وَقَالُواْ**) أي اليهود والنصارى (**لَنْ يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ**) على زعمهم الفاسد (**إِلَّا مَن كَانَ هُوداً**) أي يهوديا (**أَوْ نَصَارَىٰ**) أي نصرانيا، ولم يكن ذلك مصطلح عليه فيما بينهم، إنما كل

طائفة قالت ما تعتقده في نفسها، ووجه جمعه تعالى بين القولين اتحاد السخافة وإبطال الحجة في كل منهما، وإلا فلا يتسنى لليهودية أن تقول في النصرانية خيرا، ولا للنصرانية أن تقول في اليهودية خيرا، إلا إذا كان ذلك القول وقع منهما بقصد تشويش ضعفاء الإيمان، كأن يقول اليهودي للمؤمن لم تعلقت بالإسلام، وإننا نجد في كتاب الله أن لا يدخل الجنة إلا من كان يهوديا أو نصرانيا؟ فيمكن وقوع القول من هذا القبيل، لأن الكفر ملة واحدة فيتحد في مقابلة الإيمان. ثم قال تعالى: (**تِلْكَ**) أي المقالة وغيرها مما تقدم (**أَمَانِيُّهُمْ**) جمع أمنية أي تلك متمنياتهم التي يتمنونها، والظنون التي يعتمدونها أن لا يدخل الجنة غيرهم، قال تعالى ردا عليهم وإبطالا لدعواهم: (**قُلْ**) لهم يا محمد (**هَاتُوا**) بالمعنى احضروا (**بُرْهَانَكُمْ**) وحجتكم فيما ادعيتموه (**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**) في دعواكم من أن الجنة حبس عن الفريقين لا يدخلها سواهما (**بَلَىٰ**) فالأمر على خلاف ما ظننتموه، إنما يدخلها (**مَنَ اَسْلَمَ وَجْهَهُ**) أي توجهه (**لِلهِ**) على أي شريعة سماوية كان من قبل نسخها (**وَهُوَ مُحْسِنٌ**) جملة في معنى الحال، أي حالة كونه محسنا في إسلامه تابعا لنبيه في أمره ونهيه (**فَلَهُ أَجْرُهُ**) المترتب على حسن علمه ثابتا (**عِندَ رَبِّهِ**) يجده في ميزانه (**وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**) أي على من كانت هذه صفتهم يوم القيامة (**وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**) في ذلك اليوم على ما فاتهم، يوم يجزي المجرمين.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**وقالوا لن يدخل الجنة... إلى قوله: ولا هم يحزنون**) أربعة أحكام:

الأول: علمنا بأن كل أمة تعتقد من نفسها صلاحيتها لما عند الله من قوله: (**وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى**).

الثاني: علمنا بتوهين الأماني الباطلة من قوله: (**تلك أمانيهم**).

الثالث: علمنا بأن الدعوة لابد وأن تحتاج إلى بينة من قوله: (**قل هاتوا برهانكم**).

الرابع: علمنا بأن الإسلام المجرد غير كافٍ في نفي الخوف والحزن يوم القيامة إلا إذا ارتبط بمقام الإحسان من قوله: (**بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن**) حيث لم يقتصر على الإسلام بانفراده.

الاشارة

فالآية الكريمة تفيدنا أن فضل الله ليس بمقصور على فرقة دون الأخرى، بل هو متهيىء لكل من أسلم توجهه لله، بأن كانت وجهته خالية من الأغراض الدنياوية والأخراوية، وأما من كانت فيه أدنى شائبة رقية لأي شيء من الكائنات فلن يسلم توجهه لله عز وجل، لأنه إما أن يكون عبدا للدنيا وإما للآخرة، وهو على كل حال ليس بعبد لله، ولا يكون عبدا حقيقيا إلا إذا

أسلم وجهه لله وهو محسن، فيدخل حينئذ في زمرة العبيد الذين لا خوف عليهم ولا يحزنون، لأن الخوف وقف على من لم تسلم وجهته لله والحزن حاصل لمن فاته شيء من الله، وأهل درجة الإحسان ما فاتهم شيء يحزنون عليه.

قوله تعالىٰ

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، كَذَٰلِكَ قَالَ الذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ، فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

التفسير

أعلم أنه تعالى لما جمع اليهود والنصارى في الآية السابقة على قول واحد، بيّن هنا سفاهة الفريقين حتى لا يعتد بأقوالهم، فكأنه تعالى يقول: كما أنهم قالوا: (**لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى**) فكذلك (**وَقَالَتِ الْيَهُودُ**) أيضا (**لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَى شَيْءٍ**) من جهة دينهم (**وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ**) أيضا (**لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ**) من الدين يعتد به (**وَهُمْ**) أي اليهود والنصارى جميعا (**يَتْلُونَ الْكِتَابَ**) ويعرفون حكم الله فيه بأن اليهود كانت على شيء في حال متابعتهم لموسى، والنصارى كانت على شيء في حال متابعتهم لعيسى عليهما السلام، و(**كَذَلِكَ قَالَ الذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ**) وهم المجوس، والمشركون من

العرب (**مِثْلَ قَوْلِهِمْ**) أي مثل قول اليهود والنصارى، وهؤلاء يحق لهم لأنهم لا يعلمون، وسَوَّىٰ تعالى بينهم وبين الذين لا يعلمون في القول، تحقيرا لهم حيث لم يعملوا بعلمهم، وكان المراد منه تعالى أن تحترم كل طائفة أختها بالنظر لرسولها وكتابها، ولما لم يقع منهم أدنى احترام (**فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**) ووجه الخلاف فيما بينهم أن النصارى تقول: إن اليهود كذبوا روح الله وكلمته، ولم يكفهم ذلك حتى قتلوه على زعمهم الفاسد، واليهود تقول في المسيح ما لا يتيسر ذكره، وحتى لو كان نبيا لم يأمرنا الله أن ندع التوراة من أجله، لأن كل نبي مِمَّنْ سبقه جاء مقرراً لأحكامه، فكيف يأمرنا هو بترك الغالب منه، وهذا الخلاف، فالله يحكم فيه يوم القيامة.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**وقالت اليهود... إلى قوله: كانوا فيه يختلفون**) ثلاثة أحكام:

الأول: علمنا أن لا نقول فيمن لهم كتاب إنهم ليسوا على شيء ما داموا يعترفون بالصانع، ويعلمون ببعض الأحكام السماوية، فهم على شيء ما بالنظر للمشركين ونحوهم.

الثاني: علمنا بجواز وصفنا لهم بالعلم من قوله: (**كذلك قال الذين لا يعلمون**) فكأنه تعالى أثبت لهم شيئا من العلم.

الثالث: علمنا بأن الله يفصل فيما بينهم يوم القيامة.

الإشـــــارة

يلزمنا في الآية أن نحترم سكان العالم تماما إلى أن نصير نرى ما من شيء في الوجود إلا وهو على شيء، وإن كان في الشريعة مخالفاً فهو في الحقيقة طائع، لأن المخالفة من حيث الرضى طاعة من حيث الإرادة، ومن فاته هذا فاته أوفر نصيب من العلم، ولهذا استبعد تعالى قول اليهود في النصارى وقول النصارى في اليهود، وشبههم بالذين لا يعلمون.

قـولـه تـعـالىٰ

وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُّذْكَرَ فِيهَا اَسْمُهُ وَسَعىٰ فِي خَرَابِهَآ، أُوْلَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمُ أَنْ يَّدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ، لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ، وَلَهُمْ فِي الاَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ، وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ، إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ

التـفـسـيــــر

وبموجب ما استطرده تعالى من ذكر المشركين عقب أهل الكتاب بقوله: (**كذلك قال الذين لا يعلمون**) بيَّنَ الآن شيئا من سوء معاملتهم مع الله ورسوله تذكرة للنبي وأصحابه فقال: (**وَمَنْ أَظْلَمُ**) أي وأي أحد أظلم (**مِمَّن مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ**) من (**أَنْ يُّذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ**) تعالى بالذكر والتلاوة والفكر والصلاة وما هو من القربات، والمراد بالمساجد مسجد الحرام، وذكره جمعا للتفخيم وتوطئة في شمول الحكم، ليدخل كل مسجد (**وَسَعَى فِي**

خَرَابِهَا) أي تسبب فيما يؤديها إلى الخراب، وتعطيلها عن الذكر والصلاة هو نفس التخريب، والخطاب راجع لقريش، كما تسببوا في إخراج النبي والمؤمنين من مكة. أولا: وصدوهم عن المسجد الحرام. ثانيا: فمنعوا المسجد من الصلاة والأذكار وعمروه بالشرك وعبادة الأحجار (**أُوْلَٰئِكَ**) الذين سعوا في تعطيل المساجد (**مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ**) أي كان من الحق أن لا يدخلوا المساجد إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلا على أن يمنعوها من الذكر، ويسعوا في خرابها، وقد نجز الله وعده، فلا تجدن مشركا يدخل بيتا من بيوت الله إلا وهو يرتعد، وعليه نوع من الخزي المشار له بقوله: (**لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ**) أي ذل، وهوان بما حصل لهم من السبي والقتل (**وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**) بقدر جراءتهم على الله ورسوله.

وبمناسبة ذكر المنع مهما وقع للمؤمنين من أي مسجد كان، قال: (**وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ**) والشمال والجنوب فكل النواحي مسجد، قال ﷺ: « **جعلت إلي الأرض مسجدا وترابها طهورا** » وكل هذا بموجب قوله: (**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا**) وجوهكم في حال الصلاة (**فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ**) أي ذاته أو عظمته (**إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ**) أي مطلقا غير مقيد بجهة دون الأخرى، لأن التقييد من صفة الأجسام، والحق ليس بجسم. ولعلك تقول إن الوسع كذلك من صفة الأجسام، فأقول: الوسع الذي تعرفه أنت لا الوسع الذي يريده الله فهو أبعد من أن تتصوره، ومع أنه واسع كذلك (**عَلِيمٌ**) بكل معلوم موجود ومعدوم.

الاستنبـــــاط

يستخرج من قوله تعالى: (**ومن أظلم... إلى قوله: إن الله واسع عليم**) سبعة أحكام:

الأول: علمنا إن السعي في شيء مما يؤدي إلى تعطيل المساجد من أنواع العبادات يعد من الكفر.

الثاني: علمنا بجواز الإجتماع للذكر أو التلاوة أو لتدريس العلم في المساجد وإن ارتفعت الأصوات في غير أوقات الصلاة، ومن تسبب في المنع يخشى عليه الدخول في قوله تعالى: (**ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها إسمه**).

الثالث: علمنا بعدم إباحة المساجد للمشركين من جهة الدخول إباحة مطلقة.

الرابع: علمنا بأن الوجه المذكور في الآية وفي غيرها ليس المراد به الجارحة مهما أضيف إلى الله، وإلا استحالت كينونته في سائر الجهات في ءان واحد.

الخامس: علمنا بصلاحية سائر البقاع للسجود مهما طهرت بمقتضى قوله تعالى: (**ولله المشرق والمغرب**).

السادس: علمنا بعدم اشتراط القبلة في الصلاة مهما تعذر التوجه إليها بمقتضى قوله: (**فأينما تولوا فثم وجه الله**).

السابع: علمنا بأن الوسع المذكور في الآية ليس هو راجعا إلى العلم كما يقولون بدليل عطف العلم عليه، وإلا كان من قبيل التكرار.

الإشـــــــارة

في قوله تعالى: (**ومن اظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه**) تعتبر لا مسجد أولى بالاعتبار، ولا بيت أولى بالإضافة لله من قلب المؤمن، لكونه مسكن الرب، قال في حديث قدسي: «**لا يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن**» كما أنها أيضا لا تعتبر ظالما أظلم من الشيطان لكونه هو الذي منع القلوب من أن يذكر فيها اسمه تعالى، وسعى في خرابها، إلى أن عطل الكثير منها، فتجدها مظلمة خالية على عروشها، أولئك الشياطين الذين فعلوا ذلك الفعل، ما كان الحق لهم أن يدخلوها أو يحوموا حولها بشيء من وساوسهم إلا خائفين من أن يحرقهم نور الذكر، ويطمسهم سر المعرفة، فضلا على أن يمنعوها الذكر أو يسعوا في خرابها. وأما الإشارة في قوله: (**ولله المشرق والمغرب**) تعتبر البطون والظهور والغيبة والحضور، أو تقول التنزيه والتشبيه، وفي كلا الوجهين (**فأينما تولوا**) معاشر المتوجهين حواسهم في المحسوسات، أو عقولهم في المعقولات، أو أبصاركم في المبصرات، أو أسماعكم في المسموعات إلى ما لا نهاية في التلونات، (**فثم وجه الله**)، ووجهه وجوده، ومن اعتقد غير هذا فالصنم معبوده، قائل بالجهة ولم يشعر، وهو تعالى أبعد من أن يتقيد بالجهة (**إن الله واسع عليم**).

لســـان الــروح

نظره أدق ومعناه أرق، يرى اسم (**أينما**) في الآية ظرفا يفيد الحصر، وهو منسوخ بالظرف الثاني، وهي كلمة (**ثم**) لما وقعت

عليه، و (ثم) هذه منسوخة أيضا بوجه الله لما وقع عليها، (**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق**) فلم يبق إلا وجه الله، فلا أين ولا (ثَمَّ) (فأينما) تشجع السائر على الجد و (ثم) تحقق له الوجد، و (وجه الله) يقتضي منه الفقد (**كل شيء هالك إلا وجهه**) وبانطواء الفرع في أصله والمشير في المشار إليه، فعادت (ثم) نفسها وجه من وجوه الله، فهي مبتدأ خبرها وجه الله، وما يعرف الله إلا الله.

قوله تعالى

وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً، سُبْحَانَهُ، بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ، كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ، بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ، وَإِذَا قَضَىٓ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن، فَيَكُونُ، وَقَالَ الذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَاتِينَآ ءَايَةٌ، كَذَٰلِكَ قَالَ الذِينَ مِنْ قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ، قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

التفسير

وبمناسبة ما مر من ذكره تعالى اليهود والنصارى والمشركين بقبائحهم، أجملهم الآن في ذكر عقيدة يعتقدونها في الله، تعالى الله عن ذلك فقال: (**وَقَالُوا**) أي الأصناف المتقدمة (**اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً**) وبيان ذلك أن اليهود قالوا: عزير بن الله، وقالت النصارى: المسيح بن الله، وقالت المشركون: الملائكة بنات

الله، فبئس العقيدة جمعتهم. قال تعالى: (**سُبْحَانَهُ**) كلمة تنزيهٍ ينزه بها نفسه عن النقائص (**بَل**) لا ولد له ولا صاحبة كما تزعمون، إنما (**لَّهُ**) جميع (**مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) أرقاء ومماليك مسخرون (**كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ**) أي طائعون لله خاضعون، (**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) أي مبدعهما على غير مثال ينتحيه، ولا شبه يدرج عليه، وهذه حقيقة المنفرد بالاختراع المطلق (**وَإِذَا قَضىٰ**) أي أراد أن يوجد (**أَمْراً**) من الأمور الجائزة لا ما هو كاتخاذ الولد، لأن الإرادة لا تتعلق بالمحال، إنما تتعلق بممكن الإيجاد، وما كان من ذلك القبيل لا يتعصى وجوده باعتبار قدرته تعالى عن الإيجاد والاعدام. (**فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ**) أي لذلك المراد (**كُن**) على وفق الإرادة (**فَيَكُونُ**) وهذه الجملة جاء بها تعالى عبارة عن عدم استعصاء شيء من الأشياء باعتبار صفة التكوين، وإلا يلزم من ظاهر اللفظ كينونة الشيء قبل طرو الخلق عليه، ويلزم أيضا تكوين الشيء بنفسه، وليس على الحق إلا أن يقول له: (**كن فيكون**).

ولما أتى تعالى بما يقدح في توحيدهم بمناسبة قولهم: (**اتخذ الله ولداً**) أتى الآن بما يقدح في إيمانهم بالنبوءة فقال: (**وَقَالَ الذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ**) للنبي ﷺ بصفة التعنت والتعصي عن الانقياد (**لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ**) أي هلا يكلمنا الله مشافهة فيصدقك في نبوءتك، ويأمرنا بمتابعتك (**أَوْ تَاتِينَآ ءَايَةٌ**) واضحة الدلالة على صدقك حسبما أخبر عنهم تعالى، (**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب**) إلى قوله: (**قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا**) قال تعالى

استغرابا لقولهم (**كَذَلِكَ قَالَ الذِينَ مِن قَبْلِهِم**) من الأمم لأنبيائهم (**مِثْلَ قَوْلِهِمْ**) في التعنت (**تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ**) في القساوة **كما تشابهت الأقوال**، قال تعالى حَسْمًا لمادة المجادلة (**قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ**) لا لكم، بل (**لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**) أي يريدون اليقين لا التعنت كما أنتم، فهم على بينة من أمرهم، لا يسئلوها ثانيا فسبحان من صغر البعوضة وكبر الفيل، فكانت حجة الأنبياء أكبر عند أقوام، وأحقر عند الآخرين.

ثم اعلم أن تعاقب الآيات ليست بشرط في صحة الرسالة، لأن من لم تفده الآية الواحدة والثانية لم تفده الثالثة والرابعة، وثانيا أن خرق العوائد إذا تكرر صار عادة، وعلى هذا إن الزوائد من الآيات أولى بالحذف منه بالإتيان، فلهذا كان لا يعطيهم الله جميع ما يسئلونه من الآيات والله أعلم.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**وقالوا اتخذ الله ولدا... إلى قوله: لقوم يوقنون**) ستة أحكام:

الأول: علمنا بصحة إطلاق القول على الإعتقاد من قوله تعالى: (**وقالوا اتخذ الله ولدا**) أي اعتقدوا.

الثاني: وجوب اعتبار ما في الوجود طائعا لله مطاعا من قوله: (**كل له قانتون**).

الثالث: علمنا بأن كثرة تعاقب الآيات من الأنبياء ليست شرطا في صحة النبوءة من قوله: (**قد بينا الآيات**).

الـرابــع : علمنا بأن تكلف الآنبياء بترادف الآيات من الإساءة من قوله : (**كذلك قال الذين من قبلهم**) .

الخـامـس : علمنا بأن الآية ربما تقع موقعا من بعض القلوب ، ولن تقع ذلك الموقع من قلوب ءاخرين ، ليضل الله بها من يشاء ويهدي بها من يريد ، من قوله أيضا : (**قد بينا الآيات**) فإنها بانت للبعض دون البعض .

الـسادس : علمنا بأن الآية لا يتحققها من الولي أو النبي إلا صاحب اليقين من قوله : (**لقوم يوقنون**) .

الإشـــــــارة

في قوله : (**وقال الذين لا يعلمون**) ما معنى الكلام ومقتضاه لولا أن يكلمنا الله أو تاتينا ءاية ، والحالة أنه كان يكلمهم على لسان النبي بالتنزيل ، كما كان يكلم محمدا على لسان جبرائيل ، ومن قلة العلم وعدم الفهم طلبوا ما أغمرهم وجوده وأبهتهم شهوده ، وأي كلام أكرم من تنزيل الكتاب عليهم ، وأي آية أعظم من وجوده عليه السلام بين أظهرهم ، ولكن قال تعالى : (**قد بينا الآيات لقوم يوقنون**) .

قـولـه تـعـالىٰ

إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ، وَلاَ تَسْئَلْ عَنَ اَصْحَابِ الْجَحِيمِ ، وَلَن تَرْضىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلِ اِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدىٰ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ الذِي جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ

التفسير

وبمناسبة اغتمامه ﷺ من إعراض قومه واقتراحهم عليه واحتقارهم لما صدر على يديه، قال تعالى - تثبيتا لفؤاده وإعظاما لشأنه - : (**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ**) يا محمد إرسالا (**بِالْحَقِّ**) لا بالباطل كما يظنون، فلا تترك يقين ما عندك لظن ما عند الناس حالة كونك (**بَشِيراً**) لمن ءامن بك واتبعك في أمرك ونهيك، فهو مستحق للبشارة، فبشره برضوان الله وفضله، وكما أرسلناك بشيرا، فكذلك (**وَنَذِيراً**) بالعقوبة الإلـٰهية والنار الأبدية لمن كذب بما جئت به، ولم ينته عن غيه، وبموجب إذنه له في الإنذار لمن كذب وتولى، تشوف ﷺ لوجه العقوبة فكأنه يقول: فأي عقوبة هيئت لهم نتوعدهم بها؟ فقال له تعالى تعظيما لوجه الوعيد: (**وَلاَ تَسْئَلْ عَنْ اَصْحَابِ الْجَحِيمِ**) فالأمر أفضع والعقاب أشنع مما تتصوره، وقيل إنه تشوف لوجه الحكمة في تعذيب العصاة بالنار والحالة أنه قادر على هدايتهم، فنهاه تعالى أن يسئل عن ذلك بقوله: (**ولا تسئل عن أصحاب الجحيم**) إنما أنت نذير، والله أعلم.

وبموجب ما كان يسعى فيه ﷺ من ترضية أهل الكتاب ومقابلته لهم بكل داع يئول أمره للألفة والوفاق، عسى يحضى بانقيادهم وميلهم ولو شيئا ما، فأتاه تعالى بما يفيد الإياس من ذلك فقال: (**وَلَن تَرْضىٰ عَنكَ الْيَهُودُ**) أبدا كيفما صنعت معهم (**وَلاَ النَّصَارَىٰ**) أيضا (**حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**) أي دينهم، فهذا هو مطلوبهم منك، وظنهم القوي فيك، ألا ترى هذا مما يحسن وقوعه منك، ويرجون ذلك لظنهم أنهم على هدى، فلهذا

يدعونك إليه (**قُلِ**) لهم أيها النبي (**إِنَّ هُدَى اللهِ**) الذي شرعه إلينا الآن ونزل به القرآن (**هُوَ الْهُدىٰ**) الذي يرضاه منا الآن ويجب على الجميع الاهتداء به، لا ما تدعوننا إليه، ومع علمه سبحانه وتعالى من أنه أبعد من أن يتطرقه مثل ذلك، هدده أبلغ تهديد وعلق عليه أعظم وعيد فقال: (**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم**) أي أغراضهم الفاسدة في شيء ما، أو ملت لحديثهم ولو أدنى ميل (**بَعْدَ الذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**) الذي هو القرآن الذي فيه هدى وتفصيلا لكل شيء، فإننا وضحنا لك المحجة وعرفناك فيه أنك على الحق المبين، ولئن اتبعت أهواءهم بعد هذا الإيضاح (**مَالَكَ مِنَ**) جهة (**اللهِ مِنْ وَلِيٍّ**) يتولى أمرك ويحفظ شئونك (**وَلاَ نَصِيرٍ**) ينصرك بعد وقوع الاتباع منك إن صُوِّرَ، وحاشا لله أن يتطرقه أدنى ميل، إنما جاءه تعالى بذلك إغراء وتهييجا وتمكينا في منصب الدعوة إلى الله عز وجل.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**إنا أرسلناك... إلى قوله: ولا نصير**) سبعة أحكام:

الأول: علمنا بأن الدعوة إلى الله تكون بالبشارة، حتى إذا لم تتمكن من القلوب يتحتم بعدها الإنذار.

الثاني: علمنا بمنع السؤال عن وجه حكمته تعالى في تعذيب العاصي مع قدرته على هدايته من قوله: (**ولا تسئل عن أصحاب الجحيم**).

الثالث: علمنا باستحالة اكتساب مرضاة الكافر إلا بالدخول في

مذهبه من قوله: (**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**).

الرابع: علمنا بوجوب قرع سمع من كانت له أمنية فينا من السفهاء بما يقطع إياسه من قوله: (**قل إن هدى الله هو الهدى**).

الخامس: علمنا بأن المداهنة في دين الله يترتب عليها أشد الوعيد من أي أحد صدرت من قوله: (**ولئن اتبعت أهواءهم ..**)

السادس: علمنا بجواز التَّوَعُّد ولو لمن لم يتمكن ذنبه بقصد الفائدة من توعده تعالى لنبيه.

السابع: علمنا باشتداد الوعيد من بعد حصول العلم بالشيء في كونه ممنوعا أكثر منه قبله من قوله: (**بعد الذي جاءك من العلم**).

الإشـــــارة

تومي إلى منصب الدعوة إلى الله مطلقا أن يسلك مسلكا وسطًا بين ترغيب وترهيب دون إفراط وتفريط، بشيرا أو نذيرا، غير أنه يقدم جانب البشارة على الإنذار لتقديمها، قال ﷺ: « **بشروا ولا تنفروا، يسروا ولا تعسروا** » وكما ينبغي له أن يسلك مسلكا بين ترغيب وترهيب، ينتبذ مركزا بين تشريع وتحقيق، وجمع وتفريق، بأن تكون الحقيقة في باطنه مشهودة، والشريعة على ظاهره موجودة، وبهذه المزية يتنصل من الفرقتين الجبرية والقدرية أو تقول الظاهرية والباطنية، وظن الفرقتين وطيد، فكل منهما تتوسم فيه الميلان نحوها، فتطمع في استمالته بموجب ما تجد فيه من دعواها، فالجبرية تعتمد أقواله، والقدرية تعتمد أفعاله، وبمناسبة ما له من رسوخ القدم

لا يتأخر ولا يتقدم، غير أنه لا يمكنه أن يرضيهما تمام الرضى حتى يتبع أهواءهم، وذلك لا يقع، نعم يسترق من الفرقتين لمقامه لكونه على هدى. نعم إنه يحذر أن يتبع شيئا من أهوائهم بما يتهدده من قوله: (**ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير**).

قـولـه تـعـالىٰ

الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَآئِكَ يُومِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَّكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَآئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ، يَا بَنِيَ إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ التِيَ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَاتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ

التـفـسـيـــــر

وبموجب تهديده تعالى لنبيه وتحذيره له من أن يتبع ولو شيئا من أهواء أهل الكتاب، فاستدركه بآية لِيلا يقول: ما وجه التحذير، وقد مدحهم القرآن غير ما مرة ومدحهم كتابهم، فنص تعالى الآن على الممدوحين فيما سبق فقال: (**الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ**) هم الذين (**يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ**) أي يعطونه حق القراءة والتمعن والتدبر في دلائله وبراهينه، والوقوف مع أمره ونهيه، فهؤلاء هم الذين لهم الإنتساب إليه (**أُوْلَآئِكَ يُومِنُونَ بِهِ**) الإيمان بدليل إيمانهم بالنبي، ودخولهم في حزبه (**وَمَنْ يَّكْفُرْ بِهِ**)

أو بشيء منه كالمجرمين والمبدلين ما فيه دلالة على صفة النبي (**فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**) حظهم بما باعوه من آخرتهم بدينهم، وهذا إذا جعلنا لفظ الكتاب في الآية خاصا بالتوراة، وأما إذا جعلناه عاما فيكون دخول القرآن من باب أولى، ولفظ الآية صالح للشمول.

ثم إنه من رأفته تعالى بعباده، فبعدما قطع بينه وبين الإسرائيليين حبل المواصلة تماما، وذكرهم بكل مذمة وتوهين، أخذ يستعطفهم فقال: (**يَا بَنِيَ إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا**) وتذكروا (**نِعْمَتِيَ**) الفائضة (**الَّتِي أَنْعَمْتُ**) بها (**عَلَيْكُمْ**) بإدراككم زمن النبي الذي تجدون نعته عندكم في التوراة، كما أنعمت على آبائكم من قبل، فجعلت فيهم النبوءة والملك (**وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**) بهذه النعم، فإنها لم تحصل لغيرهم من القبائل على هذه الوجهة، وقد تقدم وجه أفضلية الإسرائيليين فيما سبق، وأنها لا تستلزم مفضولية العرب، وبعدما استعطفهم تعالى من الترغيب جريا على عادته ورحمة بعباده، هددهم بما فيه ترهيب فقال: (**وَاتَّقُوا**) أي اخشوا (**يَوْمًا**) من نعته وصفاته (**لَّا تَجْزِي**) أي لا تغني فيه (**نَفْسٌ**) كيفما كانت بأن تخفف (**عَن نَّفْسٍ شَيْئًا**) من العذاب (**وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ**) أو بدل أو فداء (**وَلَا تَنفَعُهَا**) أي النفس الكافرة (**شَفَاعَةٌ**) من الشفعاء، وأما المؤمنة قد تلحقها الشفاعة إن شاء الله (**وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ**) أي من حقت عليهم العقوبة، فلا يمنعهم مانع من عذاب الله.

الاستنبـــاط

يستخرج من قوله تعالى: (**الذين ءاتيناهم الكتاب... إلى قوله: ولا هم ينصرون**) سبعة أحكام:

الأول: استفدنا مدح تلاوة الكتاب العزيز من قوله تعالى: (**يتلونه حق تلاوته**).

الثاني: استفدنا لزوم إعطاء التلاوة مستحقها من جهة المخارج والترتيل بقدر الإمكان.

الثالث: استفدنا أن من تلى الكتاب بتلك الصفة بقصد الرغبة والعمل بما فيه يحق له أن يتصف بالإيمان من قوله: (**أولائك يؤمنون به**).

الرابع: استفدنا أن من جحد شيئا من أحكامه أو أضاف له من التخليط بقصد أن لا يظهر الحق يعد كافرا به، لأن اليهود لم يكفروا بجميع التوراة، إنما حرفوا ما فيه دلالة على نعوت النبى ﷺ.

الخامس: استفدنا أن تحريك الوداد القديم يستحسن من الفاضل لا من المفضول، من استلفاته تعالى الخطاب لبني إسرائيل ثانيا بصفة المدح.

السادس: استفدنا بأن النصح يتعين تكراره من قوله: (**واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا**) ما سبق من النصح.

السابع: استفدنا أن الفداء أو البدل أو الشفاعة كل ذلك يتعذر يوم القيامة إلا أن يشاء الله تعالى فضلا ورحمة منه بالمؤمنين على ما يقتضيه مقام الترهيب.

الإشـــــــارة

في قوله تعالى : (الذين ءاتينهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) ترى حق التلاوة لا يستوفي في إعطاء اللفظ مستحقه ، لأنه نفس التلاوة ، إنما ترى حق التلاوة الوقوف مع كل لفظ بانفراده ، والتمعن في معناه ودلالته ، لأن الالفاظ قوالب المعاني ، والاسرار مظروفة المباني ، فلو تتبعنا أي لفظ من ألفاظ الكتاب لترقينا على الحجاب ، لأن القرءان ما نزل من السماء إلا ليعرج بنا إليها ، فجميع آيات القرءان معارج ومدارج ، ولهذا ورد في الخبر « يصعد قارىء القرءان بكل ءاية درجة » فهذا هو الذي أعطاه حق التلاوة ، وأما من لم يجد نفسه في صعود ، ما أعطاه حق التلاوة .

قـولـه تـعـالىٰ

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ، قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِيَ الظَّالِمِينَ ، وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ، وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ، وَبِيسَ الْمَصِيرُ ، وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا

تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا، وَتُبْ عَلَيْنَآ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمُ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

التفسير

وبعد ما أنهى تعالى فصل المحاورة بينه وبين بني إسرائيل، وفيه وعد وأوعد ورغب وهدد، ختم الفصل الآن بما بدأه وهو قوله: (**يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم**) والحكمة في ذلك حفظا للمودة وتعليما لنا كيفية اختتام المحاورة، ولما كان الخلاف بين المدعوين على لسان النبي ﷺ في أقصى غايته من الإطناب، وهم المشركون من العرب، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى بحيث لا دعوة تلائمهم ولا شرعة تطابقهم، دعاهم الآن بسرد قصة فيها ما يجمع بين المتباينين، وهي قصة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – لأن العرب تقول نحن أبناؤه وخدام حرمه، واليهود والنصارى دعواهما فيه أطول وأعرض من ذلك، فدعاهم تعالى بملة ابراهيم – عليه السلام – عسى تلائمهم بما يجدونه من المطابقة بين ملته وبين ما جاء به محمد ﷺ وهو أبلغ داع في الإنقياد مع الانصاف، وفي سرد القصة من تربيته لنبيه – عليه السلام – بمناسبة ما يراه من وجوب إعطاء حق الإمامة على الإمام، كما أعطاه إبراهيم

- عليه السلام - قال تعالى: (**وَإِذِ ابْتَلَىٰ**) أي اذكر لهم يا محمد وتذكر حال ابتلاء (**إِبْرَاهِيمَ**) عليه السلام (**رَبُّهُ**) سبحانه وتعالى لما اختبره (**بِكَلِمَاتٍ**) ليباهي به الملائكة، والكلمات هي عبارة عن جميع ما امتحنه به من ذبح ولده، والهجرة وإلقائه في النار، وغير ذلك من الأوامر والنواهي (**فَأَتَمَّهُنَّ**) أي جاء بهن على وجه التمام من غير توان منه عليه الصلاة والسلام. وبموجب ما ظهر من حزمه والوقوف مع أمر الله ونهيه (**قَالَ**) له تعالى تعظيما لجنابه وجزاء على فعله (**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**) يقتدون بك في توجهك إلى الله، وفي صدقك معه، وبمناسبة ما فتحه الله عليه من باب العطاء بجعله للناس إماما، أراد - عليه السلام - أن يغتنم فرصة بأن تكون الإمامة كذلك في ذريته (**قَالَ**) إبراهيم - عليه السلام - يا رب (**وَمِن ذُرِّيَّتِي**) كذلك اجعل أئمة يهدون إلى الخير وبه يعدلون، فأجاب الله دعاءه فيمن سبقت لهم السعادة من المؤمنين، ونص تعالى عمن سواهم (**قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**) منهم وإن كانوا من ذريتك. ثم أخذ تعالى في ذكر منة عظيمة تخص أهل الحرم وتميزهم عمن سواهم فقال (**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ**) الحرم أي الكعبة (**مَثَابَةً**) أي مرجعا ومأوى (**لِّلنَّاسِ**) يأوون إليها من كل ناحية (**وَأَمْنًا**) أي مأمنا لهم من الخوف، حتى كان الرجل إذا وجد قاتل أبيه بالحرم الشريف لا يمسه بسوء، وهكذا سائر القبائل تحترم سكان البيت (**وَاتَّخِذُوا**) أي المؤمنين من سكان الحرم (**مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ**) - عليه السلام - (**مُصَلًّى**) أي محلا للصلاة، ويكون بصفة المدح لمتخذيه، وقرىء بصيغة الأمر فحمله بعضهم على ركعتي الطواف، ولهذا قال فيهما الشافعي

بالوجوب، ثم اختلفوا في تعيين المقام هل هو الحرم، أو البيت أو الحجر الذي كان سيدنا إبراهيم قائما عليه في حال بنائه، أو في حال آذانه الناس بالحج الذي عليه أثر أقدامه، المعروف الآن بمقام إبراهيم، وهو أصح الأقاويل لما ورد أن النبي ﷺ صلى خلفه ركعتين، ثم قرأ (**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**) فاستبان المقصود من المقام بهذا الحديث والله أعلم.

ثم أتى تعالى بما أوصىٰ به إبراهيم وابنه في شأن البيت الحرام فقال: (**وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ**) أي أمرناهم أمرا مؤكدا (**أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ**) من كل رجس وبالأخص مما هو كالأصنام، ويكون ذلك التطهير من أجل ومراعاة أيضا (**لِلطَّآئِفِينَ**) من حوله بقصد التقرب (**وَالْعَاكِفِينَ**) أي المقيمين المنقطعين فيه لله عز وجل (**وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**) وهم المصلون الواردون إليه، الركوع والسجود، والمراد بتطهير البيت تطهير جميع المساجد وما حوله من سائر الأرجاس، وما هو من قبيل اللهو، ليتفرغ للطائفين والعاكفين والركع السجود، ويدخل في ذلك تطهير ما بين الصفا والمروة لأنهما من شعائر الله أيضا.

ثم أخذ تعالى في بيان دعاء سيدنا إبراهيم لأهل الحرم الشريف فقال: (**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا**) البلد يعني مكة (**بَلَدًا ءَامِنًا**) أي ذا أمن لمن سكنه لأنه كان قفراً مأوى الوحوش، فاستجاب الله دعاءه حتى حرم ما أباحه في غيره من قتل الصيد وقطع الأشجار وغير ذلك، فصار ببركة دعائه أمنا للإنسان وغيره (**وَارْزُقَ اَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ**) زيادة على ما به قوام البدن، فقد سأل لسكان الحرم السعة في المعاش، والرفاهية

بوصول ما كالفواكه إليهم، لأن الأرض كانت غير مستعدة لمثل ذلك، فاستجاب الله دعاءه، فلا ثمرة أو فاكهة إلا وصلت أهل الحرم.

ثم أتى تعالى بما يشعرنا بسرعة ميله – عليه السلام – لما فيه مرضاة الله وهو قوله: (**مَنَ ءَامَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**) حيث قيد السؤال من سكان الحرم بالمؤمنين دون من سواهم وإن كانوا من ذريته وذلك بموجب قوله تعالى: (**لا ينال عهدي الظالمين**) فترك هنا مراده – عليه السلام – لمراد الله فقيد السؤال بغير الظالمين، فصح تنصله من كل كافر كيفما كان، ولهذا (**قَالَ**) تعالى له إجابة لسؤاله على ما يظهر فيمن ءامن منهم (**وَمَن كَفَرَ**) كذلك (**فَأُمَتِعُهُ**) في الدنيا بما نبسط عليه من النعم الحسية والشهوات النفسية، غير أن المتاع يكون (**قَلِيلاً**) بإضافته لمتاع الآخرة (**ثُمَّ أَضْطَرُّهُ**) أي ألجؤه في الآخرة (**إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ**) حتى لا تكون له مندوحة من ذلك (**وَبِيسَ الْمَصِيرُ**) الذي يصير إليه من كفر بالله ورسوله.

وبمناسبة ذكر البيت الحرام والأمر بتطهيره نص هنا على بنائه فقال: (**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ**) جمع قاعدة والمراد الأساس (**مِنَ الْبَيْتِ**) أي رفعه من الانخفاض. قوله تعالى: (**وَإِسْمَاعِيلُ**) معطوف على إبراهيم أي معينا له على البناء (**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**) وهذا على إرادة القول أي يقولان في حال البناء (**ربنا...**) إلى آخره. (**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ**) أي مستسلمين (**لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ**) وتخصيص الذرية بالسؤال، لأن في صلاحهم صلاح بقية الأمة، لكونهم أئمة، وإذا صلحت الأئمة صلحت الأمة، وجاء بمن

للتبعيض في قوله: (**ومن ذريتنا**) اعتبارا منهما عليهما السلام لقوله فيما تقدم (**لا ينال عهدي الظالمين**) (**وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا**) أي بَصِّرْنَا وَعَرِّفْنَا ما أوْجَبْته علينا لأجل أداء فريضة الحج (**وَتُبْ عَلَيْنَا**) إن وقع منا تقصير في معاملتك (**إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ**) أي الموصوف بقبول التوبة مهما وقعت بشروطها (**الرَّحِيمُ**) بالمنكسرة قلوبهم، وهذا الإسم بانفراده يتضمن قبول التوبة، وإن لم تقع بشروطها، لأنه أرحم بالعبد من نفسه لولا مقتضيات بقية الأسماء (**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ**) اي في سكان الحرم (**رَسُولاً مِّنْهُمْ**) أي من جنسهم، فاستجاب الله دعاء الخليل وابنه اسماعيل، فبعث فيهم محمدا قال ﷺ: «**أنا دعوة ابراهيم**» وكان آخر من بشر به عيسى بن مريم. قوله: (**يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ**) الواضحة الدالة على وحدانيتك (**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ**) وهو القرءان (**وَالْحِكْمَةَ**) وهي عبارة عما يتوصل به الإنسان إلى استخراج ما خفي من أسرار الكتاب، ثم يترقى إلى أن يصل إلى دائرة النبوءة، ولولا انسداد الباب لهم بها قوله: (**وَيُزَكِّيهِمُ**) أي يسعى في تطهير أنفسهم وترقية أفكارهم إلى أوج الكمالات، فكان الأمر كذلك والحمد لله، فبتزكيته ﷺ لقومه اتصلوا بالملأ الأعلى من جهة العلويات، ووضعوا أقدامهم على الملوك من جهة السفليات، والدعوة تستلزمهم ذلك، بدليل اختتام فصل السؤال بقولهما (**إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**) فدل ذلك على أنهما كانا يريدان من الله لذريتهما العزة والحكمة، والواقع أعدل شاهد، فلا عزة إلا في الإسلام ظهرت، ولا حكمة إلا منه انتشرت.

الاستنباط

يستخرج من قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - من قوله: **(وإذ ابتلىٰ إبراهيم ربه . . . إلى قوله: إنك أنت العزيز الحكيم)** ستة عشر حكما:

الأول: علمنا بأن الابتلاء من شعائر المقربين من ابتلائه - عليه السلام -.

الثاني: علمنا بأن الصبر على البلوى مهر الإمامة لمجيئها بعد حصول الامتحان.

الثالث: علمنا بجواز سعي المرشد لأبنائه، وتخصيصهم بالإمامة من دون أتباعه مهما كانوا على استعداد من دعاء إبراهيم لذريته بالإمامة.

الرابع: علمنا بأن النسب بانفراده غير كاف في تحصيل المنازل، وإن مع دعوات الأجداد من قوله: **(لا ينال عهدي الظالمين)**.

الخامس: علمنا بأن الحكمة في وضع بيت الله الحرام لاجتماع المؤمنين إليه لأجل تحقيق الرابطة، وبت الأمن فيما بينهم من قوله: **(مثابة للناس وأمنا)**.

السادس: علمنا بمطلوبية احترام أثر السلف الصالح وضرائحهم، من مدحه لمن اتخذ من مقام إبراهيم مصلى.

السابع: علمنا بأن احترام الضرائح ليس هو ما تفعله العموم

الآن في ضرائح الأولياء، إنما هو عبارة عما يرجع لأفعال القربات إن حصلت مصادفةً، لأن المحترمين لمقام إبراهيم اتخذوه مصلى لا لهواً.

الثامن: علمنا بأن تطهير عموم المساجد من الواجبات، لأنها بيوت الله من قوله تعالى: (**أن طهرا بيتي**).

التاسع: علمنا بأن أعظم القربات للزائر الطواف به، ثم الاعتكاف فيه، ثم الصلاة من حوله، على ما يقتضيه سر الترتيب.

العاشر: علمنا بمطلوبية دعاء الإنسان لأهل بلده بالسعة في العيش ودوام العافية، مهما كان يرجى صلاحهم، من دعاء سيدنا إبراهيم لأهل الحرم.

الحادي عشر: علمنا بمطلوبية تقييد الدعاء بالمؤمنين من قوله: (**من آمن منهم**) وهذا إذا كان الدعاء فيما يتعلق بسعة العيش ونحو ذلك، وأما إذا كان راجعا لطلب الهداية فالشمول أولى وأحب.

الثاني عشر: استفدنا مما يحتمله اللفظ أن إبراهيم ليس هو أول من بني الكعبة، إنما هو رافع القواعد، أي زائد على ما هو الأساس السابق والله أعلم.

الثالث عشر: علمنا بأن البناء كان موكلا لسيدنا إبراهيم، وإسماعيل معينا له، بخلاف الأمر بتطهير البيت فكان موكلا لهما معا.

الرابع عشر: علمنا بأن الأنبياء - عليهم صلوات الله - كانوا

لا يتحاشون عن الأعمال الشاقة كالبناء ونحوه، وأن ذلك لا يؤثر نقصا في منصبهم من بناء إبراهيم البيت، وكذلك بناء النبي مسجده بالمدينة.

الخامس عشر: علمنا بمطلوبية المرشد الحي بين القوم من قوله: (**وابعث فيهم رسولا**) حيث لم يكتف في هدايتهم بكونهم من ذريته وسكان حرمه.

السادس عشر: علمنا بوظيفة المرشد مع أتباعه أن يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، والمعنى أنه يسعى في ترقيتهم إلى أوج الكمالات وإلا ليس بمرشد.

الإشـــــــارة

في قوله تعالى: (**وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات**) تحمل الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم - عليه السلام - على ما أظهَرَهُ الله على لسانه من الحقائق التي تباين الفهم العام، كقوله في الكوكب: (**هذا رب**... إلى آخره) فكان ذلك امتحانا من الحق له، وتفحصا لمعرفته في الجزئيات، فلما أتمهنّ جعله تعالى للناس إماما، ولولا ذلك لما صحت إمامته، لأن المعرفة في مجرد التنزيه ليست كافلة بالغاية في المقام الخاص، ألا ترى لما قال: (**ومن ذريتي**) قال له تعالى: (**لا ينال عهدي الظالمين**) فمن لم ير الله قبل كل شيء، وبعد كل شيء، وفي كل شيء، ومع كل شيء، حتى يبلغ أن يراه ولا شيء، فهو قائل بالجهة ولم يشعر، وهو من الظلم في أقصى غايته بالنظر للتوحيد المحض، جعلنا الله من أهله.

وأما الإشارة في قوله: (**وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي**) المراد بالبيت المختص بالإضافة لله عز وجل، هو القلب الخالص لله المشار له في الحديث (**لا يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن**) وأما التطهير فهو على قسمين: فتطهير العموم له من الكبر والحسد والعجب والرياء وما أشبه ذلك، وتطهير الخصوص له مما سوى الله في الجملة، وفي ذلك يقول قائلهم:

ولو خطرت لي في سواك إرادة ☆ على خاطري سهوا قضيت بردتي

وإذا حصل التطهير على هذا الوجه حفت به الملائكة المشار لهم بالطائفين، وتمكنت منه الواردات الإلهية المشار لهم بالعاكفين والركع السجود.

ثم اعلم، إن الوارد الإلهي هو الرسول الذي يرسله الله تعالى للعبد من نفسه المشار له بقوله: (**وابعث فيهم رسولا منهم**) فإتيانه بهذا العبارة ليشمل رسول النفس ورسول الجنس، وأما لو أراد رسول الجنس بالخصوص لقال: وابعث لهم رسولا من جنسهم، أو ما هو من هذا القبيل، ولولا رسول النفس لما أثر رسول الجنس، ولهذا يقال: «القلب الذي لم يكن فيه زاجر فهو خراب».

إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ، وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي، قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ، لَهَا مَا كَسَبَتْ، وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ، وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ

التفسير

وبعد ما قرر تعالى البعض من سيرة سيدنا إبراهيم، وأوضح كيفية صدقه ومعاملته مع الله، فقال بصيغة الإنكار والاستبعاد: (**وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ**) أي من ذا الذي يعرض ويدبر عن ملة الإسلام (**إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ**) أي صير نفسه ذا سفاهة برغبته عما لا يرغب عنه أحد من العقلاء (**وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ**) أي اخترناه (**فِي الدُّنْيا**) للإمامة والنبوءة (**وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**) (في مقعد صدق عند ملك مقتدر).

ثم أخذ تعالى يذكر ما فيه دلالة على سرعة امتثاله لأمر الله عز وجل وذلك (**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ**) أي اتخذ الإسلام دينا لك، ولمن تبعك من قومك، (**قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**) تشبيها في سرعة الامتثال (**وَأَوْصَىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ**) أي بملة الإسلام (**بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ**) كذلك أوصى بها بنيه (**يَا بَنِيَّ**) على إضمار القول متعلق بأوصى، واختلفوا في عدد أولاد سيدنا إبراهيم، وأما أولاد سيدنا يعقوب فإثنا عشر، وفي الوصية يقولان لأبنائهما: (**إِنَّ الله**

اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ) أي اختار لكم الإسلام الذي هو صفوة الأديان. (**فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**) والمراد بذلك الأمر بالثبات لهم ولأتباعهم على الإسلام، ولما نزلت هاته الآية قالت اليهود: إن يعقوب لما حضره الموت أوصى بنيه باليهودية، قال تعالى ردا لمقالتهم وإبطالا دعواهم: (**أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ**) حتى تصح شهادتكم عليه كلا، إنما ذلك افتراء منكم على الأنبياء، بل الله شاهد عليه (**إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ**) وهم مجتمعون لديه على سبيل التثبت في الدين والزيادة في اليقين: (**مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي**) إذا أنا مت، فهل تثبتون على الإسلام والإخلاص في التوحيد كما أنتم الآن، أم غير ذلك (**قَالُوا**) أي أبناؤه جوابا لسؤاله (**نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ**) والجد سيدنا يعقوب (**وَإِسْمَاعِيلَ**) عم له، وإدخال العم في الآباء يجوز في لغة العرب (**وَإِسْحَاقَ**) وهو أب سيدنا يعقوب (**إِلَـٰهًا وَاحِدًا**) وهذا هو الإخلاص في التوحيد (**وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**) زيادة في التمكن من جهة الاستسلام لأفعاله، والوقوف مع أحكامه، وهذا هو الدين الذي أوصى به يعقوب ومات عليه، ولكن (**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ**) أي مضت في حال سبيلها (**لَهَا مَا كَسَبَتْ**) من الأعمال تجزى به (**وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ**) من الأعمال أيضا (**وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) كما لا يسئلون عما تعملون، والمعنى أن الحبل بينكم منقطع، إلا إذا وصلتموه بالعمل الصالح على وفق ما جاء به الإسلام، وأتى بهذا الجملة تخييبا للمخاطبين، وقطعا لأطماعهم الفارغة، لظنهم أنهم ينتفعون بعمل أسلافهم، ومن هذا القبيل قوله ﷺ: «**يا بني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم**».

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**ومن يرغب عن ملة إبراهيم...** إلى قوله: **ولا تسئلون عما كانوا يعملون**) ثمانية أحكام:

الأول: حكمنا بالسفاهة على من لم يتدين بالإسلام وإن بلغ من العقل المعاشي غايته، يؤخذ من قوله: (**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه**).

الثاني: علمنا أن الإسلام هو الدين الواحد الذي دعت إليه عموم الأنبياء – عليهم سلام الله –، وما تغير إلا بسبب ما وضع عليه من الألقاب كاليهودي والنصراني وغير ذلك، ويؤخذ من قوله: (**قال أسلمت لرب العالمين**).

الثالث: استفدنا لزوم الوصية من الأب عند الوفاة لأبنائه فيما يعود عليهم بالثبات والصلابة في الدين، يؤخذ من قوله: (**وأوصى بها إبراهيم**).

الرابع: علمنا بمطلوبية امتحان الأب أبناءه من جهة عقيدتهم في التوحيد، يؤخذ من قول يعقوب لبنيه (**ما تعبدون من بعدي**).

الخامس: علمنا بجواز إطلاق (**ما**) على العاقل وغيره من قوله: (**ما تعبدون**).

السادس: علمنا بأن الجواب البسيط في التوحيد كاف من قوله: (**نعبد إلاهك**) حيث لم يقولوا إلاهك الذي دل عليه العالم، أو الذي أثبت العقل وجوده، أو ما هو من ذلك القبيل، وإن كان

لم تقم به حجة المقلد، ففيه ما ينفس كربته على كل حال، حيث لم يذكروا في جوابهم إلا صفة الوحدانية، وفي ظني أنهم أرادوا بذلك الجواب الاختصار، فكأنهم يقولون نحن على العقيدة الخاصة التي أنت عليها وآباؤك.

السابع: علمنا بجواز إدخال لفظة الأب على العم لغة، من ذكرهم إسماعيل في الآباء مع أنه عم ليعقوب.

الثامن: علمنا بأن عمل الآباء لا تنتفع به الأبناء، وعمل الأبناء لا تنتفع به الآباء إلا أن يشاء الله، وبالأخص مع من لم تربط بينهما رابطة الدين، وذلك من قوله: **(لها ما كسبت ولكم ما كسبتم).**

الإشـــــارة

ترى الملة الإبراهيمية عبارة عما كان عليه هو من جهة سريرته مع الله وإخوانه من الأنبياء والمرسلين، وخاصة الخاصة من الموحدين، لأن الإسلام عبارة عن الاستسلام، وهو يختلف باختلاف المتصف به، فعند العامة عبارة عن انقياد الجوارح القولية والفعلية لله عز وجل، وعند الخاصة هو عبارة عن الاستسلام في الباطن لله عز وجل، زيادة على الانقياد في الظاهر، وعند خاصة الخاصة هو عبارة عن محو العبد من لوحة الوجود بين يدي موجده، وهذا هو غاية الاستسلام، وصاحب هذا المقام يكون الله هو الفاعل فيه **(كنت سمعه وبصره)** فلهذا تخفف عليه التكاليف لكونه محمولا، ويصح أن يقول: أسلمت، كما قال إبراهيم أسلمت لرب العالمين، وأما المنازع لله في كل وقت وحين لن يصح إسلامه لكونه خصما مبينا.

ثم اعلم أن أهل الحق الناشرين لواء الصدق لزموا في دعوة الخلق لذلك المقام، ولكن أهل الإجابة قليل، (**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه**) ولكن - الحمد لله -، فمن أعرض عن المقام الخاص، فهو آخذ بحظه من العام والكل إسلام.

قوله تعالىٰ

وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً اَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنْزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالاَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ النَّبِيئُونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنْتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدُواْ، وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، صِبْغَةَ اللهِ، وَمَنَ اَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً، وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ، قُلَ اَتُحَآجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمُ أَعْمَالُكُمْ، وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ، أَمْ يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالاَسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ، قُلْ ءَآنْتُمُ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ، وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَا تَعْمَلُونَ، تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ، لَهَا مَا كَسَبَتْ، وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ، وَلاَ تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ

التفسيـــــر

(**وَقَالُوا**) أي أهل الكتاب من اليهود والنصارى للمؤمنين بقصد التشويش في صورة النصح: (**كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا**) وليس هذا قول الطائفتين معا، بل هو موزع بينهما، فكل طائفة أشارت لمعتقدها، فقال تعالى لنبيه: (**قُلْ**) لهم يا محمد إني لا أتبع يهودية ولا نصرانية (**بَلْ**) اتبع (**مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**) ولما تنصل ﷺ من اليهودية والنصرانية معا، أتاه تعالى برد ما ربما تتوهمه قريش من أنه رجع لملتها، لأنها تظن انحيازها لإبراهيم - عليه السلام - بمناسبة النسب ومعاشرة الحرم فقال: (**وَمَا كَانَ**) أي إبراهيم (**مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) ويحتمل أن يكون في ذلك أيضا تهمة لليهود والنصارى بالإشراك لما صدر منهم في عيسى وعزير - عليهما السلام - من القول بِالْبُنُوَّةِ لله، لأنه نوع من الإشراك، ولما نص تعالى لنبيه عما هو الدين القويم، استلفت الخطاب لأتباعه فقال: (**قُولُوا**) لهم يا معاشر المؤمنين القول الذي لا مرية فيه، وأمروهم وأرشدوهم إليه، نحن (**ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا**) بواسطة محمد ﷺ وهو القرآن، وَقُدِّمَ لكونه هو الذي أوجب الإيمان بما قبله (**وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**) والمراد بها الصحف التي تتضمن شرعه وشرع المعطوفين عليه في قوله: (**وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ**) وهم حَفَدَةُ يعقوب أو أبناؤه الإثنا عشر (**وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ**) من التوراة وسائر المعجزات (**وَ**) ما أوتي (**عِيسَىٰ**) من الإنجيل وغيره من البينات (**وَمَا أُوتِيَ النَّبِيئُونَ**) جميعهم (**مِنْ رَّبِّهِمْ**) ما علمنا منهم وما لم نعلمه (**لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ**) كما

تفعله اليهود والنصارى من الإيمان بالبعض دون البعض، فهذا معتقد المؤمنين في أنبياء الله (**وَنَحْنُ لَهُ**) أي الله (**مُسْلِمُونَ**) أي مخلصون في أفعالنا وأقوالنا.

وبعد ما نص تعالى على الإيمان الكامل وأمر المؤمنين به، قال لهم: (**فَإِن ءَامَنُوا**) أي الطوائف غير الإسلام (**بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُم بِهِ**) من الإيمان بالله وبجميع ما جاءت به الرسل من غير تفريق بين أحد من رسل الله، والمعنى فإن ءامنوا نفس إيمانكم (**فَقَدِ اهْتَدَوا**) إلى الحق، وحصل بينكم التواخي والاتفاق (**وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ**) من الشق، عبارة عن عدم الاتفاق فيما بينهم وبين المؤمنين إلى الأبد، ولما كانت هذه الآية تحدث في فكر النبي تشويشا مما يتوقعه من معاداة أهل الكتاب له، فكأنه يقول: فإن كانوا على الأبد في شقاق، فكيف العمل؟ فقال له تعالى تثبيتا لفؤاده: (**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ**) أي هو الذي يكفيك شرهم ويقطع دابرهم، فكان الأمر كذلك، فأنجز الله وعده بقتل بني قريظة وإجلاء بني النضير (**وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**) تأكيدا لما سبق من الوعد وتذييلا له، والمعنى فكأنه يقول: إن الله مِنْ أَمْرِكَ يا محمدُ على علم وبصيرة.

[illegible]

صبغة الله التي سبغنا بها وهو الإسلام (**وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ**) شكرا على ما أولانا من دين الإسلام.

وبعد ما أنهى تعالى الخطاب مع المؤمنين جرده لنبيه فقال: (**قُلْ**) لهم يا محمد (**أَتُحَاجُّونَنَا**) بهمزة الإنكار التوبيخي على عدم تسليمهم لحكم الله، وموافقته في بعثته رسولا من العرب، أي أتجادلوننا (**فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ**) يفعل فينا وفيكم ما يشاء (**وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ**) يوم القيامة، فكل يُجْزَى بفعله، فما هو وجه المجادلة (**وَنَحْنُ لَهُ**) أي الله (**مُخْلِصُونَ**) في أعمالنا لا نبغي بها إلا وجه الله، فكأنه بوصفه المؤمنين بالإخلاص نفاه عن غيرهم من أهل الكتاب. ثم قال: (**أَمْ يَقُولُونَ**) فكأنه تعالى يقول: فهل تثبتون على المحاجة، وتقديم البراهين على دين الحق، أم تميلون إلى التقليد كما هي عادتكم فتقولون (**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ**) ونحن بهم مقتدون؟ فإن قالوا بذلك كما هو المتبادر (**قُلْ**) لهم يا محمد (**ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ**) بهم وبما كانوا عليه من الدين، (**أَمِ اللهُ**) وقد أخبركم أنهم كانوا على الإسلام ملة إبراهيم حنيفا، وما كان من المشركين. ثم قال تعالى: (**وَمَنَ اَظْلَمُ**) إنكارا منه تعالى أن يكون أحد أظلم (**مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً**) تثبت عنده (**مِنَ اللهِ**) في كتابه المنزل، كما كتمت اليهود الشهادة في إبراهيم من أنه كان حنيفا مسلما كما قال تعالى: (**ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما**) وما كتموا تلك الشهادة إلا خشية اشتهار الإسلام، كما كتموا أوصاف محمد ﷺ ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

ثم وَاجَهَ تعالى المخدولين بصيغة التهديد بقوله: (**وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**) فسيجزيكم سوء ما عملتم، وبعدما تحققت نسبة النبيئين لدين الإسلام، فصاروا أسلاف المؤمنين بهذا الإعتبار، فَحَذَّرَنَا تعالى من الإقتداء باليهود في الوقوف مع أنسابنا والاتكال على أسلافنا فقال: (**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ، وَلاَ تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) وقد تقدم معنى ذلك في الآية السابقة والله أعلم بمراده.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**وقالوا كونوا هودا أو نصارىٰ تهتدوا... إلى قوله: ولا تسئلون عما كانوا يعملون**) إحدى عشر حكما:

الأول: علمنا بأن أهل الكتاب بلغوا أقصى الغاية في تضليل المسلمين بأقوالهم لو استطلعوا، يتخذ من قوله: (**وقالوا كونوا هودا أو نصارىٰ تهتدوا**) في غير ما مرة، وبكل عبارة.

الثاني: علمنا بأن جواب المسلمين لهم كان أكثره بملاطفة حسب تعليم الله لهم، يؤخذ من قوله: (**بل ملة إبراهيم حنيفا...**) إلخ.

الثالث: علمنا بأن الشرع يأمرنا بالإيمان المجمل فيما أنزله الله على أنبيائه من غير تفتيش ولا تنقيح، يؤخذ من قوله: (**قولوا ءامنا بما أنزل إلينا وما أنزل...**) إلخ.

الرابع: علمنا بأن التفرق بين أحد من الرسل وصمة في

الإيمان، يؤخذ من قوله: (**لا نفرق بين أحد من رسله**).

الخامس: علمنا بأن الإيمان الكامل يحدث تزحزحا في سبيل الاهتداء، وإن قبل مقارنته للعمل، يؤخذ من قوله: (**فإن ءامنوا بمثل ما ءامنتم به فقد اهتدوا**) وتتصور تمام الهداية فيمن فَجَأَهُ الموت بمجرد تعلقه بالإيمان.

السادس: علمنا أن من تولى عن الإسلام لا تتمكن موافقته للمؤمنين باطنا وظاهرا على وجه الصفاء، يؤخذ من قوله: (**وإن تولوا فإنما هم في شقاق**).

السابع: علمنا بأن الله وعد محمدا ﷺ بأن يكفيه بأس الكافرين ونجز وعده، يؤخذ من قوله: (**فسيكفيكهم الله**).

الثامن: علمنا بأن دين الإسلام أبلغ الأديان صبغة، فمن تمكنت عقيدة الإسلام من قلبه يتعذر محوها كما يتعذر محو الصبغة من الثوب، يؤخذ من قوله: (**صبغة الله**).

التاسع: علمنا بأن الشرع يمنعنا من تجريح عقائد الموحدين كيفما كانوا حال المجادلة إن أردنا استمالتهم إلى الحق، يؤخذ من قوله: (**أتحآجوننا في الله وهو ربنا وربكم... إلخ**) حتى كان اللفظ يقتضي التسوية بين الخصمين إلا في قوله: (**ونحن له مخلصون**).

العاشر: علمنا بأن المجادلة لا يقطع دابرها إذا وقعت مع أهل الكتاب، إلا إذا رجعنا فيها إلى نص سماوي، يؤخذ من قوله: (**قل ءآنتم أعلم أم الله**) حيث أستلفتهم لما في التوراة من أن

إبراهيم وإسماعيل إلى آخره ما كانوا هودا ولا نصارى.

الحادي عشر: علمنا بأنه لا ظالم أظلم ممن كتم شهادة يعلمها من الله، كمن كان يعلم نصا صريحا في مسئلة وَجَحَدَهُ، يؤخذ من قوله: (**ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله**).

الإشـــــــارة

تتأثر من الواردات الشيطانية والهواجس النفسانية أكثر من تأثرها من بني إسرائيل، فكل ما ورد على ألسنة أهل الكتاب تَرِدُ بالنفس الأمارة وقرينها على القلب، ولهذا يحتاج للسالك أن يميز بين الواردات حتى لا يغتر بنصائح النفس والشيطان، ولابد من رفيق في طريق الله، ألا ترى كيف كان النبي ينقح لأصحابه أقوال أهل الكتاب.

ثم اعلم أن النفس الأمارة تأتي مع قرينها بأقوال أهل الكتاب سواء بسواء، فيقولون لأصحابها: كونوا هودا أو نصارى تهتدوا، وواردات النفس اللوامة يقولون لأصحابها: كونوا منهمكين تهتدوا، وواردات النفس المطمئنة يقولون لأصحابها: كونوا غير مخلصين تهتدوا. وواردات النفس الراضية يقولون لأصحابها: كونوا على قصد الجزاء تهتدوا. وواردات النفس المرضية يقولون لأصحابها: كونوا موجودين مع موجدكم تهتدوا. ففي كل مقام يتغير وساوسه بتغير النفس، ولهذا جاء في الخبر ما معناه «**إن لكل مؤمن قرينا قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، ولكن أعانني الله عليه فأسلم**».

ثم أعلم أن الوساوس إذا وقعت في العقائد فلا يفيد فيها إلا الإيمان المجمل، كما قال تعالى: (**قولوا ءامنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ...**)إلخ. فإن انقطعت الوساوس المشار لها بقوله: (**فإن ءامنوا بمثل ما ءامنتم به فقد اهتدوا**) وإلا بأن أعرضوا عن ذلك ولم تقم عندهم حجة بالإيمان المجمل، وتولوا فلا ينفع فيهم استنتاج البراهين، ولا ترتب المقدمات، إنما هم في شقاق إلى الأبد، لأنهم مهما آتيتهم بحجة أتوك بحجج، وعليه (**فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**) ومعنى كفاية الله عَبْدَهُ من شرهم، ألاَّ يؤاخذه بحديث النفس، لأن انقطاعه غير ممكن لكونه مقرونا بوجود النفس، وغاية الأمر يقع فيه تغير حسبما تقدم.

وإن قلت: وكيف الخلاص؟ قال تعالى: (**صبغة الله**) وهي معرفته الخاصة التي تصبغك بصبغته، وتطويك في وجوده، وتثبتك بصفته، فيكون هو سمعك وبصرَك ويدَك ورجلَك وجميعَ قواك، فمن أين تصل إليك الوساوس، ومن أي ناحية تطرأ الهواجس إذا كان الفؤاد لله خالصًا؟ ولعلك تقول: لا حظ لنا في هذا المشرب، إنما يكفينا الانتساب إلى أهله قال تعالى: (**تلك أمة قد خلت، لها ما كسبت، ولكم ما كسبتم، ولا تسئلون عما كانوا يعملون**).

لســان الــروح

يرى من لم يقل بمقالته في وحدة الإطلاق، إنما هو في شقاق، حتى إذا قام المقام الخاص قائلا: فكيف المناص من قوم

عبدوا القرطاس وتركوا القسطاس؟ فيأتيه وارد التسليم من حضرة التكريم قائلا: (**فسيكفيكهم الله، وهو السميع العليم**).

قوله تعالىٰ

سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التِي كَانُواْ عَلَيْهَا، قُلْ لِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ، يَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً، لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ التِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَّتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَّنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ، وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الذِينَ هَدَى اللهُ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ، إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ

التفسير

وهذا شروع منه تعالى في فن ءاخر يذكر فيه ما تشبثت به السفهاء، بقصد الطعن في الدين بمناسبة تحويل القبلة لنبيه - عليه الصلاة والسلام - من البيت المقدس إلى بيت الله الحرام، وبيان ذلك أن النبي ﷺ صلى أولا قبل الهجرة إلى الكعبة، وربما كان يجعلها بينه وبين بيت المقدس، ولما هاجر إلى المدينة أخلص التوجه إلى بيت المقدس من نحو السبعة عشر شهراً، ثم أمره تعالى بالتوجه إلى الكعبة، ومن لطفه تعالى

بنبيه أن أعلمه بمقالة السفهاء قبل صدورها، وعلمه جوابها حتى لا يتأذى بذلك فقال عز من قائل: (**سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاس**) فيما سيأتي على سبيل الطعن في الدين، والمراد بهم ضعفاء العقول من أهل الكتاب، لأن السفيه لغة يطلق على من لم يحسن التصرف في دنياه، فكان فيمن لم يحسن تصرفه مع الحق بالأحروية. (**مَا وَلَّاهُمْ**) أيْ أيُّ شيء استدبرهم (**عَن قِبْلَتِهِمُ**) وهي بيت المقدس (**التِي كَانُوا عَلَيْهَا**) منذ أيام، فإن كان ذلك منهم تضليل فقد حكموا على أنفسهم، وإن كان ذلك منهم اهتداء فما هو وجه استدبارهم عليه، وكل هذا لظنهم أن النبي ﷺ يفعل ذلك من تلقاء نفسه، قال تعالى جوابا عن شبهتهم: (**قُل**) لهم يا محمد: (**لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ**) والجنوب والشمال، والمعنى أن سائر الجهات في حقه على السواء، واقتصاره على ذكر الجهتين من باب الاكتفاء (**يَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم**) أي يرسم له وجهة التعبد، وأما التوجه فهو إلى الله في الحقيقة، ويحتمل أن يكون معنى قوله: (**لله المشرق**) يعني بها قبلة النصارى، (**والمغرب**) قبلة اليهود، (**ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**) قبلة المسلمين. وهذا التأويل وقع في قلبه موقعا حسنا لأنها جاءت وسطا بين المغرب والمشرق ربما تشملها الإشارة في قوله: (**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمُ أُمَّةً وَسَطاً**) أي كما أن قبلتكم وسطا، جعلناكم أمة وسطا أيضا، وخيار الأمور أوسطها، والخطاب يشمل الأمة المحمدية عموما.

ثم اعلم أن الوسط هو العبد حقيقة عن الطرفين، ولهذا سمي العدل وسطا، لأن الخصمين في مقابلته كالطرفين على السواء،

وكون الأمة المحمدية أمة وسطا بالمعنى عدول، ووجه عدالتهم أن مركزهم جاء وسطا بين طرفي الإفراط والتفريط، لأن النصارى أفرطوا، واليهود فرطوا، وأمة محمد توسطوا. وبهذه المناسبة قبل الله شهادتكم على الناس وهو قوله: (**لِتَكُونُوا**) معاشر المؤمنين يوم القيامة (**شُهَدَاءَ عَلَى**) من مضىٰ من (**النَّاس**) إذا جحدوا التبليغ من أنبيائهم إليهم. (**وَيَكُونَ الرَّسُولُ**) أي محمد ﷺ (**عَلَيْكُمْ**) أي على صدقكم (**شَهِيدًا**) بالمعنى يزكي شهادتكم، وشهادة الأمة المحمدية على تبليغ المرسلين لأممهم تصح بما تقرر عندهم في التنزيل، فهو قرين الشهادة بالنظر للإيمان الكامل، فبهذا صحت شهادتهم. ثم أتى تعالى بحكمة تحويل القبلة فقال: (**وَمَا جَعَلْنَا**) أي صيرنا (**الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا**) بالمعنى أرجعناك إليها، وهي الكعبة التي كنت تصلي إليها قبل الهجرة حسبما قدمناه (**إِلَّا لِنَعْلَمَ**) أي نرى (**مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ**) بالتوجه معه أينما توجه مفوضا له (**مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ**) بالمعنى يدبر عن الإيمان والعياذ بالله.

ثم اعلم أن قوله تعالى: (**إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه**) يوهم عدم العلم أولا بتفصيل النازلة، حتى بعد الوقوف، وهو من أمحل المحال على الله عز وجل، ونظير هذا أكثر في التنزيل كقوله: (**ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين**) ونحوه. والإشكال فيه غامض، والكلام فيه طويل عريض، ولا وجدت من أتى فيه بما يشفي الغليل أو يبرىء العليل، ويا ليتني وجدت أذنا واعية ألقي شيئا من فن الكيمياء، وأما القلم لا يجيء بالعلم ولكن أقول: إن لله الأسماء

الحسنى تباين بعضها، وكل إسم يطالب مقتضاه فَمَا عند القدير: ليس هو عين ما عند البصير، ليس هو عين ما عند السميع، وَقِسْ على ذلك، فلكل متعلق، وإذا فهمت هذا علمت أن الشيء لا يستوفىٰ في بابه حتى تتداوله الأسماء الصالحة لغايته، ومثال ذلك أن اسم التواب لا يقبل مطيعا إذا أتاه تَائِبًا قبل تصور الذنب، وبعبارة أخرى أن « القادر » لا يعترف بوجود المقدور قبل مروره عليه، والبصير لا يعترف بِالْمُبْصَرِ قبل وقوعه عليه. نعم إن الأشياء في حضرة العلم على ما هي عليه، لكن الإسم الخبير لا يسمي ما عند العلم إلا بعد الاختبار، ولهذا لما كانت القضية قضية اختبار، قال الخبير للعليم: لا نعلم عِلْمَهُ في الشهادة كما علمت علم الشهادة في الغيب، ومن وراء هذا علم أغرب، لكن يحتاج إلى قلب.

ثم قال تعالى استعظاما لتحول القبلة: **(وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً)** أي نازلة التوجه إلى الكعبة بعد التوجه إلى بيت المقدس، أي ثقيلة من عدة وجوه **(إِلَّا عَلَى الذِينَ هَدَى اللهُ)** فلا يثقل شيء عندهم في مرضاة الله والرسول، لخلوهم عن الأغراض النفسانية. ولما كانت القضية ذات أهمية من جهة ما حصل فيها من تزلزل البعض ورجوع البعض، ويقل الصبر عند الامتحان، استلفت الخطاب سبحانه وتعالىٰ لمن ثبت على الدين قائلا: **(وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ)** أي لستم أنتم ممن يضيع الله إيمانهم، إنما يضيع إيمان السفهاء الذين لا إيمان لهم في نفس الأمر **(إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ)** الذين هم على عهد النبي **(لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)** محافظة على إيمانهم حتى يلقونه لا ينقصه شيء.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**سيقول السفهاء... إلى قوله: لرءوف رحيم**) تسعة أحكام:

الأول: استفدنا من سياق الآية أنها نزلت توطئة لقول السفهاء قبل وقوعه، وذلك يؤخذ من قوله: (**سيقول...**).

الثاني: علمنا أن الآية نزلت بعد التَّوَلِّي عن بيت المقدس، يؤخذ من قوله: (**ما وَلَّاهم عن قبلتهم**) فيظهر أنها قد كان التَّوَلِّي حصل.

الثالث: علمنا بأن الجهات بالإضافة لله قبل التنصيص على السواء، بالمعنى لا فضل لجهة عن الأخرى إلا من حيث التعبد، يؤخذ من قوله: (**قل لله المشرق والمغرب**).

الرابع: علمنا بأن الهداية ليست مكتسبة إنما هي بتوفيق من الله، يؤخذ من قوله: (**يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**).

الخامس: علمنا بارتفاع منزلة الأمة المحمدية على غيرها من الأمم، حيث كنا أمة وسطا، وشهداء على الناس، يؤخذ من قوله: (**وكذلك جعلناكم أمة وسطا، لتكونوا شهداء على الناس**).

السادس: علمنا بأن تحول القبلة كان امتحانًا من الله للمؤمنين، يؤخذ من قوله: (**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم**).

السابع: علمنا بأن النبي ﷺ صلى للقبلتين، يؤخذ من قوله: (**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها**) ومن قوله: (**ما ولاهم عن قبلتهم**).

الثامن: علمنا بأن هناك ممن انقلب على عقبيه بسبب تحويل القبلة، يؤخذ من قوله: (**وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله**).

التاسع: علمنا بجواز اختبار المرشد أتباعه ليحقق صدق الصادقين منهم، يستفاد من عموم القصة والله أعلم.

الإشـــــارة

ترى القبلة تختلف باختلاف المتوجهين، (**ولكل وجهة هو موليها**) والناس أزواج ثلاثة: فأهل الدنيا قبلتهم دنياهم لا يبغون بها بدلا، وأهل الآخرة قبلتهم آخرتهم لا يبغون عنها حولا، وأهل الله قبلتهم هو قبلتهم (**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**) ومَن توجه لقبلة لزمه الإدبار عن الأخرى، ولهذا لما يهدي سبحانه وتعالىٰ من يشاء إلى صراط مستقيم، فيدبر عما كان عليه إلى ما هو أعز وأغلى، يقول السفهاء: (**ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها**)؟ ويظنون أن ذلك كان منهم مجرد اختيار بالطبع. قال تعالى: (**قل لله المشرق**) إشارة للآخرة لأنها في شروق وإقبال، والمغرب إشارة للدنيا لأنها في أُفُولٍ وإدبارٍ. ثم أشار لحضرة الله بقوله: (**يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**). ولابد من السالك لطريق الله من الصلاة للقبلتين، فأول توجهه يكون بقصد الجزاء، (**فطرة الله التي فطر الناس عليها**)، ثم يرتقي إلى ما وراء الجزاء، حتى يتخيل ما كان عليه ذنبا وتقصيرا في العبودية، ولهذا قال تعالى ترويحا لقلوبهم: (**وما كان الله ليضيع إيمانكم**) أي فيما سبق، (**إن الله بالناس لرءوف رحيم**) وأما

الضمير في قوله: (**وكذلك جعلناكم أمة وسطا**) فهو عائد على خاصة الخاصة من أهل مَقَام الإرشاد، فهم الشهداء على الناس يوم الميعاد، لأنهم بدل عن الرسل في العباد، فهم شهداء على الناس من وجهة، مشهود عليهم من الأخرى، أي من حيث أنهم أمة الرسول على كل حال، لن ينفردوا بالتبليغ على استقلالٍ، وهذه الخاصية لا توجد في غيرهم من الأمم. وكونهم أمة وسطا لمجيئهم ما بين النبوءة والولاية، فهم برزخيو المقام عليهم من الله أزكى السلام.

لسان الروح

يقول في معنى الآية: إنه لما تنزلت الأرواح العلوية للقيام بواجب الإنساني، قالت النفوس الأرضية: (**ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها**) والحضرة التي كانوا فيها؟ قال الأزلي الأبدي للروح المحمدي (**قل لله المشرق**) الذي هو مطلع الأنوار، (**والمغرب**) الذي هو مقتضى الظلمات والأغيار، وفي كلا الوجهين (**يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**).

قوله تعالى

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاها، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ، وَإِنَّ الذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ، وَلَئِنَ اَتَيْتَ

الذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ، وَمَآ أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ، وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّـالِمِيــنَ

التفسير

قد تقدم أن النبي ﷺ بعد ما هاجر إلى المدينة صلى إلى بيت المقدس نحوا من السبعة عشر شهراً، ولما أراد سبحانه أن يصرفه عن بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، أنزل قوله تعالى: (**قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**) وكان ذلك في صلاة الظهر، بعد ما صلى ركعتين وهو بمسجد بني سلمة، فتحول ﷺ وحول مكان النساء رجال، ومكان الرجال نساء، وتسمى المسجد بمسجد القبلتين.

ثم اعلم إن الداعي لتقلب وجهه في السماء وهو في الصلاة تَرَقُّبُ الوحي، لأنه كان على علم من أن الله سيصرفه عن بيت المقدس، ويفرده بقبلة تخص أمته، لأن التوجه لبيت المقدس كان مؤقتا لحكمة يعلمها الله، فالتقلب كان منه ﷺ محافظة من أن يصلي لجهة قد انتهى الحكم من الأمر بها، وأما ما قيل من أنه كان كريه التوجه إلى قبلة اليهود، فهو كلام مخل بمنصبه ﷺ، وإلا فكيف يكره حكما استعبده الله بفعله، ويريد الانتقال عنه بشهوة طبعه، فحاشاه من ذلك، وأما قوله:

(**تَرْضَاهَا**) أي تحبها، ومن المعلوم أن الكعبة كانت أحب البقاع إليه، لكن بحب الله لها، فلما قال له: (**ترضاها**)، كان كالتصريح على أنها الكعبة، فحصلت بغيته من الجانبين بمناسبة اتحاد الطين والدين. وأما قوله: (**فَوَلِّ وَجْهَكَ**) المراد به جميع الذات، ومن المعلوم أن من ولى وجهه دون ذاته لا تصح صلاته، وأما تخصيص الوجه جاء على طريقة المشاكلة، بمناسبة ذكره في التقلب أو زيادة في التحرز من الالتفات، وعلى هذا يكون الالتفات ينافي صحة الصلاة. نعم إن كان لغير حاجة. وأما قوله: (**شَطْرَ الْمَسْجِدِ**) فالمراد به أي جزء من جوانب المسجد إن صادفه المصلي حصل له التوجه، وبه قالت جماعة، وقال الشافعية: المراد به الشق الجامع بين طرفي المسجد، فبذلك يصادف نفس الكعبة، وهذا يليق بمن بمكة، وأما الخارج عنها القول الأول به أرفق.

ذكر «الفخر الرازي» عن «ابن عباس» - رضي الله عنهما - أنه قال: «البيت قبلة أهل المسجد، والمسجد قبلة أهل الحرم، والحرم قبلة أهل المشرق والمغرب» وهو قول «مالك» أيضا، وهذا من نفي الحرج، إذ لو كلفنا بالتوجه إلى عين الكعبة لما صحت صلاة أحد إلا لمن بالمسجد الحرام.

ثم اعلم أن أكثر محاريب القطر الغربي منحرفون عن القبلة على ما تقتضيه الأدلة السماوية، فالواجب على أئمة المساجد الانحراف إلى جهة اليسرى، وتنبيه المصلين على ذلك لقوله: (**وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ**) معاشر المصلين (**فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ**) في حال الصلاة (**شَطْرَهُ**) وهذا صالح بكل من في الأرض، إلا من كان

في دهليز أسفل البيت، أو طائرًا في السماء، أو على ظهرها، وأما من كان داخل البيت يأخذ شطره منه.

وإن قلت: فما هو حكم من ذكرتموه؟ فالجواب: إن مقتضى النص البطلان إن كان باختياره، ونفي الوجوب في حال اظطراره، لأن مقتضى العبودية من العاجز أن يؤدي ما افترضه الله عليه بقدر وسعه، فإن كان من فوقها يجعل معظمها قبالة وجهه، ومن كان تحتها يجعل سمت أساسها بين عينيه، وهكذا من كان طائراً على شيء يتمكن معه الصلاة، ومن لم يكن له التوجه إلى القبلة بحال يمكن له التوجه إلى الله على كل حال، ويكون نصه في القبلة التي (**فأينما تولوا فثم وجه الله**) ولما وقع الخوض وبالأخص من السفهاء في شأن القبلة لما حولت، قال تعالى: (**وَإِنَّ الذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**) من اليهود والنصارىٰ (**لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّهِمْ**) أي ما وقع في شأن القبلة من التحول، ولكن يكتمون الحق (**وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**) من أعمالهم الرديئة وأقوالهم الخبيثة، ولما قام ﷺ يبرهن على أن التوجه إلى الكعبة هو الحق المأمور به من جهة الله عز وجل، قال له تعالى: (**وَلَئِنَ آتَيْتَ الذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**) من اليهود والنصارى (**بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ**) لما هم عليه من القسوة وعدم الانقياد (**وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ**) الآن بعد ما جاءك من العلم بحكم الله في القبلة (**وَمَا بَعْضُهُم**) أي من الفريقين (**بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ**) فلا اليهود تتبع قبلة النصارى بأن تصلي لمشرق الشمس، ولا النصارى تتبع اليهود بأن تستقبل الصخرة (**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم**) في الأدبار عن الكعبة إلى

بيت المقدس رغبة في رجوعهم إلى دينك، لأنهم كانوا يقولون: لو ثبت محمد على قبلتنا لرجونا أن يكون هو صاحبنا المنتظر، وهذا تغرير منهم له، وإلا يعرفونه يقينا هو المشار به في التوراة والإنجيل، وعليه إن فعلت ذلك (**مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**) في شأن القبلة (**إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ**) وحاشاه أن يفعل ذلك، إنما حكمة التهديد كانت راجعة لعامة المؤمنين، تحذيراً من أن تجنح بهم أهوية أهل الكتاب إلى التغرير، فرتب على نبيه ما يشملهم معظمه بالأحروية، ومن حكمته تعالى أن يرتب على المعصوم من التهديدات ليقوم بواجب الحذر في كل وقت وحين، والله أعلم.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**قد نرى تقلب وجهك... إلى قوله: لمن الظالمين**) عشرة أحكام:

الأول: علمنا بأن بصره تعالى يتعلق بالأعراض كالحركة والسكون وإن بانفرادهما فضلا عن الجواهر، من قوله: (**قد نرى تقلب وجهك**) ولولا ما به الإشارة لقال: نرى وجهك حين تقلبه أو ما في معنى هذا.

الثاني: علمنا بأن جميع ما حوى الإنسان من جهة العلو يطلق عليه سماء من قوله: (**في السماء**)، والحالة أن التقلب كان فيما حوى الوجه من الفرع.

الثالث: علمنا بأن التوجه إلى الكعبة كان من متمنياته من

قوله: (**فلنولينك قبلة ترضاها**).

الرابع: علمنا بأن قبلة الأفاقين من أهل المشرق والمغرب المسجد، لا نفس الكعبة توسعة لهما.

الخامس: علمنا أن مصادفة الجزء من المسجد كافية في مصادفة القبلة، من قوله: (**شطر المسجد**).

السادس: علمنا بمشروطية التوجه إلى القبلة في الصلاة من قوله (**وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره**).

السابع: يؤخذ مما تقدم أيضا مطلوبية التوجه إلى القبلة في حال الجلوس مع الإمكان.

الثامن: علمنا بأن أهل الكتاب كانوا على علم من أن النبي المبعوث آخر الزمن يصلي للقبلتين ولكن كتموه من قوله: (**وإن الذين أوتوا الكتاب لَيعلمون أنه الحق من ربهم**).

التاسع: علمنا بأن القبلة أعز شيء على أهلها بحيث لا يتسنى لأحد أن يترك قبلته ليتبع قبلة غيره، إلا بالتنصل من ذلك الدين للدخول في غيره، من قوله: (**وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض**).

العاشر: علمنا بجواز تهديد من لا ذنب له زيادة في تيقظه، من تهديده تعالى لنبيه ﷺ لِحِكْمَةٍ، ولعل القائل يقول: ما الحكمة في مطلوبية التوجه إلى جهة مخصوصة في حال العبادة، مع علمنا بأن الجهات في حق الله على السواء ؟ فأقول: لو لم يستعبدنا الحق بجهة مخصوصة حال الوقوف معه،

لاستحكمت منا الحيرة، وضاعت العبادة بما تطلبه منا سائر الجهات من استحقاق التوجه إليها، فلا جهة من الجهات السِّتِّ الا وترى لنفسها أتم اسْتِحْقَاقٍ من جهة التوجه إليها، وبالأخص جهة العلو فقد أخذت أوفر نصيب من كينونة الحق حسبما تضمنته النصوص، لولا أن الشارع ﷺ استلفتنا جهة الأسفل فقال: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**» فتحصل التعادل وتم التقابل. وثانيا: إن الارتباط الديني من أهم مقاصد الشارع، وذلك لا يحصل إلا بالتوافق بين أفراد المسلمين في كل شيء شيء، ولو صلى كل أحد إلى جهة لظهر فيه ما يدين بالاختلاف، فألزمنا الشارع بجهة مخصوصة. والله أعلم.

الإشـــــارة

قد نرى تقلب وجهك في سماء التنزيه، وذلك مما يقتضي الحيرة، فلنولينك قبلة في أرض التشبيه ترضاها، لأنها من طينتك، فول وجهك، أي توجهك شطر المسجد الحرام، عبارة عن الكون من أصله، من عرشه إلى فرشه، فالكل مسجد عند من عرف الله، لأن الأرواح تطوف بالعرش كما أَنَّ الأبدان تطوف بالبيت، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله: «**جعلت إِلَيَ الأرض مسجدًا**» أي جميعها مسجدا، وبيان ذلك أن العارف يكون توجهه أولا إلى المظهر، ثم يؤمر بالانسلاخ عنه، ثم يؤمر بالرجوع إليه بعد أن يعرف ما فيه (**وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق**) على ما يقتضيه قوله تعالى: (**وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما إلا بالحق**) ولكنهم يكتمون الحق وهم يعلمون. وأما العارفون بالله لا يكتمونه، لكن لا يبدونه إلا لمن تحقق صدقه في طلب الله عز وجل.

لسان الروح

يرى في لزوم السجود للكعبة لزوم سجود الحقائق لبعضها، والأرواح لنفسها، بما تضمنته من ظهور الحق فيها، وذلك يدرك باعتبار لو ارتفعت الكعبة من بين الحافين بها، ثم رفعت أجسامهم أيضا فتبقى الحقائق متوجهة لبعضها، والأرواح لنفسها، فكلهم مُصَلٍّ ومصلى له على مقتضى التلازم بين الربوبية والمربوبية، وفي ذلك قال حكيم: الأولية على تقدير الأثنينية.

كلانا مُصَلٍّ واحدٌ ساجدٌ إلى ☆ حقيقته بالجمع في كل سجدة

قوله تعالىٰ

الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، الْحَقُّ مِنْ رَّبِّكَ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ، وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ، أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً، إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَا تَعْمَلُونَ، وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي، وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

التفسير

قوله تعالى: (الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) وهم علماء اليهود والنصارى لا عموم الفريقين (يَعْرِفُونَهُ) أي محمدا بأنه نبي في التوراة والإنجيل عندهم (كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) تشبيه في تحقيق المعرفة، فلا والد إلا ويعترف ببنوة ابنه وبإضافته إليه، مع بقاء احتمال أن ربما ليس من نطفته، وهذا يقين أهل الكتاب في محمد. وأما المؤمنون يعرفونه كما يعرف الإنسان نفسه من كونه هو ذلك الإنسان، وهذا المقام لا يتطرقه شك كما تطرق ما قبله، ولهذا قال «عبد الله بن سلام» -رضي الله عنه-: «أنا أعرف بمحمد مني يا بني، فقال له عمر: وكيف ذلك؟ قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي، وأما ولدي فلعل والدته خانت. فقبل عمر رأسه». (وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ) أي من الذين أوتوا الكتاب (لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ) أي ما عرفوه من نبوءة محمد ﷺ (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) أن نبوءته حق، وأن ما جاء به صدق.

ثم استلفت الخطاب للنبي فقال: (الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ) أي إياك وكتمان الحق كما يفعل هؤلاء، ويحتمل أن يكون معناه فما أنت عليه هو الحق فالزم. (فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) أي الشاكين فيما هم عليه، وسياق الآية يدل عليه. وبعدما اتضح نص القبلة، وبأن رضوان الله في التوجه إلى الكعبة، أتى تعالى بما فيه تفويض فقال: (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا) أي لكل فرقة من سائر الملل قبلة، الله موليها إياه، إما بشرعة سماوية مع إرادة أزلية، وإما بانفراد الإرادة لحكمة هو أعلم بها (فَاسْتَبِقُوا) معاشر المؤمنين (الْخَيْرَاتِ) فقد اتضحت أنها الآن في التوجه

إلى الكعبة لا يشغلهم عنها قول السفهاء من الناس، واعلموا لابد من يوم مجموع له الناس (**أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَاتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً**) في ذلك اليوم، (**إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)أي فلا يعجزه جمع ما تفرق من الأجزاء، وسيأتي ما يتعلق بالبعث إن شاء الله.

وبعد ما قدم تعالى ءاية التوجه إلى الكعبة، وذكر فيها لمحمد أنه ولاه قبلة يرضاها، رفع عنه الآن ما ربما يتوهمه من أن توليته للكعبة كانت من قبيل البحث، إسعافا من الله تعالى لرغبته فقط، فقال مؤكدا (**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ**) أيها النبي في حال سفرك (**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**) في حال الصلاة (**وَإِنَّهُ**) أي التوجه للقبلة (**لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ**) أي الفرض الثابت، والشرط اللازم، فإياك والتساهل فيه (**وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**) فهذا التحذير منه تعالى للمؤمنين من أن يتساهلوا في أمر القبلة. ثم أتى تعالى بما فيه تكرار، وفائدته المبالغة في محو ما تمكن في قلوب المؤمنين من حكم التوجه إلى بيت المقدس، حتى كادَ أن يكون ذلك عندهم بالجبلية عند قيامهم إلى الصلاة، ومن المعلوم أن من تعود شيئا يتعذر عنه الانتقال إلى نقيضه بداهة، إلا بعد تدريب الطبع، وبالأخص ما ارتبط مع الإنسان من النسيان، ولهذا أعاد الحكم فقال: (**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**).

ثم استلفت الخطاب لعامة المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها فقال: (**وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ**) في حال الصلاة (**شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ**) بالمعنى تحفظوا من وقوع النسيان ونحوه بأن تصلوا لغير القبلة

فيحتجون عليكم بذلك، وينشرون أخباركم أنكم تصلون لغير الكعبة، ومهما حفظتم على قبلتكم نجوتم من احتجاجهم (**إِلَّا الذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**) وهم المشركون من أهل مكة فتبقى حجتهم على المؤمنين، وهو قولهم: إن محمدا وأصحابه رجعوا لقبلتنا بعد الإدبار عنها، فقال تعالى: (**فَلَا تَخْشَوْهُمْ**) لأن كيدهم في المجادلة أضعف، وأمرهم فيها أخف من أهل الكتاب، (**وَاخْشَوْنِي**) أي خافوني، زيادة في الخوف على ما أنتم عليه، فكأنه يقول: أحصروا جميع الخشية فِيَ، فلا تخافوا أحداً (**وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**) أي بسبب ما تخشونني نُتَمِّمُ نعمتي عليكم الحاصلة الآن لكم، ولعلكم تهتدون في المستقبل لما هو أرفع من ذلك، (**وما عند الله خير للأبرار**).

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**الذين ءاتيناهم الكتاب... إلى قوله: تهتدون**) تسعة أحكام:

الأول: علمنا بأن المؤمن ينبغي له أن يعرف نبيه أكثر من معرفته لأبنائه، لأنها منزلة أهل الكتاب، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولن تفيدهم تلك المعرفة.

الثاني: علمنا بأن في أهل الكتاب من لم يكتم الحق لتقييده من يكتم الحق بالفريق.

الثالث: علمنا بأن أهل الشك في عقائدهم ليسوا على هدى من الله من قوله: (**فلا تكونن من الممترين**).

الــرابــع : علمنا بأن الله هو الذي شرع لكل أمة قبلتهم، وحسنها في نظرهم، فلهذا لا يستطيعون الرجوع عنها من قوله : **(ولكلٍّ وجهةٌ هو موليها)**.

الخـامـس : علمنا بأن التسارع في الخيرات مما يرضيه تعالى من قوله : **(فاستبقوا الخيرات)**.

الـسـادس : علمنا بأن القيامة جامعة بين المفترقين من قوله : **(أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا)**.

الـسـابـع : علمنا بأن التوجه إلى القبلة أمر محتم بما أفاده التكرار.

الـثـامـن : علمنا بأن الخشية حقها لا تكون إلا من الله من قوله : **(فلا تخشوهم واخشوني)**.

الـتـاسـع : علمنا بأن الخشية كافلة بالاهتداء، وتمام النعمة، من قوله : **(واخشوني، ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون)**.

الإشـــــــارة

في قوله: **(الذين آتيناهم الكتاب)** أي فسحنا لهم في معرفة الكون يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، لكن مع بقاء شبهة تحقيق الانتساب، ولهذا كان فريق منهم يكتمون الحق فيه وهم يعلمون أنه الحق من ربك أيها العارف فلا تكونن من الممترين، ولكل وجهة من الاعتقادات هو موليها، فاستبقوا الخيرات، وهو ما أشرنا إليه من معرفة الحق، ولا تتوهموا وجود الفرق، وتعذر الإجتماع **(أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا، إن الله على كل شيء قدير)**.

ثم أخذ تعالى في جمع الهمم على الوجهة التي تعين فيها ظهور الحق فقال: (**ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام، وإنه للحق من ربك...**) إلخ. فتعين بهذا الاعتبار على من عرف الحق، أن لا يدبر عنه حيثما كان، ومن أي بقعة خرج، ومن أي باب دخل، حسبما دل عليه التأكيد في التوجه.

قوله تعالىٰ

كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ، فَاذْكُرُونِيَ أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ، يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ، إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ

التفسير

قوله تعالىٰ خطابا للمؤمنين: (**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ**) معاشر المؤمنين (**رَسُولاً**) وهو محمد ﷺ (**مِّنكُمْ**) أي من جنسكم (**يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا**) أي يوضح لكم الآيات الدالة على وحدانيتنا (**وَيُزَكِّيكُمْ**) أي يعلمكم ما إذا تمسكتم به صرتم أزكياء، وذلك عبارة عن تطهير الأخلاق (**وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ**) وهو القرآن فتكونوا به أهل كتاب، بعدما كنتم لا كتاب لكم (**وَ**) يعلمكم (**الْحِكْمَةَ**) أي ما تستطلعون به عما خفي من

الأسرار في الكتاب وفي غيره، وبالجملة (**وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**).

ثم أقول: إن الكاف من قوله: (**كما أرسلنا فيكم رسولا**) إذا كانت متعلقة بما قبلها صارت المعنى كما أهديتكم إلى القبلة وأتممت عليكم نعمتي، بعثت فيكم رسولا من أنفسكم إلى آخره، وإذا كانت متعلقة بما بعدها وهو الأولى، تصير المعنى كما أنعمت عليكم ببعثة رسولا من أنفسكم، كذلك أنعمت عليكم بذكركم إياي وذكري إياكم. (**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**) وهذه النعمة لا توازيها نعمة إلا بعثة الرسول فينا.

ثم اعلم، إن ذكر العبد مولاه معقول، أما ذكره تعالى لعبده هو غاية في التنزل، فلا يتلقى في المقام العام إلا من طريق الإيمان وان مع كثرة التصورات وغالب الاحتمالات.

ثم أن ذكر العبد مولاه على أنواع، أشهرها في العرف ذكر اللسان، ثم ذكر الجنان، ثم ذكر البدن جميعه، فإذا تمكن الذكر من اللسان سَرَى للقلب، وإذا تمكن من القلب امتزج بجميع البدن، وذكر الله تعالى للعبد يتضمن المقابلة حسبما يليق بجلاله تعالى سواء بسواء، وإلى ذلك الإشارة في الحديث القدسي: «**إذا ذكرني عبدي في نفسه، ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير من ملائه**» فكيفما ذكر يذكر باعتبار الهيئة المعنوية، لا باعتبارها الكيفية والكمية، وعليه فمن أراد أن يكون مذكورا عند ربه فليكن مشغولا بذكره، ولينزل مولاه أعلى المنازل، وتلك منزلته عند ربه، ولهذا يقال: «من أراد أن ينظر منزلته عند ربه، فلينظر منزلة الله في قلبه».

ولا يقتصر على ذكر اللسان إن أمكنه ذكر الجنان، وهذا مهما أمكن الترقي، لأن الأمر جاء بالذكر، ولا أدري ما هي الكيفية في الذكر حتى يرىٰ الإنسان عند الله ذاكرًا، فيستحق بذلك أن يكون مذكورًا، وعلى كل حال لا يترك الإنسان الذكر لعدم حضوره مع المذكور، فعسى أن يرتفع من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى غيبة عما سوى المذكور. ثم يفنى الذكر والذاكر في وجود المذكور، وهذا مقام يستوجب الشكر بعد الشعور، لهذا أردفه تعالى بقوله: (**وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ**) وشكر النعمة تمام الخدمة، وكفران النعمة سبب النقمة، فمن عظمت عليه نعمة الذكر فليقيدها بالشكر، وإلا انتزعت من حيث لا يشعر. ولما كان الذكر أثقل شيء على النفس، وبالأخص إذا كان بشروطه كالعزلة ونحوها، أعقبه تعالى بذكر الصبر فقال: (**يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ**) وهو حبس النفس فيما تكره (**وَالصَّلَاةِ**) لأنها وصلة بين العبد وربه، والمراد بذلك ما زاد على الفرائض، وأما هي فمقصودة لذاتها، لا ليستعان بها على غيرها، كان ﷺ إذا نزل به أمر فزع إلى الصلاة. ثم قال: (**إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**) بالنصرة على ما يكابدونه، فالاصطبار حليف الانتصار دوما.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**كما أرسلنا فيكم رسولا... إلى قوله: إن الله مع الصابرين**) ستة أحكام:

الأول : علمنا بأن الحكمة في بعثة الرسل تعليم الناس ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم حسبما اشتمل عليه صدر الآية.

الثاني : علمنا بمطلوبية تقديم ما يدل على وحدانية الله في التعليم، ثم بعده على الترتيب حسبما دل عليه نسق الآية.

الثالث : علمنا بمطلوبية الذكر من العبد وكونه في جماعة أولى، من إتيانه في الأمر بضمير الجماعة.

الرابع : علمنا أن الذكر في العبادات لا شيء أشرف منه لما يترتب عليه من ذكر الله لعبده، وهذه الخاصية ليست موجودة في غيره من أعمال البر.

الخامس : علمنا أن الشكر مما أُمر به العبد في كل حال.

السادس : علمنا أن مقابل الشكر كفران، كما أن مقابل الذكر نسيان، من قوله: **(فاذكروني، أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون)**.

الإشـــــارة

في قوله تعالى : **(كما أرسلنا فيكم رسولا)** الضمير عائد على أهل الخصوصية والنفوس الزكية، يَمُنُّ الله عليهم ببعثته فيهم رسولا من أنفسهم لا من الخارج عنها، لأنهم – رضي الله عنهم – فلا واحد إلا ورسوله من نفسه، وزاجره من قلبه يعلمه الكتاب والحكمة ويزكيه، ولهذا يقال : « ما اتخذ الله وليا جاهلا إلا وعلمه منه إليه بواسطة رسول من نفسه ». فيكون هو الرسول والمرسول إليه، قال بعضهم : « إن النفوس إذا اعتادت ترك الآثام جالت في الملكوت، ورجعت لصاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علما ». وهذا مقام يصير العبد يستمد فيه من نفسه.

لسان الروح

يقول في قوله تعالى : (**فاذكروني أذكركم**) إن العبد إذا أراد أن يجري ذكره على لسان الحق فليجر ذكر الله على لسانه، فيكون ذاكرا بلسانين : ذاكرا لنفسه بلسان ربه، وذاكرا لربه بلسان نفسه، فما أعظم ذاكرا وأحقر مذكور، وما أحقر ذاكرا وأعظم مذكور، ولا جرم إن قال الذاكر عند ارتفاع الستور : « أنا الذاكر والمذكور ».

قوله تعالىٰ

وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُّقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ، بَلَ اَحْيَآءٌ، وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ، وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الاَمْوَالِ وَالاَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُوْلآئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ، وَأُوْلآئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ

التفسير

(**وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُّقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ، بَلَ اَحْيَاءٌ، وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ**) هذا تنبيه منه تعالى على أن القتلاء في سبيل الله ليسوا بأَمْوَاتٍ بل أحياء عند ربهم يرزقون، كما كانوا يرزقون في الدنيا، وهل ذلك خاص بالمجاهدين في سبيل الله،

أم عام في سائر الأموات من جهة شعورهم في القبر وفي البرزخ، حسبما دلت عليه النصوص السماوية والأحاديث النبوية، وهو كذلك. ولَعَلَّكَ تقول: فما هو وجه تخصيص الشهداء بذلك؟ فأقول: إن لهم أمرا زائدا على الشعور البرزخي، فإنهم يطوفون في الدنيا ويزورون منازلهم وعشائرهم أرواحا، ويدخلون الجنة في حواصل طيور خضر كما جاء في الحديث، ومزية التطوف في الدنيا بعد الموت لم تحصل إلا لهم ولأولياء الله الكبار، ولهذا قال تعالى: (**ولكن لا تشعرون**) فَدَلَّ هذا على أن لو شعرنا لرأيناهم من بيننا أحياء، ولولا ذلك لما عبر بالشعور، إنما كان يعبر بالعلم كأن يقول: (**ولكن لا تعلمون**) ولما عبر بذلك علمنا أن حياتهم كحياة الأحياء بل أوسع من ذلك من جهة تصرفهم في الدارين، والله أعلم.

ثم قال: (**وَلَنَبْلُوَنَّكُم**) أي نعاملكم معاملة من يختبر صديقه، وقد كان جميع ما وعدهم به، والحكمة في تقديم هذه الآية على ما دلت تأييدا للمؤمنين ليخف عنهم ما سينزل بهم لما يكونوا منه على بال، بخلاف ما يفجأهم على حين غفلة، وفيها أيضا تنفير للمنافقين الذين كانوا مع النبي طمعا في بعض الأغراض الدنياوية، فقد انسلوا بنزول هذه الآية. قوله: (**بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ**) وقد حصل ذلك لهم من كثرة أعدائهم، وبالأخص في وقعة الأحزاب. قال تعالى: (**هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا**) (**وَالْجُوعِ**) وقد حصل ذلك في أول الهجرة، حتى كان الصحابي يربط على بطنه الحجرة، والنبي يربط على بطنه الحجرتين، (**وَنَقْصٍ مِّنَ الاَمْوَالِ**) وقد كان ذلك بسبب ما خلفه

المهاجرون حين الهجرة، وبسبب ما أنفقه الأنصار عليهم في سبيل الدفاع عن الدين (**وَالأَنْفُسِ**) وقد كان ذلك بسبب كثرة الموت والمغازي (**وَالثَّمَرَاتِ**) بما لحقها من الجوائج بسبب إهمال أهلها لاشتغالهم بالحروب. وقال الشافعي - رضي الله عنه -: « الخوف خوف الله، والجوع صيام رمضان، ونقص من الأموال الزكاة والصدقات، ومن الأنفس الأمراض، ومن الثمرات موت الأولاد ».

ثم قال: (**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**) الخطاب لمحمد ولمن يستحق التبشير. ثم أخذ في تعريف الصابرين منهم فقال: (**الذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**) فكأنهم يقولون: لا وجه للجزع لأننا لله الآن، إننا إليه راجعون فيما يأتي، فلله ما أعطى وله ما أخذ، وهؤلاء هم أهل الصبر لا أهل التصبر، فصبرهم بالطبع لا بالتطبع، لرؤيتهم الأفعال جميعها من الله، ولهذا جاء بصيغة التعميم في قوله: (**مصيبة**) والمعنى أي مصيبة كانت صدرت بواسطة الخلق أم لا، فهم في جميع ذلك يقولون: (**إنا لله وإنا إليه راجعون**) قال تعالى: (**أُوْلَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ، وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**) جاءت الإشارة لهم بأولائك ثم تكررت للاهتمام بشأنهم، (**عليهم صلوات من ربهم**) جمع صلاة، وذكرت جمعا لتنوعها حسب مراتب الشهداء، لأنهم مخالفون في صلوات الله عليهم متحدون في الرحمة، ولهذا ذكرت بالانفراد. وأما قوله: (**وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**) فيه دلالة على أن الشهداء في أقصى درجة الاهتداء، والدليل على ذلك أنهم اشتروا الجنة بأنفسهم وأموالهم، وهذا من الهداية في مكان، فيحق لهم أن يقال فيهم إنهم مهتدون.

الاستنبـــاط

يستخرج من قوله تعالى: (**ولا تقولوا لمن يقتل... إلى قوله: وأولئك هم المهتدون**) عشرة أحكام:

الأ و ل: علمنا بعدم جواز إطلاق كلمة ميت على من قتل في سبيل الله، إنما يقال فيه شهيد، أو فلان استشهد بدل قولنا مات.

الثـانـي: علمنا بأن الشهداء أحياء على خلاف ما نتصوره في الأموات، يؤخذ من قوله: (**بل أحياء**).

الثـالـث: علمنا بأنه ما منعنا من إدراك كيفية كونهم أحياء إلا عدم الشعور، بحيث لو شعرنا لو جدناهم أحياء حياة حقيقية حسبما أخبر الله عنهم.

الـرابـع: علمنا أَنَّ قوله: (**ولنبلونكم...**) إلى آخره. نزلت قبل وقوع البلوى، فتكون معجزة لأنها خبر عن غيب.

الخـامـس: علمنا بأن الصحابة قد كان يلحقهم من الخوف أحيانا حسبما يتضمنه الطبع البشري، كما لحقهم من الجوع والنقص في الأموال والأنفس والثمرات.

الـسادس: علمنا بأن الصابر على ما أصابه يستحق البشارة، فالواجب على من تحقق الصبر من أحد أن يبشره حسب الأمر بذلك في قوله: (**وبشر الصابرين**).

الـسابـع: علمنا بأعز شيء يقوله الصابر: (**إنا لله وإنا إليه راجعون**).

الثامن : علمنا بأن الصلاة من الله على عباده هي غير الرحمة، بدليل عطف الرحمة على الصلوات.

التاسع : علمنا أن غاية ما يبلغ إليه المهتدي أن يصرف نفسه في مرضاة الله، وذلك يؤخذ من قوله في الشهداء : (**وأولئك هم المهتدون**) .

العاشر : علمنا بأن الروح جوهر قائم بنفسه ليس بعرض، وإلا لما تمكنت حياته بعد مفارقة البدن.

الإشـــــارة

تحمل القتلاء في الله على القتلاء في سبيل الله، وترى الحكم يشملهم من طريق الأحروية، وعليه فمن تحققت موتتهم في الله ليسوا بأموات بعد انتقالهم، بل أحياء عند ربهم يرزقون، ولكن لا تشعرون بحياتهم، وأما أرباب الشعور فإنهم على بصيرة من أمرهم. وقولنا الحكم يشملهم من طريق الأحروية، لأن الأولين ماتوا في سبيل الله، وهؤلاء ماتوا في الله، والأولون أهل الشهادة، وهؤلاء أهل مشاهدة، والأولون جاهدوا في الجنس، وهؤلاء جاهدوا في النفس، فالأولون أهل الجهاد الأصغر وهؤلاء أهل الجهاد الأكبر حسبما دل عليه حديث سيد البشر، لما قال ﷺ لأصحابه : « **قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر** » وعليهم صدقت البلوى في قوله : (**ولنبلونكم بشيء من الخوف**) فمن حيث ذلك التصق بهم فلن يزالوا خائفين، والخوف من شعائرهم إلى أن يبدل الله خوفهم أمنا، وأما الجوع فهو عندهم أعظم أساس في الطريق، وأما النقص في الأموال، فالزهد

والتقشف والإقلال من الدنيا عندهم شرط في طريق الله، وأما نقصان الأنفس فقد أمات الله أنفسهم وهم أحياء، وأما النقص من الثمرات فإنهم لا يتفكهون كغيرهم، وأما المكاسب فهي أقل عندهم من أي تذكر. وبالجملة، إن القلة مما عرفوا بها في كل شيء شيء حسبما ابتلاهم الله بذلك فتقبلوه بطيب نفس، وقالوا إنا لله في الحال، وإنا إليه راجعون في المآل، فدربوا أنفسهم على ما ابتلاهم به الله فاستطيبوه من غيره، فتلك طريقهم - رضوان الله عليهم - (**أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون**).

لســـان الـــروح

يعتبر من الموت الحياة ومن الحياة الموت، لأن الأشياء كامنة في أضدادها، ولهذا قال: (**بل أحياء**) خلاف ما يتوهمه الفكر العام من أن الحياة حياة، والموت موت، لأن الموت ليست لها حقيقة كحقيقة الحياة، إنما هي مجرد عبارة عن كمون أو إلتفات، والحياة اسمها الحياة وقلب الحقائق من المستحيلات.

قـولـه تـعـالىٰ

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَآئِرِ اللهِ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ، إِنَّ الذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ

أُوْلَـٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِنُونَ إِلَّا الذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، إِنَّ الذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ والْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا، لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَهُمْ يُنْظَرُونَ، وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ، لاَّ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ

التفسير

أخذ تعالى في فن آخر يذكر فيه البعض من شعائر زيارة البيت الحرام قال: (**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ**) وهما الجبلان المعلومان للسعي بينهما (**مِنْ شَعَائِرِ اللهِ**) أي السعي بينهما من شعائر الله، لا كون الجبلين من شعائره، والمعنى أن السعي بين الصفا والمروة من علائم دين الله (**فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ**) بأن قصده لأجل الحج فرضا أو نفلا (**أَوِ اعْتَمَرَ**) بأن قصده لأجل العمرة وهي سنة، (**فَلاَ جُنَاحَ**) أي فلا لوم (**عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**) بالمعنى يسعى بينهما، والسعي ركن في الحج، ولكنه غير مستفاد من نص الآية، لأن نفي الحرج على الساعين بين الصفا والمروة لا يصدق بكون السعي ركنا، وبالأخص مع ما أردفه (**وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا**) أي زاد في أفعال البر من النوافل على ما افترضه الله عليه (**فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ**) لصنعه (**عَلِيمٌ**) بفعله، والمعنى أنه يجازيه مجازاة شاكر عليم، فكان لفظ التطوع صريحا في عدم ركنية السعي. ولهذا كان عند أبي حنيفة يجبر بالدم، وأما

مالك والشافعي يقولان بركنيته، وحجتهما في ذلك قوله ﷺ: «**اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي**» وغير هذا مما صح قولا وفعلا.

ولعلك تقول: ما هو الداعي لتعبيره عن الركن بنفي الجناح؟ فأقول: إن التعبير به جاء عائدا على من طاف بهما حسبما هو ظاهر اللفظ، وَأَمَّا من الطواف بينهما كما هو المطلوب لم يتعرض له ظاهر اللفظ، فبقي الأمر موقوفا على نص آخر، وهذا محتمل اللفظ، وأما على التقدير أن الطواف بهما المراد به بينهما، فقيل: إنه كان على الجبلين صَنَمَانِ حال الجاهلية، فاشمأزت نفوس المؤمنين أن تطوف بهما حال الصنمان عليهما، فنزل قوله تعالى بنفي الجناح، بالمعنى لا إثم على من فعل ذلك، لأن العبرة بالمقاصد، ولهذا أعقب ذلك بقوله: (**فإن الله شاكر عليم**) بالمعنى على علم بمقاصد العباد، وعلى هذا التقدير يكون قوله: (**ومن تطوع خيرا**)، لفظ مستنف يشمل سائر أفعال البر والله أعلم. قوله: (**إِنَّ الذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ**) وهي الآية الواضحة الدلالة (**وَالْهُدىٰ**) وهو ما يهتدي إليه الإنسان بنور العقل في أسرار الكتاب من الأشياء المحتاج إليها، المأذون في تبليغها (**مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ**) أي شرعنا تبيانه (**لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ**) جنس يشمل كل كتاب سماوي وشرع نبوي، وهو اليوم بشرعنا أولى، فمن كتم شيئا منه بأن دلس الحكم على مستحقه فلا جرم يدخل في قوله: (**أُوْلَـٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ**) أي يلعنه كل من تتأتىٰ منه اللعنة، بالمعنى يمقته ولا يقول: إن الآية نزلت في بني إسرائيل، إنما الحكم يتبع الوصف، وعموم اللفظ لا يعارضه خصوص السبب.

قال ﷺ: «**من كتم علما يعرفه بَرِيءٌ من الإيمان**» (**إِلَّا الذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا**) ما أفسدوه بسبب الكتمان، كأن يقول العالم بالحكم لمن دلس عليه في سابق الحكم كذا وكذا وهو المراد بقوله: (**وَبَيَّنُوا فَأُوْلَـٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**) اللهم تب علينا إننا تبنا إليك، وارحمنا إنك أنت التواب الرحيم.

ولما ذكر حكم التائبين، ذكر الآن حكم من كفر ومات على كفره (**إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا**) بأي شيء من أصول الدين، وأحرى من كفر بالله أو برسله (**وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ**) أي مصرون على الكفر بحيث لم يصدر منهم ما يفيد الرجوع (**أُوْلَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**) والمراد بالناس الموحدين من الإنس على ما يطابق الفهم العام، وأما من هو على شاكلة الكافرين لا تتصور اللعنة منه على مثله، ولكن النص يتضمن كون اللعنة صدرت من الناس أجمعين، وسيأتي في الإشارة - إن شاء الله - ما أوسع من هذا. قوله: (**خَالِدِينَ فِيهَا**) أي في اللعنة، فهي أولى برجوع الضمير إليها، واللائق بمن كفر ومات على كفره، لأنها عبارة عن الطرد من رحمة الله، فتكون جهنم من مظروفاتها، وإليها الإشارة بقوله: (**لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ**) أي ينتظرون وقتا للخروج، والمعنى أن عذاب الكافرين غير مؤجل.

ثم أقول إن من تتبع التنزيل يجد فيه ما يبهره من حسن الاستبصار، وكل شيء فيه بمقدار، ألا ترى أنه لما ذكر وعد من كتم الحق جاء فيه بصيغة المضارعة فقال: (**أولـئك يلعنهم الله**) لاحتمال وقوع التوبة لأن أمرهم أخف إن كان مع الإيمان، ولما

ذكر من كفر ومات على كفره فقال: (**أولـئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**) فبدلت الصيغة على حصول اللعنة والتصاقها بهم إلى ما لا غاية له، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ثم أتى تعالى بشيء ليستجمع به سائر الأفكار فقال: (**وَإِلَاهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ**) خطاب لعموم المكلفين، فكأنه تعالى يقول: معاشر العباد، إنكم متحدون بهذا الإعتبار، فلا وجهة للاختلاف والتنافر والحالة أن المعبود واحد. (**لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ**) أي لا منازع له في أُلوهيته بطريقة الاستخلاف، فهو الإلـه الواحد.

ثم أقول: إن الوحدانية بإضافتها لذات الباري جل ثناؤه يتعلق بها الكلام من وجوه، غير أن محطه الآن فيما يخص الألوهية، بالمعنى كونه واحدا في أُلوهيته، لأنها جاءت صفة للإلـه مفسرة بقوله: (**لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ**).

ثم إن اختتام هاته الجملة بالصفتين الشريفتين الرحمانية والرحيمية فيه ترويح للقلوب مما يلحقها من الهيبة والجلال، بذكر الألوهية والوحدانية والهوية التي أجملها تعالى في أوجز لفظ، ونعنيه بالقلوب المرتبطة بالمعاني القرآنية فهي المحتاجة لمثل ذلك.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**إن الصفا والمروة... إلى قوله: الرحمٰن الرحيم**) احد عشر حكما:

الأ و ل: علمنا بمطلوبية احترام الجبلين المعروفين بالصفا

والمروة من قوله تعالى: (**إن الصفا والمروة من شعائر الله**).

الثاني: علمنا أن من أخذ يطوف بهما حسبما يطاف بالكعبة لا إثم عليه من قوله: (**فلا جناح عليه أن يطوف بهما**).

الثالث: علمنا أن الأولى ترك ذلك والسعي فيما شرعت فضيلته واتضحت حريته من قوله: (**ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم**).

الرابع: علمنا أن هاته الآية لم تنص على ركنية السعي، إنما التنصيص جاء من طريق آخر يؤخذ ذلك من صريح لفظها لمن تدبرها.

الخامس: علمنا أن تدليس النصوص القرءانية والأحاديث النبوية وصرفها عما وضعت لأجله ببعض التآويل الواهية يعد من الكتمان المشار له بقوله: (**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب**) ولا يتسنى كتمان شيء تبين للناس في الكتاب إلا بنحو ما قدمناه، لأنه نظير فعل اليهود في التوراة.

السادس: علمنا أن التوبة لا تصح ممن فعل مثل ذلك إلا إذا أصلحوا ما أفسدوا وبينوا ما كتموه، يؤخذ من قوله: (**إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا**).

السابع: علمنا أن من تشبث بالإيمان ولو في آخر جزء من عمره لا يشمله وعيد ما في قوله: (**إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله...**) إلى آخره. وإن لم يصح إيمانه

على الوجه الأكمل، فهو على كل حال محتمل النجاة لتقييد الوعيد بقوله: (**وماتوا وهم كفار**) والله أعلم.

الثامن: علمنا بأن اللعنة الصادرة من عموم الناس على من كفر ومات على كفره على غير ما نتصوره من مشروطيات التلفظ بها، لأن في الناس من لم تصدر منه اللعنة البتة وبالنظر للكفار يكون اللاعنون نزرا قليلا.

التاسع: علمنا بأن أَمَدَ أهل النار من جهة المكث فيها غير معقول الغاية من قوله: (**ولا هم ينظرون**) وأما الخلود فلا يستفاد منه إلا مجرد المكث الطويل.

العاشر: علمنا باتحاد وجهة سائر الناس في المعبودية وإن اختلفت المقاصد في العبودية، من قوله: (**وإلـٰهكم إلاه واحد**) فقد أضاف نفسه تعالى لعموم المخاطبين وإن امتنعوا من إضافتهم له.

الحادي عشر: علمنا بأن الهوية من قوله: (**لا إلـٰه إلا هو**) أليق بالمقام العام من قوله: (**لا إلـٰه إلا الله**) لسريانها في كل معبود كيفما كان، بخلاف اسم الله فلا تدعه المكانة لظهور في كل إلـٰه.

الإشـــــارة

تفيد أن في الجمادات من أسرار الله ما في المتحركات، ولولا ذلك لما جاء في الصفا والمروة أنهما من شعائر الله، وفي الحجر الأسود أنه يمين الله، وكل هذا لِيَلَّا يفوتنا ما نلاحظه من سر الله في كل شيء شيء، ومن أطلعه الله على ملكوت السمـٰوات والأرض يرى كل شيء مستحق لِأَنْ يطوف به، ولو أن الشارع

جاء بتخصيص بعض البقع على بعض، وأما الإشارة في قوله تعالى: (**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب**) تحذير من أن يكتم العالم بأسرار الكتاب ما يلتمس به ظهور الحق في الكائنات، كان يدلس بعض الآيات البينات كما جرت عادة المتجرئين على كتاب الله في كل آية وجدوا فيها ما يقضي بظهور الحق وقربه من خلقه فقالوا في قوله: (**الله نور السموات والأرض**) أي منورها. وقالوا في قوله: (**وهو معكم أينما كنتم**) إنه معنا بعلمه، وهكذا في قوله: (**ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**) وقوله: (**ونحن أقرب إليه منكم**) كل ذلك بالعلم، ولم ندر أي شيء قالوا في قوله: (**فأينما تولوا فتم وجه الله**) ولا يبعد أن يكون هذا من قبيل كتمان (**ما أنزل الله من البينات والهدى**) من بعد ما بيّنه الله في كتابه بيّنًا واضح الدلالة.

وأما الإشارة في قوله: (**أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**) تفيدنا أن للخلق مع الله وجهة غير الوجهة التي هم بها شاعرون، ومن تلك الوجهة تصدر اللعنة منهم على من كفر، ومات على كفره، حتى من وجهة الكافر في نفسه، فإنه يلعن نفسه بنفسه، وتلك الوجهة هي التي يحكم بها على نفسه يوم القيامة المشار لها في قوله: (**كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا**) ومن هنا تفهم كيف يتسنى صدور اللعنة من الناس أجمعين.

وأما من الوجهة المشعور بها لا تصدر منهم اللعنة أجمعين والحق يقول: (**والناس أجمعين**).

وأما الإشارة في قوله: (**وإلهكم إله واحد**) صريحة في كون

المعبود واحد وإن تعددت المظاهر المقصودة للعبادة، بمعنى وحدة الإلـه لا تتعدد ولا تقبل الانقسام، وإلى ذلك الإشارة بقوله: **(لا إلـه إلا هو)** فهويته تعالى قابلة لدخول سائر الآلهة تحتها، فتكون عبادة العابدين راجعة لله بكل اعتبار، إما عبادة على وجهها، وإما رمية من غير راميها.

لسـان الـروح:

يرى في توسط الهوية بين الألوهية والوحدانية، والرحمانية والرحيمية، أسرارا جلية، ألا ترى أنه ذكر نفسه كونه الإلـه الواحد، ثم قال: **(هو الرحمـن الرحيم)** فدل هذا على سريان الهوية في الشقين، وفروعها جلال وجمال، لأن من الألوهية والوحدانية تتفرع الجلاليات، ومن الرحمانية والرحيمية تتفرع الجماليات، والكل راجع إلى الذات، ثم إلى غيب الذات المسمى «بهو»، وكان المرجع إلى ذلك الإسم، لأنه أبعد الضمائر على الإدراك، ولهذا قال ﷺ: **«لا أحصي ثناء عليه كما أثنى هو على نفسه»**.

قـولـه تـعـالىٰ

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَالْفُلْكِ التِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ لأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

التفسير

وبعد ما ذكر تعالى جملة فيها ما يشعر بوحدانية الإلـه، وأن لا إلـه سواه في الوجود، أعقبها بما هو أدل دليل على ذلك فقال: (**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ**) من جهة تهيئها على ما هي عليه من كونها أجساما لطيفة شفافة محيطة ببعضها، تامة في بابها، (**وَالأَرْضِ**) وما بينهما من التناقض والمقابلة على ما تقتضيه فطرتهما إلى ما شاء الله، فكل ما نقص من الليل زاد في النهار، وما نقص في النهار زاد في الليل، وهذا فيما يظهر لنا. وأما في الواقع لا نقصان ولا زيادة، فكل منها آخذ بشق الأرض، فكرة الأرض على الدائم نصفها ليل ونصفها نهار، (**لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار**) ومن حصل له اطلاع على ما أودعه الله من الأسرار في ترتيب الأفلاك (**وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ**) يعترف بداهة أن لا إلـه إلا هو العزيز الغفار، وإن كان في السابق من أهل الإنكار، وكذلك من نظر إلى (**وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ**) بأن أعتبر الهيئة المجتمعة بين الفلك والبحر والجري بما ينفع الناس، وهذا مهما كان المتفكر يعتبر الإلهام الموضوع في الإنسان المقرون بالحفظ الرباني، وإلا لما أسند آية جري السفينة في البحر لله، ولكن الخطاب جاء هنا عال من كونه آية لقوم يعقلون، (**وَ**) كذلك من اعتبر (**مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ**) والمراد بالسماء هو ما علانا من الفراغ لا نفس السماء، لما صح بالأدلة العقلية والنصوص الشرعية من أن المطر ينزل من السحاب المتكون بين السماء والأرض بسبب تصرف الرياح (**فَأَحْيا بِهِ**) أي بالماء

النازل من السماء (**الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**) بأنواع النباتات فاخضرت بعد يبسانها المعبر عنها بالموت، (**وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ**) أي في الأرض من أنواع الحيوان، ناطق وغير ناطق. فمن تتبع الأشكال والمقادير والألوان، وما اشتمل عليه جنس الحيوان، كان حقيقا بالإذعان أن يعترف بوحدانية الإلٰه، ولكن إنما يذّكر أولوا الألباب، ثم قال: (**وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ**) وهي أبلغ في الدلالة لمن تأملها من وجوه عديدة، من جهة مواضعها وكثرة منافعها، ولو لم يكن من ذلك إلا مجرد كونها مادة الأنفس لكان كافيا، ومن تصرفتها أيضا حركة السحاب المسخر بين السماء والأرض، ومنه حركة الأشجار لتساقط أوراقها لتستبدل غيرها، ومنه حركة السفن في الماء، ومنه تجفيف الأرض من الماء، من لولاه لتوخمت، ومنه حركة البحر لاستخراج مكنوناته وأرزاق الحيتان، ومن حركة النبات ليلا تشتد عليه الأرض فتمنعه النمو، وبالجملة، إن الريح من روح الله كما جاء في الحديث، يأتي بالرحمة ويأتي بالعذاب، وبيان جوهريته أنه جسم لطيف متحيز حائط بجرم الأرض من كل جانب، غمقه ما يقرب من سبعين ميلا، ثم تنقطع مادته. (**وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**) كذلك جسم لطيف غير أنه إلى الكثافة أقرب، يتكون من الأبخرة الصاعدة من الأرض بجاذبية الشمس لها، حتى إذا انتهى إلى الطبقة الباردة من الجو انعقد سحابا، ثم تأخذ الرياح في تحليله إلى أن ينقطر ماء، فهذه حكمة الله في السحاب المسخر بين السماء والأرض، وفي جميع ما ذكره تعالى

من أنواع الموجودات، وما لم يذكره (**لَأَيَاتٍ**) واضحة الدلالة على وحدانية الإلـه، ولكن (**لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**) عن الله ما أودعه في مكنون صنعه. ولما نزلت هاته الآية، قال ﷺ: «**ويل لمن قرأ هذه الآية ففح بها**» بمعنى لم يتأملها.

الاستـنـبـــاط

يستخرج من قوله تعالى: (**إن في خلق السمٰوات والأرض... إلى قوله: يعقلون**) أربعة أحكام:

الأ و ل: علمنا أن الاستبصار في المصنوعات والاستطلاع على مكنوناتها مما يمدح شرعا.

الثـانـي: علمنا أن جميع أفراد الموجودات ءايات دالة على وحدانيته تعالى.

الثـالـث: علمنا أن أشرف العباد عقلاؤهم من قولـه: (**لقوم يعقلون**).

الـرابـع: علمنا بأن الدليل العقلي مطلوب شرعا، لكن إذا كان تعلقه بالمصنوعات ليستدل بها على وحدانية الذات حسبما نصت عليه الآيات.

الإشـــــارة

ترى جميع ما تسلط عليه اسم الخلق يتحد في حد الآية وبهذا الاعتبار، لا يتأتى للبصير أن يصرف نظره عن أي شيء، بدون

ما يتأمل وجه دلالته من كونه ءاية من الله، بحيث يصح أن يصل به إلى الله، فلزمه بهذا الإعتبار أن يقف مع كل حجر ومدر، وصالح وفاجر، ليرى ما وجه دلالة الصالح بصلاحه، والفاجر بفجوره عن وحدانية الله، وإلا كان معرضا عن آيات الله، فلا جرم يلحقه ذم ما في قوله: (**وكأين من آيت في السمٰوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون**).

لسان الروح

يقول إن الآية تومي إلى غير الأجرام الظاهرة على ما تضمنته الظرفية من قوله: (**إن في خلق السمٰوات والأرض**) فكأنه يقول: ليست الآية المشار بها لأهل العقول نفس السماء ولا في السماء، إنما هي في خلق السماء فليتأمل، لأن الخلق ليس هو بخالق ولا مخلوق، إنما هو القدر المشترك بين النسبتين الحقية والخلقية والآيات فيه. ومن آياته أن له وجهتين: فالوجهة الحقية منه اتصافه تعالى بالخلّاق قبل خلقُ الخلق، فهو لم يزل خلاقا أزلا وأبدا، وأما وجهة الخلقية منه، هي المشار لها بقوله: (**هذا خلق الله**).

قوله تعالىٰ

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ، وَالذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِلّهِ، وَلَوْ تَرَى الذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ، إِذْ تَبَرَّأَ الذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ

وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الاَسْبَابُ، وَقَالَ الذِينَ اتَّبَعُواْ لَوَ اَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا، كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ، وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النّارِ

التفسير

وبعد ما قدم تعالى أبهر دليل على وحدانيته وأكمل داعٍ في تربية القلوب عليه، أتى بآية كالمستغرب ممن يستبدل حبه بحب غيره، أو يشاركه فيه، فقال: (**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَنْدَاداً**) أي أشباهاً، ووجه الشبهية في كونهم (**يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ**) وأما الشبيهية أو المثل في نفس الأمر ليس بموجود حتى يتخذ ربا.

ثم اعلم، إن الأنداد هنا عبارة عما تتمكن محبتهم من العقلاء، فيصرف على ما هو كالأحبار والرهبان، وإن كان مدلول الكلمة أعم، يشمل ما كالصليب والأوثان ونحوهما، غير أن صرفه على ما ذكرناه أليق وأنسب للمقام، بدليل ما أورد في مثل ذلك من قوله: (**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا**) وما اتخذوهم للركوع والسجود، وإنما وجه اتخاذهم أربابا إنهم يحللون لهم ويحرمون عليهم بأهوية أنفسهم، فيتبعونهم على ذلك كما جاء في الأثر، وما ذلك إلا لشدة محبتهم لهم، فأنزلهم تعالى منزلة من اتخذهم أربابا، غير أن هؤلاء غالب على قلوبهم حب الأحبار على حب الله، فكانت الأحبار أربابا لهم بهذا الإعتبار، وأما المشار لهم الآن لم يبلغوا تلك الدرجة في محبة أحبارهم، إنما كانوا يحبون

أحبارهم ورهبانهم كحب الله، وعليه فالمنصوص عليه الآن هي التسوية بين محبة الحق وغيره كيفما كان، فلابد من إعطاء المراتب مستحقها، ولا يلزم محبتنا أنبياءنا وصلحاءنا وعلماءنا التسوية في محبتنا لله، وإلى ذلك الإشارة بقوله: (**وَالذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلّهِ**) فكأنه تعالى يقول: وكذلك المؤمنون يحبون أنبياءهم وعلماءهم، غير أن محبتهم في الله أشد، ليست كمحبة هؤلاء مشتركة، وبالجملة، إن محبة الله حقها بالانفراد، وحتى إذا أَحَبَّ العبد شيئا حقه أن يحبه بحب الله له، حتى إذا أَحَبَّ شيئا يكون حبه لله بهذا الإعتبار، وعليه فالمؤمنون لا يحبون إلا الله وفي الله لا غير، وكل من أَحَبَّ شيئا لذاته لا لله، فقد أشرك في حب الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم أقول: إن هاته الآية ليس حظ المتقدمين منها بأوفر من حظ المتأخرين، فقد يوجد في عامة المسلمين من يحب صلحاء الأمة كحب الله إن لم نقل أشد حبا من الله، فيتقربون لهم بالذبائح والأنذار، ويطعمون الطعام بالخصوص لأجلهم على ما يظهر، وقد كنت تكلمت مع إنسان يريد أن يجعل طعاما، فقلت: لمن قصدت بهذا الطعام؟ قال: قصدت سيدي فلان. قلت له: ألا تجعله لله، ثم تصرف ثوابه لسيدي فلان، قال لي: نجعله لله ولسيدي فلان. فقلت له: إن الله لا يقبل العمل المشترك. فقال لي: إن لم يقبل نجعله لسيدي فلان خالصا، وقام في حال سبيله. غفر الله لنا وله، ولم ندر أهذا ممن جعل له أندادا يحبونهم كحب الله، أم حبه لصاحبه أشد من حب الله؟ اللهم ارحم علماءنا، واغفر لجهلائنا، إنك أنت الغفور الرحيم.

ثم قال مخاطبا للنبي ولمن تتأتى منه الرؤية (**وَلَوْ تَرَى الذِينَ ظَلَمُوا**) باتخاذهم أندادا في محبة الله، فكان ذلك سبب شركهم بالله، كيف يكون حالهم: (**إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ**) يوم القيامة محيطا بهم بسبب شركهم (**أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا**) وليس لشركائهم أدنى شيء مما كان في ظنهم، إن الأمر يومئذ لله (**وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ**) لمن مات على ظلمه، والمعنى أن الأمر والحسرة التي تقع لمن اتخذ أي ند من دون الله، أشد مما تتخيله أيها المتلقى للخطاب، وبالأخص (**إِذْ تَبَرَّأَ الذِينَ اتُّبِعُوا**) وهم الرؤساء والأحبار المتقدمون في الذكر (**مِنَ الذِينَ اتَّبَعُوا**) أي من أتباعهم، كأن يقول المتبوع لتابعه إني بريء مما اعتقدتموه في، ثم إنه إما أن يكون صادقا في براءته كعيسى - عليه السلام - عندما قال: « **ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم** » وإما أن يكون كاذبا كإبليس عليه اللعنة لما يقول: (**إني كفرت بما أشركتموني من قبل**) وما وقعت براءة الرؤساء من المرءوسين إلا بعدما تحققت عندهم أن القوة لله جميعا (**وَرَأَوُا الْعَذَابَ**) أي عاينوه. (**وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الاَسْبَابُ**) أي روابط التابعية والمتبوعية ذلك يوم التغابن (**وَقَالَ الذِينَ اتَّبَعُوا**) لما عاينوا تنصل المتبوعين منهم بعدما كانوا هم السبب الواحد في ضلالتهم، لأن صلاح المرءوسين مستفاد من صلاح الرؤساء، فاشتدت حسرتهم على ذلك وقالوا (**لَوَ اَنَّ لَنَا كَرَّةً**) أي ليت لنا رجعة إلى الدنيا (**فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا**) ولكن سبق القول عليهم، فلا تزيدهم حسرتهم إلا حسرة. (**كَذَلِكَ**

يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ) أي ليزدادوا بذلك حسرة، بمعنى ضيقة وشدة وندامة على سوء ما عملوه من تأثير الخلق على الخالق، أو التسوية بينهما. ثم قال: (**وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النّارِ**) كلام مستأنف، وفيه من بيان حالهم بعد الدخول إلى النار نعوذ بالله من سوء القرار.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**ومن الناس من يتخذ من دون الله... إلى قوله: وما هم بخارجين من النار**) ستة أحكام:

الأول: علمنا بأن الله غيور من أن يكون لغيره محبوبية في قلوب عباده، حتى يقع التساوي بينهما من قوله: (**يحبونهم كحب الله**) والمعنى أنه لا يرضى أن تكون المحبة أنصافا، وأما الشيء القليل يغتفر.

الثاني: علمنا بأن المؤمنين حقيقة ينبغي أن يكونوا أَشَدَّ حبا لله، وإلا لم يصح إيمانهم على الوجه الأكمل من قوله: (**والذين آمنوا أشد حبا لله**) وقال ﷺ: « **ألا لا إيمان لمن لا محبة له** ».

الثالث: علمنا بأن المؤثر لمحبة الخلق على محبة الله يقال فيه ظالما، من قوله: (**ولو ترى الذين ظلموا**).

الرابع: علمنا بأن الرؤساء يوم القيامة يتبرءون من المرءوسين، إلا إذا كانت الرابطة الإلهية من قوله: (**إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا**).

الخامس: علمنا بأن سائر الأسباب تنقطع يوم القيامة، إلا ما كان عن وصلة شرعية، من قوله: (**وتقطعت بهم الأسباب**).

السادس: علمنا بأن الحسرة من أنواع العذاب يوم القيامة، بل أشد منها من قوله: (**كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم**).

الإشارة

ترى كل من تغفل عن ملاحظة جمال الحق في الكائنات، لابد وأن يجعل لله أندادا يحبهم كحب الله، وإلا فكيف يفرغ قلب لخالص محبة الله مع ما جبل عليه الإنسان من محبة الأهل والأولاد وما شاكلهما من زينة الحياة الدنيا، وحتى لو قلنا إنه ليس هذا بند على الوصف التام، فلا يبعد من أن يكون من الملحقات، وهذا فيمن فاته جمال الحق. وأما المتيقظ ليس ميله للمحبوبة من القبيل الأول، وإنما يكون ميله للشيء من طريق آخر، قال ﷺ: «**حبب إلي من دنياكم ثلاث**» فإنه لم يقل أحببت بإسناد الفعل لنفسه، فكأنه متجرد عن الشيء مع رغبته فيه.

ولعلك تتشوف إلى مثال يوضح لك الفرق بين من يلاحظ جمال الحق في الكائنات، وبين من لم يلاحظه وإن مع وقوع الأبصار عليه، يقاربه ظهور نور الشمس في الكواكب من جهة كون الناس متحدين في النظر، ومن جهة إدراك ضي الكواكب مختلفين في المنظر، فمنهم ملاحظ لنور الشمس في الكوكب، فهو لا يرى الكوكب البتة، بهذا الاعتبار، ومنهم من يرى الكوكب لا غير، فالأول يعتبر الكوكب لظهور نور الشمس فيه، والآخر يعتبر الكوكب لذاته، فالأول عارف لربه والثاني ظالم

لنفسه، ومن هنا تفهم قوله: (**والذين ءامنوا أشد حبا لله**) وإن مع حبهم لأغلب المحبوبات.

وأما الإشارة في قوله: (**إن القوة لله جميعا**) تقول: لا يتحقق ذلك إلا مع كشف الغطاء عندما يوجد كنه القوة لا يقبل الانقسام، وهي صفة لله، فاللازم يتحقق أن القوة لله جميعا.

وأما حال الحجاب لا يرى القوة إلا متفرقة تختلف شدة وضعفا باعتبار أفراد الكائنات، فهو أبعد من أن يراها لله جميعا، وحتى إذا قال بها فمجرد تلقين لا على سبيل اليقين.

وأما الإشارة في قوله: (**إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا**) تحذر الاتباع مما يقع من المتبوعين يوم الحساب حتى يكونوا على بصيرة مما هم بصدده، فربما يكون المتبوع ممن يتبرأ من متبوعه يوم القيامة، يوم يدعوا الله كل أناس بإمامهم، فقد تتقطع - والله - الروابط والأسباب إلا الرابطة الإلـٰهية والأخوة الحقيقية، قال ﷺ: « **المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل** ».

لسان الروح

يرى محبة البشر لله أبعد من أن تتحقق له حالة كونه بشريا لبعد المجانسة، إلا إذا تدلى له فياض من قدس الإلـٰه فيخلعه من بشريته ويصير روحانيا ربانيا، قال تعالى: (**ولكن كونوا ربانيين**) وهناك تتحقق المحبة لوجود المناسبة، وعلى كل حال محبة الله للعبد سابقة عن محبة العبد له (**يحبهم ويحبونه**).

قــولــه تــعــالىٰ

يَآ أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الاَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا، وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ، إِنَّمَا يَامُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ، وإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ، أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ، وَمَثَلُ الذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَآءً وَنِدَآءً، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ

التـفـسـيــــــر

خطاب عام: (**يَآ أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا**) بمعنى الإذن والإباحة (**مِمَّا فِي الاَرْضِ**) أي مما يؤكل من النباتات والأنعام الصالحات للأكل مما لم ينص الله على تحريمها، حالة كون المأكول (**حَلاَلاً طَيِّبًا**) والمعنى مهما كان حلالا إلا وكان طيبا، لأنه تعالىٰ أَحَلَّ الطيبات وحرم الخبائث. ثم أتى بما فيه تحذير فقال: (**وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ**) أي لا تسلكوا طريقه واحذروه مما يلقيه إليكم من الخواطر (**إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**) أي متظاهر بالعداوة لبنى آدم. فاحذروه قاتله الله (**إِنَّمَا يَامُرُكُم بِالسُّوءِ**) أي بالفعل السيء كيفما كان، وحتى لو أمركم بطاعة فلا تخلوا من أن تكون مدخولة بمعصية، لأنه مجبول على الأمر بالسوء (**وَالْفَحْشَاءِ**) أي المعاصي الفاحشة لا يتأتىٰ له أن يأمر

بالخير البتة إلا بمثل ما تقدم. (**وَأن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**) وهذه درجة أعلى مما تقدم، ولا يامر بها إلا من يرجى نفوذ أمره ليفتري على الله، ويزيد في الدين ما ليس فيه، ويخشى أن يكون هذا شاملا من يتكلم في ذات الله وصفاته من المتكلمين، لأنهم على غير يقين من ذلك، فتراهم يقولون على الله ما لا يعلمونه في ذاته من جهة النفي والاثبات في حقائق الصفات، مع علمهم أنه تعالى منزه عن تصرفات الافكار والأوهام، وعلائق العقول والافهام، فالصفة معقولة، والكنهية مجهولة، فالواجب على العقول الوقوف وترك التكلف إلا في الشيء المعروف، وأين هي من الهوية. ثم أعدل تعالى عن طريقة المخاطبة إلى الالتفات تقبيحا لحال المحكي عنهم فقال: (**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ**) أي لمن لا شرعة لهم، أو لهم شرعة غير أنهم للعوائد أَمْيَلَ منها إلى الأحكام السماوية (**اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ**) من الأوامر والنواهي (**قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا**) أي ما وجدنا أسلافنا من غير ما نبحث على ما كانوا عليه، قال تعالى استغرابا لقولهم: (**أَوَ لَوْ كَانَ ءَبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا**) من العلم النافع، (**وَلاَ يَهْتَدُونَ**) لمن استهديهم، والمعنى أنهم يريدون متابعة آبائهم ولو كانوا مثل الأنعام أو أضل سبيلا.

ثم إن هاته النزغة لم تزل سارية في جهالة الأمة مهما استهديتهم لفعل ربما يكون لهم فيه السعادة الأبدية، يقولون بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، وكل ذلك من سوء التربية، قال تعالى: (**وَمَثَلُ الذِينَ كَفَرُوا**) جملة ابتدائية أتى بها تشبيها في عدم أهليتهم وبعدهم عن الشعور. (**كَمَثَلِ الذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ**

إلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً) والمعنى تتضح بتقدير الداعي، فكأنه تعالى يقول: ومثل من يدعو الكفار إلى الهدى وسبيل الحق، كمثل ناعق، وهو سارح الغنم ينعق بشيء لا يسمع من نعيقه شيئا، إلا دعاء ونداء، إلّا صَوْتًا ودويا، لأن الغنم لا تفهم من نعيقه شيئا، فهذا مثل الكفار مع من دعاهم إلى الحق **(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ)** شيئا مما دعوا إليه، وهي منزلة أخس المنازل في الدناءة، لأنها فصلتهم من الإنسانية وربطتهم بما لا يعقل.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: **(يأيها الناس كلوا... إلى قوله: فهم لا يعقلون)** سبعة أحكام:

الأول: علمنا بأن الإباحة معلقة مقيدة بأشياء، وإلا لدخلت في ذلك الميتة والدم ولحم الخنزير وأموال الناس أيضا تؤخذ من قوله **(مما في الأرض)** حيث لم يقل: كلوا ما في الأرض.

الثاني: علمنا بأن الله تعالى نهى العبد من أن يسير ولو خطوة في سبيل الشيطان، وأحرى أن يسلك سبيله يؤخذ ذلك من تعبيره بالخطوات في قوله: **(ولا تتبعوا خطوات الشيطان)**.

الثالث: علمنا بأن الشيطان أمره لا يخرج عن السوء والفحشاء، بمعنى جبليته لا تقبل ما وراء ذلك، فلزمنا تهمته كيفما كان أمره من قوله: **(إنما يأمركم بالسوء والفحشاء)**.

الرابع: علمنا بأن القول على الله بغير علم من أكبر الكبائر، كأن يفتي الإنسان في دين الله على غير علم، وكذلك الكلام في

ذات الله وصفاته، وهو على غير بينة من ربه، من قوله: (**وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**) حيث ذكر تعالى ذلك عقب السوء والفحشاء.

الخامس: علمنا بأن تقليد الآباء فيما كانوا عليه بدون مراعاة مُرَادَ الشارع منا ممنوع، من قوله: (**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه ءاباءنا**).

السادس: علمنا بوجوب مراعاة كتاب الله قبل كل شيء من قوله: (**اتبعوا ما أنزل الله**).

السابع: علمنا أن من طبع الله على قلبه من الكافرين لا يأخذ من النصائح شيئا إلا دعاء ونداء، أي لا يسمع من الداعي إلى الله إلا مجرد صياح كما تسمع المواشي من راعيها بما ختم الله على قلبه، فلهذا لا يستفيد شيئا.

الإشارة

في قوله: (**ولا تتبعوا خطوات الشيطان**) خطاب للنفوس المتوجهة إلى الله بالتنصيص على الواردات الشيطانية، ليكون المتوجه منها على بصيرة، فذكر تعالى أنها محصورة في السوء والفحشاء، وفي القول على الله بغير علم، فينبغي للسالك أن لا يتوهم فيها كونها من الشيطان بعد تنصيص الله عليها، فأول درجة الوارد الشيطاني يأمر بالسوء كيفما كان، فإذا تمكن ذلك من القلب يترقى إلى الأمر بالفحشاء، فإذا تمكن ذلك من القلب استوطن حينئذ منه، وكان أسكن منه، وأوثق بصاحبه أن يقول على الله ما لا يعلم. قال تعالى: (**أتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم**).

وأما الإشارة في قوله : (**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله**) تشمل المتقاعدين عن النهوض في طلب الله المكتفين بنسبة آبائهم في الطريق ، فإذا قيل لهم من لسان المرشد أو نائبه : اتبعوا ما أنزل الله الآن من الفتح البين على أوليائه وخلفائه ، واسلكوا طريقهم . قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فتجد كلا مقيدا بنسبته لا يتزحزح عنها ، وإن كان المدعو له نصيب من العلم ، وآباؤه لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ، فهو راض أن يكون على جمود آبائه في طريق الله فبئسما فعلوه .

ثم أتى تعالى بمثال الداعي إلى الله بين من لم يجب دعوته فقال : كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صمٌّ لا يسمعون النصح ، بكم لا يتكلمون بالحق ، عمي لا يبصرونه وإن اتضح ، وبالجملة فهم لا يعقلون شيئا من أمر الداعي إلى الله .

قوله تعالى

يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلهِ إِن كُنتُمُ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ، إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ والدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ ، فَمَنُ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلآَ إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

التفسير

فليتدبر ما تقدم من الخطاب ، وذلك أنه لما كان متعلقا بالعموم شركهم تعالى مع الدواب ، حيث استلفتهم إلى الأرض

فقال: (**كلوا مما في الأرض**) ولما استلفت الآن في الخطاب للمقام الخاص وَضَعَ لهم مائدة غير الأولى فقال: (**يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**) فإنه لم يقل من الأرض تشريفا لقدرهم من أن يتصلوا بالهوام، وفيه إذن لهم بالرفاهية في العيش مهما كان مقرونا بالشكر المأمور به في قوله: (**وَاشْكُرُوا للهِ**) الذي أنتم مؤمنون به (**إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**) فالشكر من العبادة أيضا، والمعنى أن الرفاهية في العيش ليست ممنوعة مهما كانت مقرونة بشكر المنعم، وأنه تعالى لم يحرم من الطيبات شيئا (**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ**) ومن البديهة أنها ليست من الطيبات (**وَالدَّمَ**) وهو مما تستقذره النفس الكريمة (**وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ**) والمراد به جميع أجزائه، وتخصيص اللحم بالذكر من باب التغليب، وليتعلق به الحكم بعد إزهاق الروح مِنْهُ، لا حالة كونه حيا، فإنه طاهر. ألا ترى أن الميتة لما كان الحكم فيها مُتَّحِدًا لم يقل فيها ولحم الميتة، بل قال: الميتة، فتبارك الله ما أعلى خطابه، ومن جهة كون الخنزير من الخبائث المستقذرات هو ما يجده المؤمن من نفسه من استقذاره له بالطبع، وحتى لو قلنا إن ذلك مما تربت عليه النفوس، فقد اتضح الآن عند المتأخرين من أهل الإستكشاف الوقتية، أنهم عاينوا بالمكبرة في لحم الخنزير من الجراثيم المضرات ما يتعين التوقي منه، وقد قال حكماؤنا: «إن أكل الخنزير يورث ضعف الغيرة على أهله». ولهذا تجد المسلمين أشد غيرة على حريمهم من غيرهم.

ثم قال: (**وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ**) كذلك دخل فيما حرم

علينا، والمراد به الذبائح المقصود بها غير الله حال الذبح، لأن المذبوح إما أن يكون مخصوصا به وجه الله كالضحية والهدي، وإما أن يكون مقصودا به الانتفاع بلحمها وجلدها وصوفها أو وبرها، وإن خرج القصد عن هذين الأمرين لا تؤكل، لأنه إما أن يكون عبثا أي بغير قصد، أو يكون بقصد التقرب لغير الله، وهذا هو المنصوص عليه الآن، فهو لا يؤكل كيفما كان ذلك المتقرب إليه وليا أو صليبا مثلا، وتخشى أن تكون من الملحقات أو نفس المسئلة حسبما تفعله العموم من الذبائح لبعض الضرائح، أو بإسم الجن، وهي المسماة عندهم بـ« النشرة » فالواجب على علمائنا التنبيه عن مثل ذلك بالخصوص.

ثم اعلم، إن الميتة هي عبارة عما يؤكل من الحيوانات إذا زهقت روحه على غير الوجه الشرعي المعبر عنه بالذكاة أو النحر أو العقر، فيكون ما لا تعمل فيه الذكاة ميتة وإن ذكي، وما لا تشترط فيه الذكاة كالجراد وصيد البحر ونحوهما مما هو كالخشاش من قبيل المذكى، وعلى هذا يكون في إطلاق الميتة تخصيص.

ثم اختلفوا في الميتة المنصوص عليها هل هي محرمة بجميع أجزائها كالجلد والعظم والشعر، بمعنى لا ينتفع بشيء من ذلك؟ وبذلك قال الشافعي. وكان يرى أن الشعر مما تحلله الحياة. وقال أبو حنيفة بجواز الانتفاع بجميع ذلك، واستدل بما ورد عن رسول الله ﷺ في شاة ميمونة إنما حرم من الميتة أكلها. ومنع مالك الانتفاع بعظم الميتة، وأجازه في الجلد والشعر.

ثم استدرك تعالى شيئا من مدخول (إنما) ليستخرجه من

الشمول فقال: (**فَمَنُ اضْطُرَّ**) أي فمن لم يجد مندوحة عن الأكل مما تقدم بأن ألجأه الجوع إلى الأكل، أو أكره على ذلك، والحالة أنه كان (**غَيْرَ بَاغٍ**) على إمام المسلمين بمعنى خارج على طاعته (**وَلَا عَادٍ**) أي متعد بكقطع الطريق مثلا (**فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ**) في أكله الميتة أو الدم أو لحم الخنزير، وأما الباغي أو العادي فيأكل، غير أنه مأثوم، ولم ندر هل إثمه لمجرد البغي والاعتداء، أم يضعف بسبب أكل الميتة لأنه المتسبب في الأكل، بسبب جنايته بالخروج عن الطاعة التي ألجأته إلى أكل الميتة. ثم أتى تعالى بما فيه احتمال لغفران تناوله الميتة حال البغي فقال: (**إِنَّ اللهَ غَفُورٌ**) وهذا أليق بالمتناول حال البغي، وأما المضطر غير الباغي فقد يتناوله اسمه (**رَّحِيمٌ**) بمعنى أنه أرحم بعباده من أن يحرم عليه تلك الأشياء حال الاضطرار.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**يا أيها الذين ءامنوا كلوا من طيبات... إلى قوله: غفور رحيم**) اثنا عشر حكما:

الأول: علمنا بأن المؤمن مأذون له من جهة الرفاهية في العيش مهما علم من نفسه السلامة من قوله: (**يا أيها الذين ءامنوا كلوا من طيبات**).

الثاني: علمنا بأن شكر النعمة من الواجبات من قوله: (**واشكروا لله**) حيث ذكره عقب ذكر الطيبات.

الثالث: علمنا بأن العبادة أوجب من الشكر، حيث علقها عليها في قوله: (**إن كنتم إياه تعبدون**).

الرابع: علمنا بأن المحرمات المذكورة هنا، هي أشنع في التحريم من غيرها في الحيوانات، لتخصيصها بالذكر وحصرها بإنما.

الخامس: علمنا بأن الحيوانات المسكوت عنها كالخيل والبغال وما يشاكلهما تقدم حال الاضطرار وجوبا، وأمرها أخف في الاختيار، وإن مع وجود نص آخر، للتنصيص على ما تقدم في غير ما مرة.

السادس: علمنا بأن ترك الانتفاع بأجزاء الميتة أولى من قوله: (**إنما حرم عليكم الميتة**) حيث لم يقيد التحريم بالأكل ولابغيره، فالتحريم للأكل أوجب، والاحتياط أنسب.

السابع: علمنا بجواز الانتفاع بشعر الخنزير مهما جزى لبعد مجانسته للحم المنصوص عليه في قوله: (**ولحم الخنزير**) بخلاف ما هو كالجلد والشحم فقد يطلق على الجميع لحما لوجود المناسبة والامتزاج.

الثامن: علمنا بأن الذبائح هي من أنواع العبادة، ولهذا كانت لا تجوز لغير الله.

التاسع: علمنا بأن المضطر له حكم بانفراده في كل شيء شيء، من تخصيصه بالحلية في نفس التحريم.

العاشر: علمنا بأن الباغي والمتعدي إذا تناول ما كالميتة في حالة بغيه يكون مأثوما، لتخصيص المضطر بكونه غير باغٍ، ولا عادٍ.

الحادي عشر: علمنا بأن أكل الباغي والعادي من الميتة أولى من موته جوعا، من قوله: (**إن الله غفور رحيم**).

الثاني عشر: علمنا بأن المضطر إذا اجتمعت لديه الأربعة المحرمات يقدم ما أهل لغير الله به، لتأخره في الذكر عما قبله، لبعده عن المستقذرات في الصورة، ويؤخر الميتة لأنه أمكن في باب التحريم من جهة ما ترتب عليها من الحكم وقذرات العين والاضطرار بذات الآكل ما ربما يلحق في الغالب، ولهذا قدمت في التنصيص على المحرمات.

الإشـــــارة

قال بعض المفسرين في قوله: (**إن كنتم إياه تعبدون**) أي تعرفون، وعلى هذا يكون الإذن لأهل مقام الإيمان بالرفاهية في العيش معلقا على شرط المعرفة الخاصة، وأما المعرفة العامة فهي ثابتة لهم من ندائه تعالى لهم بالإيمان. وأما الشكر في قوله: (**واشكروا لله**) فهو يختلف باختلاف معرفة المنعم، فمن عرف مجرد النعم الظاهرة فحظه من الشكر مجرد اللسان، ومن عرف النعم الباطنية فحظه من ذلك شكر الجنان، وإذا أراد الإنسان أن يصل إلى الشكر الأعظم فليلاحظ النعم في وجود النقم، وعند ذلك يقال فيه شاكر، (**وقليل من عبادي الشكور**).

اما الإشارة في قوله: (**إنما حرم عليكم الميتة...**) إلى آخره. يحملها المتوجهون إلى الله على الدنيا، ومظروفاتها من النجائس، لأنها جيفة، قال ﷺ: «**الدنيا جيفة وطلابها كلاب**» فلا يجوز لهم تناولها إلا مع إضطرار. لقوله: (**فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه**). وهل يجوز لهم أن يتزودوا منها؟ في ذلك خلاف، والمعنى أن قوت المتوجه منها حلال. قال ﷺ:

«إذا كانت الدنيا مرجة من دم كان قوت المؤمن منها حلالاً» غير أن الأكل من الميتة يكون الله أعلم به حالة أكله، فهو بالطبع غير راغب، وقد يأكل الإنسان من الميتة برغبة إذا كان على غير علم بميتتها أو مستحلاِ لذلك.

لسان الروح

في قوله تعالى: (**واشكروا لله**) يرى تمام المعنى عند قوله: (**إن كنتم إياه**) وعليه فاشكروا لله تكونوا عابدين، لأنه مقام يستلزم الشكر، غير أن الله يكون فيه هو الشاكر، لانطواء العبد فيه حالة قربه منه (**فإذا أحببته كنت**) زيادة على ما جاء في بعض الروايات (**كنت سمعه وبصره...**) إلخ.

قوله تعالى

اِنَّ الذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً اَوْلَـٰئِكَ مَا يَاكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ، اَوْلَـٰئِكَ الذِينَ اَشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، وَإِنَّ الذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ

التفسير

وبعدما ذكر تعالىٰ من المحرمات ما يستحق الذكر، علق وعيدا شديدا على من يكتم شيئا من أحكام الله فقال: (**إِنَّ الذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابَ**) بأن يخفوا شيئا من أحكامه على مستحقه ولو بتأويل بعيد. (**وَيَشْتَرُونَ بِهِ**) أي بذلك الكتمان (**ثَمَنًا قَلِيلاً**) وإن كان فعلهم ذلك في مقابلة الدنيا بأجمعها، فمتاع الدنيا قليل في مقابلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. (**اوْلَـٰئِكَ مَا يَـاكُلُونَ فِي بُطُونِهِمُ**) من الثمن المستفاد من كتمان الحق (**إِلَّا النَّارَ**) فبقدر ما وصل إلى بواطنهم من ذلك يصلها يوم القيامة من النار، زيادة على العذاب الذي يتضمنه دخول النار. (**وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) بمعنى لا يعبؤ بهم (**وَلاَ يُزَكِّيهِمْ**) بأن يقبل معاذرهم فيما اعتذروا به، أو لا يطهرهم بمعنى لا تلحقهم مغفرة. (**وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ**) أي مؤلم يتعذر وصفه تفصيلا. (**اوْلَـٰئِكَ الذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ**) أي استبدلوها (**بِالْهُدىٰ وَالْعَذَابَ**) كذلك استبدلوه (**بِالْمَغْفِرَةِ**). ولفعلهم هذا أتى تعالى لما يدل على التعجب فقال: (**فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النّارِ**) أي فما أشد صبرهم على النار، فكأنهم يرون من قوتهم ما يقاومون به عذاب النار، وفي الغالب يلحق من هذا الوعيد أهل الرشوة كالقضاة ونحوهم من أهل المناصب، لأنهم يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ليشتروا به ثمنا قليلا (**ذَٰلِكَ**) أي الوعيد السابق المشار له (**بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ**) وكان في الماضي بالتوراة أنسب (**بِالْحَقِّ**) أي مطابقا ما فيه لأوصاف النبي. (**وَإِنَّ الذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ**) من جهة

الأوصاف الدالة على محمد ﷺ، **(لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)** من جهة الإثبات والنفي، فالذين ءامنوا يقولون بالإثبات وغيرهم بالنفي، وهذا مهما حملنا الخطاب على بني اسرائيل من جهة ما كتموه من أوصاف النبي، وأما إذا انتشر الحكم من جهة الكتمان، فلا أمة تكون أولى بالوعيد من الأخرى.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالىٰ: (**إن الذين يكتمون... إلى قوله: لفي شقاق بعيد**) أربعة أحكام:

الأول: علمنا بأن من كتم شيئا من الكتاب لأجل حظ دنياوي إنما يأكله في بطنه يوم القيامة نارا.

الثاني: علمنا بأن الله تعالى يوم القيامة يكلم المؤمنين من قوله في حق أعدائه: (**ولا يكلمهم الله يوم القيامة**).

الثالث: علمنا بأن من كتم شيئا من أحكام الله فإنه اشترى الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، حسبما صرحت به الآية.

الرابع: علمنا بأن المختلفين في كتاب الله في أقصى درجة التباين، من قوله: (**لفي شقاق بعيد**).

الإشارة

ترى كما أن أهل الكتاب اختلفوا في أوصاف النبي في التوراة، وأنهم لفي شقاق بعيد من جهة الإثبات والنفي، فكذلك

أهل النظر اختلفوا في ظهور الأنوار المحمدية في هذا المظهر المعبر عنه بالكتاب في اصطلاحاتهم، فأما الذين يرون الوجود فارغا من ذلك فلا يعدون في طبقاتهم، وهم المشار لهم بقوله تعالى: (**كلا بل ران على قلوبهم**) ومنهم من يلاحظ أنواره في اللطائف وتغيب عنه في الكثائف، ومنهم من يعقلها في النفائس وينكرها في الخسائس، وقل من يلاحظ أنواره في الوجود أجمع، من أجل ما يقع عليه النظر من المذمومات عقلا وشرعا، وإن مع علمه بأن الله نَزَّلَ الكتاب بالحق، غير أن الحق قد يظهر له في شيء ويغيب عليه في أشياء.

قوله تعالىٰ

لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَـٰكِنِ الْبِرُّ مَنَ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابَ وَالنَّبِيِّئِنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبىٰ وَالْيَتَامىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ، أُوْلَـٰئِكَ الذِينَ صَدَقُواْ، وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ

التفسير

هذا وإنه لما اشتد التشاجر بين المسلمين وغيرهم في أمر القبلة لما حولت، وظن كل أحد انحصار البر فيما هو عليه من

جهة التوجه، أتى تعالى بما يشعرهم بمعنى البر ما هو فقال: (**لَّيْسَ الْبِرُّ**) معاشر العباد في مجرد (**أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**) ثم إن الحكم وإن كان شاملا عموم التوجهات فمساسه بأهل الكتاب أشد، لتنصيصه على القبلتين: اليهودية والنصرانية دون الإسلامية. وعلى كل، فليس البر بمنحصر في تولية الوجه إلى جهة مخصوصة (**وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ**) الذي حقه أن يسمى برا، هو بر (**مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ**) الإيمان الكامل على الوجه الذي جاء به التنزيل، ويدخل في ذلك وصفه تعالى بالكمالات، وتنزيهه عن النقائص، والاعتراف له تعالى بالقدرة المطلقة على كل مقدور، والإرادة الشاملة لكل مراد، والعلم المحيط بكل معلوم كيفما كان، ويستطرد هذا في جميع ما يخصه تعالى من الكمالات، بدون ما يتكلف لوجه الكيفية فيما وصف تعالى به نفسه من آيات الصفات، غير أنه ينزهه عما يوجد في خلقه من لوازم الأجرام.

ثم إن الإيمان المطلوب، الأولى فيه أن يكون غير ناشيء عن تقليد، إنما يكون مستفادا مما تضمنه الوجود حال انتظامه. ثم أتى بالقاعدة الثانية من قواعد الإيمان فقال: (**وَالْيَوْمِ الآخِرِ**) عطفا على الإيمان بالله. والمراد به التصديق بالبعث ليوم الجزاء، وما يدخل تحت ذلك من وجود الجنة والنار، والصراط والميزان، والحوض والشفاعة، ونفوذ الوعد والوعيد، ومنه عذاب القبر أيضا. ولا تطلب الكيفية في أحوال الآخرة، لأن طوارئها بعيدة عن الإدراك لكونها طورا آخر، والإنسان لايستطيع أن يدرك ماهية الطور على ما هو عليه قبل حلوله

فيه. ثم قال: (**وَالْمَلَائِكَةِ**) فهذه القاعدة الثالثة من قواعد الإيمان، والمراد بذلك التصديق بوجودهم حسبما أخبر الله بهم من أنهم (**لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون**) بحيث لايصفهم بنقص مما تتضمنه الأوصاف البشرية، ولا يلحقهم بالألوهية.

ثم أتى بالقاعدة الرابعة فقال: (**وَالْكِتَابِ**) جنس يشمل سائر الكتب السماوية، وبمعنى يصدق بها وبجميع ما تضمنته. ثم قال: (**وَالنَّبِيئِينَ**) جمع نبي وهو أهم من الرسول فيكون شاملا لكل مبعوث وإن لنفسه، بمعنى تعترف بوجود النبيئين وبما جاؤا به، ويعطيهم ما يستحقونه من الأوصاف كالصدق، والأمانة، والتبليغ، والفطانة. وكل ذلك تتضمنه الصفة الجامعة وهي العصمة التي خصهم الله بها. ومن الإيمان بالنبيئن أن لايفرط كما أفرطت النصارى في عيسى، ولا يفرط كما فرطت اليهود، إنما يتوسط حسبما جاءت به الملة الأحمدية، وخيار الأمور أوسطها. وهذا من أبلغ ما جمعه تعالى في باب الإيمان.

ثم أقول: ولكل من له أدنى ملكة من العقل، أن يستدل عما قدمه تعالى في هذا الباب، لكن مع الإنصاف وحسن السابقية، وَلْنَأْتِ بمراجحات لجانب الإثبات على النفي عسى يستفيد منها ضعيف الإيمان إيمانا. فأقول: إن دليل وجود المدبر لهذا العالم ليس بمستبعد عن الإدراك كما تزعم الجهلة من الدهريين، لأن العاقل مهما وقع نظره عن الهيئة الإجتماعية الواقع عليها إسم العالم، لابد وأن يتخيل لها سياسة تدريجية تدق عن الإدراك، ومهما تمكنت هاته العقيدة منه، فقد أخذ بأوفر نصيب من

الإيمان بالله، لأنها تلك السياسة المتخيلة حقها لا تصدر إلا من موجود موصوف بكل كمال، ولا دهري إلا وهو على شك من عقيدته بما يحسه من وجود زائد عن ماهية العالم يتعذر إدراكه، وذلك هو نفس الإيمان، لو اشتد في جانب الإثبات كاشتداده في النفي.

وأما دليل اليوم الآخر فهو أيسر على المتفكر، لأنه يعلم عدم كينونته بالأمس في حال كونه لم يكن، حتى إذا وقع عليه الفناء، يكون استرجاعه إلى الوجود ثانيا أيسر وأمكن في الذهن من الأول، لأنه كان، ثم إنَّ الوقتيين ممن توغلوا في نفي المعاد يزعمون الآن أنهم يسترجعون الروح بعد مفارقتها البدن بهيئة اجتماعة ببدن الميت من الحكماء الماهرين في هذا الفن الحادث، فيسترجعون الروح للبدن وتحصل بينهم مناجاة فيخبرهم بما يسألونه، وإن كان كذلك فقد اتضح عندهم وجود الروح بعد مفارقتها البدن، وبهذا المناسبة يتحقق البعث عندهم. وقد كنت اجتمعت بأحد من هؤلاء فأخبرني بالقصة، ثم قال لي: إننا نريد اليوم نتكلم مع فلان، وقد كان مات بالأمس، وهو كالمفتخر بما وصلت إليه عقول غير المسلمين، فقلت له: إن تكلمتم معه فاسألوه عن مقعده أهو في الجنة أم في النار؟ ثم افترقنا، ومن الغد أتى صديق لي كنا بمحله حال المذاكرة فأخبره، ثم إن الميت أنبأهم عن نفسه أنه في النار، أعوذ بالله من سوء القرار. وكنت على يقين من أنه إذا تكلم على الفرض لابد وأن يخبرهم بذلك. وبالجملة إن دليل البعث قد يستفيده العاقل من عدّة أشياء، وكيف لا وهو يرى في كل يوم موتا وبعثا، أليس

وقد يفارق الدنيا في حال منامه ثم يرجع لحسه، فَلِمَ لا يجعله من دلائله؟ ولكن الله غالب على أمره.

وأما دليل وجود الملائكة، فهو أيسر أيضا عند من يعتبر وجود اللطائف التي هي أشهر من أن يستدل عليها لكونها من ذلك الجنس، فلهذا لا تقع عليهم الأبصار، إذ لا يلزم من عدم الوجدان عدم الوجود كما هي القاعدة المُسَلَّمَةُ، وكل عاقل يوجد الروح فيه وأنه زائد على بدنه، وبوجود العقل أيضا مع عجزه عن التوصل إلى شيء من ذلك، فَلِمَ لا يجعل وجود الملائكة من ذلك القبيل؟ وإذا كان من أهل فن الهيئة الوقتية، بمعنى يعترف بوجود سكان الأجرام العلوية، فَلِمَ لا يطلق عليهم اسم الملائكة، ويدخل في دائرة المؤمنين، أو يستدل على وجودهم ووجود الشياطين بالواردات القلبية، لأنها لابد وأن تكون عن فعل فاعل، وكل إنسان على بصيرة من أنها ليست من أفعاله.

وأما دليل وجود النبيئين وأن الله بعثهم بالحق، هو استحالة تواطئهم على الكذب عقلا، وقد بلغوا حد الكثرة، وكل مصدق لما قبله، ولا واحد أتى بخلاف ما أتى به الآخر من جهة ما يخص الأصول حسبما تقدم في قواعد الإيمان، وهذا بالنظر الإجمالي عند من لم يحضر زمانهم، وإلا كل واحد منهم جاء بما يحقق صدقه بين أهل زمانه.

وبعد ما ذكر تعالى الأهم من أصول الإيمان أتى بما يتمم به معنى البر في قوله: (**ولكن البر من ءامن بالله... إلخ**). فقال: (**وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ**) أي بذل المال على حبه فيه حالة كونه صحيحا شحيحا كما جاء في الخبر: « **أفضل الصدقة أن**

تتصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل العيش وتخشى الفقر ». وقد يصح رجوع الضمير في قوله تعالى: (**على حبه**) لله، وبه قال بعض المفسرين. ثم أتى ببيان المعطى له فقال: (**ذَوِي الْقُرْبىٰ**) أي الضعفاء منهم لأنهم أحق من غيرهم، فلهذا قدمهم في الذكر. (**وَالْيَتَامىٰ**) الصغار العاجزين عن الاكتساب (**وَالْمَسَاكِينَ**) وهم الفقراء المتعففين عن المسئلة بدليل ذكر السائلين آخر الأصناف (**وَابْنَ السَّبِيلِ**) وهو المسافر المنقطع عن الأهل، فيعطى له وإن كان ميسرا ببلاده. ثم قال: (**وَالسَّآئِلِينَ**) أي الطالبين المعروفين بالمسئلة، قال ﷺ: «**للسائل حق وإن جاء على فرس**» فليحترز المسئول من أن يرد السائل بعنف لقوله تعالى: (**وأما السائل فلا تنهر**)، (**وَفِي الرِّقَابِ**) أي يبذل ماله في فك الرقاب، فيدخل في ذلك الأسير والمكاتب ونحوهما.

ثم أخذ تعالى يذكر في فن آخر من تمام البر فقال: (**وَأَقَامَ الصَّلَاةَ**) بشروطها (**وَءَاتَى الزَّكَاةَ**) فيما وجبت عليه فيه بطيب نفس (**وَالْمَوْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا**) وهذا وصف جامع في كونهم موفين بالعهد مع الحق والخلق، وقد أخذ الله عنا عهودا يجب الوفاء بها؛ منها مجملة ومنها مفصلة، فالمجملة أكثر من أن تستقصى، وهي ما تضمنه الكتاب من الأوامر والنواهي، والذي يمكن استقصاؤها كإقرارنا له بالربوبية في الأزل، وكإشترائه منا الأنفس والأموال المخبر عنها في قوله: (**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**) وكقوله ﷺ: «**ما أتى الله عالما علما إلا أخذ الميثاق عليه أن لا يكتمه**» وما هو من هذا القبيل، والوفاء بالعهد مع الخلق هو من تمام وفاء العهد مع الله

(**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ**) أي شدة الفقر، ويسمى صاحب هذا المقام قنوعا وزاهدا، ومقابل الصبر الجزع وهو مذموم (**وَالضَّرَّاءِ**) أي شدة الأمراض وضعف القوى، وما هو من ذلك القبيل. (**وَحِينَ الْبَأْسِ**) أي عند ملاقاة العدو، إذا جردت السيوف وحمي الوطيس، ولما اشتملت دائرة البر على أهل البر المنعوتين بما تقدم من الأوصاف من قوله: (**ولكن البر من ءامن بالله**) إلى هنا جاء تعالى بما ينبئنا عن تعظيم شأنهم (**أُوْلَـٰئِكَ**) الموصوفون بما تقدم هم (**الذِينَ صَدَقُوا، وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**) والمعنى أن من استجمعت فيهم تلك الأوصاف هم أهل التقوى وأهل الصديقية، وهي في ظني لا تتم إلا في درجة النبوءة أو فيما يقربها.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**ليس البر... إلى قوله: وأولئك هم المتقون**) عشرة أحكام:

الأول: علمنا بأن صدر الآية قصد به تعالى أهل الكتاب، وإن كان مع شمول الحكم لغيرهم، بمناسبة ما ذكره من المشرق وهي قبلة النصارى، والمغرب وهي قبلة اليهود في قوله: (**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب**).

الثاني: علمنا بأن التوجه إلى الكعبة غير فارغ من البر لعدم دخوله في منفى ليس، كما دخل التوجه إلى المشرق والمغرب.

الثالث: علمنا بأن البر هو عبارة عن خصال متعددة حسبما جمعها تعالى في هذه الآية.

الرابع: علمنا بأن أصول الإيمان خمسة، وإن الإيمان بالقدر ملحق بها، بمعنى لن يقوى قوّتها حسب المنصوص عليه في صريح الآية، ولهذا وقع فيه الخبط بين طوائف الإسلام.

الخامس: علمنا بأن أفعال القلوب أسبق وأوجب من أعمال الجوارح، من تخصيص الإيمان بالتقديم على ما بعده.

السادس: علمنا بأن المال المؤتى على حبه الممدوح صاحبه به الآن، هو ما زاد على الزكاة المفروضة، بدليل التنصيص عليها بالانفراد صريحة في قوله: **(وءاتى الزكاة)**.

السابع: علمنا بمطلوبية مراعاة ترتيب المعطى لهم حالة الإعطاء حسب الترتيب المنزل، فلو اجتمعت الأصناف فالحق لذوي القربى فما بعدهم، إلا إذا اشتدت حاجة بعضهم فلا يراعى الترتيب.

الثامن: علمنا بأن السائل غني بوظيف السؤال بالنسبة لمن قبله من الأصناف، فلهذا استحق التأخير، وكذلك المكاتب أخره، لأنه مستوطن على الرقية، بمعنى أحرى بالمكابدة من الجائع.

التاسع: علمنا بأن الوفاء بالعهد مطلوب وإن مع الكافرين، لمدح الوفاء ومجيئه غير مقيد بالمؤمنين فيما بينهم.

العاشر: علمنا بأن الصابر على الفقر أشد صبرا من الصابر حال القتال، لتنصيصه عليه في قوله: **(والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس)**.

الإشـــــارة

صريحة في كون المقصود الأهم من العبادة توجه القلب إلى الله، لا توجه الأبدان لنحو المشرق أو المغرب.

ثم أقول: إن الإيمان الكامل هو الذي لا يقبل الزيادة لأنه ينتهي في الشهود، ولهذا قال بعض الصحابة -رضوان الله عليهم-: «لو كشف عني الغطاء ما ازددت يقينا» ومثل هذا ما ورد عن النبي ﷺ، لما سئل حارثة - رضي الله عنه - عن إيمانه فقال: «**أصبحت مؤمنا حقا. فقال له النبي: لكل حق حقيقة، فما حقيقة كلامك؟ فقال - في جملة ما أجيب به -: وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون. فصدقه النبي ﷺ، وقال له: عرفت فالزم**».

وبالجملة فَإِنَّ الإيمان ينتهي في الشهود، كما أن الشهود ينتهي في العيان، والعيان في فقد الأعيان (**كان الله ولا شيء معه**)، وهو الآن بلا آنٍ على ما عليه كان، وما جئنا به هنا هو لب الإيمان، وما سواه يقرب من الهذيان.

وأما الإشارة في قوله: (**وءاتى المال على حبه**) فالضمير عائد على الله أي على حب الله، وأما من أعطى المال على حب المال، فهو لن يعطيه لبقائه في قلبه، وأما من بذله على حب الله فمحبة المعطى من أجله تحميه من أن يكون غير الله في قلبه.

وأما الصابرون الممدوحون في المقام العام، يعتبرهم المقام الخاص على وجه آخر، لأنه يرى البأساء عبارة عن الفقر اللازم الذاتي غير العرضي، وهذا قل من يصبر عنه من جهة امتداده مع

صاحبه إلى أبد الأبد. والضراء عبارة عما أضناهم من ألم الحب حتى قال بعضهم في قوله تعالى: (**ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به**) هو الحب إذا أفرط بصاحبه وقوله: (**وحين البأس**) هو عبارة عما يكابدونه من مقاتلة النفس والشيطان، وقل من يصبر على ذلك مدة حياته، ولما صبروا – رضي الله عنهم – على ذلك جاء عن الله ما يشعرنا بعظم شأنهم فقال: (**أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**).

لسان الروح

بعد ما سئل عن الإيمان فأجاب أن لا يعرف له مكان، غير أنه يسمع به، منقطع مفصول تحت سياج العقل، ينهض تارة ويقعد أخرى، ضعيف بالمرة لا يستطيع السير بنفسه، إلا إذا أخذ الله بيده، وهي غاية العبد من ربه.

قوله تعالىٰ

يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى، الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثىٰ بِالأُنثىٰ، فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنَ اَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ اِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ، فَمَنِ اعْتَدىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ اَلِيمٌ، وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَآ أُوْلِي الاَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

التفسير

قد أخذ الآن تعالى يذكر ما يتعلق بأحكام العبيد فيما بينهم، وقبل ذكر الآية نذكر شيئا فيه تمهيد لتفسيرها فأقول: إن الله تعالى قد كان أوجب القصاص في شرع اليهود بلا عفو، وأوجب العفو في شرع النصارى بلا قصاص، وأما العرب كانت إلى الهمجية أقرب، والمعنى أنهم كانوا أبعد عن التسوية في القتل فيما بينهم، فقد يقتلون بالشريف رجلين من الأطراف، وهذا المصطلح فيما بينهم. وأما ما هو على جهة التعدي فلا تسأل. ولما جاء الإسلام رفعت من أجله سائر الأحكام قال تعالىٰ: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا**) استمعوا لحكم الله فيما بينكم فقد (**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى**) بالمعنى افترضه عليكم على كيفية مخصوصة فلا يجوز لكم التجاوز عنها. ثم إن فريضة القصاص هي على الحاكم بالتنفيذ وعلى المحكوم عليه بالإمتثال، وهذا إذا كان ولي الدم لا يرضى إلا بذلك، والمراد بالقصاص المماثل أي اتحاد الصفة في القاتل والمقتول، وفي هيئة القتل، وبيان اتحادها في القاتل والمقتول هو قوله: (**الْحُرُّ**) يقتل (**بِالْحُرِّ**) وهكذا يقتل (**وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ**) مع قيد الإسلام في جميع ذلك، إذ لا يقتل مسلم بكافر ما لم يكون معاهداً.

ثم أقول: إن صريح اللفظ يدل على أنه لا يقتل حر بعبد ولا عبد بحر، وهو كذلك على ما رواه علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه- وغيره، وفي مسند أحمد - رضي الله عنه - : « لا يقتل حر بعبد » والمحل معترك نزاع بين الأيمة، والأحكام

تختلف باختلاف النوازل إن كان الحاكم عادلا؛ وأما قتل الذكر بالأنثى، فقد تواترت به السنة، ولما جاء شرعنا بتخير ولي الدم بين القصاص والعفو عنه في مقابلة الدية أو العفو عنهما معا، قال تعالى: (**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ**) الضمير عائد على القاتل (**منَ اَخِيهِ**) وهو ولي الدم (**شَيْءٌ**) أي بعض من دم المقتول كأن يكونوا شركاء في دمه فعفا البعض منهم، فيسقط القود بذلك، ولزمت الدية فقط. وتعبيره بالأخوة مع وجود القتل نظرا لرابطة الإسلام، وتحريكا لحبل المودة والرأفة عسى الله أن يجعل في قلوب أولياء الدم رأفة ورحمة بالقاتل. وعليه إذا وقع العفو في شيء من ذلك يكون عفا الولي عن القصاص وبقية الدية، أو عفا البعض من الأولياء فسقط القود بذلك رغما على من لم يعف، فبيَّن تعالى لأولياء الدم ما يفعلونه مع القاتل، وأي شيء يفعله هو معهم فقال: (**فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ**) أي فيتبعونه فيما بقي عليه بالمعروف بلا إضرار، (**وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة**). وهكذا يسيرون معه حسب المعروف، وهذا ما يفعله ولي الدم. وأما ما يفعله القاتل معه (**وَأَدَاءٌ اِلَيْهِ**) ما وجب عليه (**بِإِحْسَانٍ**) بلا عنف ولا تسويفٍ ولا مماطلةٍ (**ذَٰلِكَ**) أي التيسر في الحكم من جهة تخير ولي الدم بين الدية والعفو والقود (**تَخْفِيفٌ مِن رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ**) بكم من جهة عدم إلزامكم بوجه مخصوص كما ألزم أهل العفو بالعفو، وأهل القصاص بالقصاص.

ثم قال: (**فَمَنِ اعْتَدَىٰ**) عن القاتل (**بَعْدَ ذَٰلِكَ**) أي بعد العفو عنه قتله (**فَلَهُ عَذَابٌ اَلِيمٌ**) في الدنيا بالقتل فلا دية ولا عفو لقوله ﷺ: «**لا أعافي أحدا قتل بعد أخذ الدية**». هذا عذابه في

الدنيا، وفي الآخرة بالحريق. ويحتمل أن يكون معنى الآية: (**فمن اعتدى بعد ذلك**) أي بعد ما ظهر حكم الله بحيث تجاوزه إلى حكم الجاهلية فله عذاب أليم. ثم قال: (**وَلَكُمْ**) أي في مشروعية (**فِي الْقِصَاصِ**) الذي هو الموت (**حَيَاةٌ يَآ أُوْلِي الأَلْبَابِ**) أي يا أهل العقول لو تأملتموه، لأنه يردع الناس عن بعضها من لولاه لفسدت الأرض (**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**) سفك الدم بسبب مشروعيته، وهذا من محاسن التعبير في أقصى درجته، حيث أنبأنا على أن في الموت الحياة، ولو لم تكن إلا هاته الآية في القرءان لكانت أبلغ داع في الإيمان من أن القرءان لا يأتي بمثله إنس ولا جان.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**يا أيها الذين ءامنوا... إلى قوله: يا أولي الألباب**) تسعة أحكام:

الأول: علمنا بأن إقامة الحدود واجبة على الإمام، أو جماعة المسلمين من قوله: (**كتب عليكم القصاص في القتلى**).

الثاني: علمنا بمشروطية الهيئة في القتل، بالمعنى بما قتل يقتل، إلا إذا كان القتل مما يأباه الشرع، وذلك يؤخذ من لفظ القصاص، لأنه عبارة عن المماثلة في الشيء لغة.

الثالث: علمنا بأن المفهوم من قوله: (**الحر بالحر...**) إلخ. يحتمل أن يشمله حكم غير المنصوص عليه، ويحتمل وقوعه عليه. والمراد بالمفهوم المسكوت عليه هو الحر بالعبد، والعبد

بالحر، والأنثى بالذكر، والذكر بالأنثى. ولعلك تقول: جاء في الكتاب ما يدل على أن النفس بالنفس من غير تخصيص. فأقول: إن ذلك محكى عما كتبه الله على بني إسرائيل، نعم، شرعهم المحكي في كتابنا شرع لنا، لكن ما لم ينزل في النازلة حكم بالخصوص إلينا.

الرابع: علمنا بأن العفو من أهل الدم عن الاقتصاص أولى منه، فالدية أولى من القود، والعفو عنهما أولى منهما من قوله: **(فمن عفي له من أخيه شيء)**.

الخامس: علمنا بأنه يطلب من ولي الدم أن يأخذ ما في ذمة القاتل بالمعروف، وهو يدفع ما وجب عليه بإحسان، فالمروءة تتعين من الجانبين من قوله: **(فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان)**.

السادس: علمنا بأن الحكم المنصوص عليه الآن هو من قبل التخفيف عن الأمة المحمدية، حيث لم يلزم تعالى أولياء المقتول بوجهة مخصوصة كالقود، أو الدية، أو العفو، وفي ذلك أيضا فسحة للقاتل، وذلك يؤخذ من قوله: **(ذلك تخفيف من ربكم ورحمة)**.

السابع: علمنا بأن القصاص المشروع هو السبب الواحد في بث الأمن فيما بين العباد، من قوله: **(ولكم القصاص حياة)**.

الثامن: علمنا بأن الحياة المستفادة من مشروعية القصاص شيء لا يبلغه الوصف عند من تأمله، من مجيئه بالحياة منكرة، والقصاص معرف، فكأنه يقول: حياة وأي حياة.

التـاسـع : علمنا أن هاته العبارة لا تدرك حقيقتها ، بمعنى يدق إدراكها على ما هي عليه من اللطافة إلا لذي لب سليم من قوله : (**يا أولي الألباب**).

الإشـــــــارة

ترى الحياة الحقيقية لا تحصل للسائر إلى الله إلا إذا اقتصَّ من نفسه، بمعنى أماتها بالفناء في الله، عملا بحديث « **موتوا قبل أن تموتوا** » فحنئذ يحيا حياة أبدية لقوله تعالى : (**ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب**) وهذه الحياة الثانية الناشئة بعد الموت ليست هي عين الأولى ، لأن المتقدمة فانية وهذه باقية، والأولى خلقية وهذه حقية، والأولى مجازية وهذه حقيقة، ولا يفهم معنى هاته الحياة إلا طاهر السريرة نير البصيرة، وهذا ما تعطيه الإشارة.

لســان الــروح

يرى في الآية نفسها استلفاتنا إلى كمون الأشياء في أضدادها ، والأصول في فروعها ، حسبما اتضح من أن في الموت الحياة، وفي الحياة الموت. وعليه فمن أراد أن يطلب شيئا فليطلبه في ضده لا في نفسه، لأن كنهية الشيء لا تعرف إلا في ضده ، ولهذا ما عرف الحق إلا في خلقه.

قوله تعالى

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا، الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ، حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ، فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُ عَلَى الذِينَ يُبَدِّلُونَهُ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوِ اثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ، إِنَّ اللهَ غَفُرٌ رَّحِيمٌ

التفسير

قوله تعالى (**كُتِبَ**) أي فرض (**عَلَيْكُمْ**) معاشر المؤمنين (**إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ**) أي إذا حضرت أسبابه، وأما حال حضور الموت لا يتأتى الإيصاء، وعليه (**إِن تَرَكَ خَيْرًا**) أي كان له مال مما يعتبر، لا ما لا أهمية له فلا تجب الوصية فيه، وبذلك قال علي وعائشة - رضي الله عنهما -. أما الكثير (**الْوَصِيَّةُ**) في ذلك المال المتروك وجبت (**لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ**) يكون ذلك (**بِالْمَعْرُوفِ**) ومن المعلوم أن منزلة الوالدين أعلى من غيرهم، وهكذا الأقرب فالأقرب لا يتعداهم إلى الأجانب، وذلك الإيصاء (**حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**) أي متعين عليهم، ولهذا يندب من الإنسان يهيء وصيته حال الصحة (**فَمَن بَدَّلَهُ**) أي غير هيئة الإيصاء من مُوصٍ أو كاتب أو شاهد (**بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الذِينَ يُبَدِّلُونَهُ**) أي على الذين يغيرونه لا على الميت (**إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**) فلا يفوته شيء من عمل المفسدين. ولما كان التبديل في الإيصاء مطلقا يستلزم الإثم على ما تضمنه قوله تعالى: (**فمن بدله**

بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه) جاء الكتاب برفع ما ربما يتوهم ثبوته، فذكر أن من بدله لأجل الإصلاح فلا إثم عليه، وهو قوله: (**فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ**) حال الوصية أو بعدها (**جَنَفًا**) أي خطأ لجهله بالحكم، أو لشدة ما حل به من المرض، (**أَوِ اِثْمًا**) أي خاف تعمد إثم منه، كأن يمنع المستحق حقه ونحو ذلك، (**فَأَصْلَحَ**) هو، أي ذلك المطلع على وجه الإصلاح (**بَيْنَهُم**) أي بين الموصي لهم هذا (**فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**) ولما كانت القضية متركبة من موص وموصى له ومصلح، فقال في حق المصلح (**فلا إثم عليه**) في تَبَدُّلِهِ الإيصاء بما أصلح منه، بل له الثواب بقدر الإصلاح. وقال في حق الوصي بما لا يجوز (**إِنَّ اللهَ غَفُورٌ**) وفي حق الموصى لهم (**رَّحِيمٌ**) فيما بينهم حيث ألهمهم الصلاح.

ثم أقول: إن هاته الآية فيها ما ينبئك بمحاسن الشرع، وذلك أنها نزلت في صدر الإسلام رحمة منه تعالى بعباده، حيث أطلق لهم في المواريث أن يتصرفوا فيها باختيارهم، غير أن ذلك يكون بالمعروف مع إلزامه أن لا يخرج الإيصاء عن الوالدين والأقربين، وهذا من السعة والرحمة بمكان، والذي أرحم من ذلك بالنظر إلى حال تمكنهم من الدّين هو توليته القسمة بنفسه، فنسخت الآية بعد استقرار الحكم بها أياما بآية المواريث. فقال ﷺ: «**ألا لا وصية لوارث**» أي بأن لا يزاد للوارث على ما أخذه بالحكم السماوي.

الاستـــنبـــــاط

يستخرج من قوله تعالى: (**كتب عليكم... إلى قوله: غفور رحيم**) أحد عشر حكما:

الأ و ل: علمنا بأن هاته الآية وإن نسخ حكمها من جهة العمل به، فهي لم تزل تشتمل على فوائد عديدة حسبما كانت عليه، وإلا لما تركت في المصحف لمجرد التلاوة.

الـثـانـي: علمنا أن مراد الله منا الاطلاع على مبدأ الأحكام الإسلامية وكيفية تدريجها الأمور إلى أوج الكمال، لتكون لنا به أسوة في سياسة الخلق، وإلا لما تركت منسوخات الأحكام في المصحف.

الـثـالـث: علمنا بأن الشريعة المطهرة ليس فيها من الأحكام ابتداء وانتهاء ما يستقبح ظهوره، وإلا لما بقيت المنسوخات في المصحف، فدل هذا على أن ليس فيها من العورات ما يستحسن ستره.

الـرابـع: علمنا بأن معنى الآية لم ينسخ تماما، بل ولا الوصية نفسها، إنما نسخ كون الإيصاء للوالدين والأقربين، وهذا ما لم نقل: إن المعروف في قوله تعالى (**بالمعروف**) عبارة عن أخذهم بالفرض المقرر في آية المواريث وإلا لصارت محكمة.

الخـامـس: علمنا بمطلوبية الوصية، وتتأكد قرب الموت من قوله: (**كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت**).

الـسـادس: علمنا بأنها ليست واجبة إلا على من ترك مالا، من

قوله: (**إن ترك خيرا**) وأما من لا مال له لا يوصى دائرته إلا بتقوى الله وطاعته.

السابع: علمنا بأن الوصية لا تصح إلا إذا كانت على أساس شرعي كأن لا يزيد على الثلث، وأن لا يصرفه لغير مستحقه، وأن تكون ورثته في غنى عنه، وغير هذا، ويؤخذ ذلك من قوله: (**بالمعروف**).

الثامن: علمنا أن من بدل في الإيصاء بأن غَيَّرَ شيئا من لوازمه بعد ما سمع من الوصي ما أوصى به، ويدخل في ذلك الموصَىٰ له، وما كالشهود، يلحقه من الإثم ما الله أعلم به من قوله: (**فإنما إثمه على الذين يبدلونه**).

التاسع: علمنا بأن التبديل فيه إذا كان بقصد الإصلاح ليس بممنوع من قوله: (**فأصلح بينهم فلا إثم عليه**).

العاشر: علمنا بأن الوصي بشيء لا يوافق الشرع إذا لم تنفذ وصيته لا إثم عليه إن شاء الله من قوله: (**إن الله غفور رحيم**) لأن الغفران صالح بمن أوصى بما لا يوافق الشرع لا بالمصلح.

الحادي عشر: علمنا أن التكليف لا ينفك عن الإنسان ما دام الروح في البدن مع الشعور، من قوله: (**كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت**) حيث تعلق به هذا الفرض حالة الاحتضار، فكان تعلق التكليف به من قبل من باب أولى.

الإشـــــارة

ترى الوصية اللازمة ليس هي خصوص المال حسبما يتبادره

الفهم العام، بل هي في كل خير حسبما دل عليه ظاهر النص في قوله: (**خيرا**) وجاء به منكرا ليشمل كل الخيرات، حسيات أو معنويات، وهي بمعْنًى أولى؛ ومن ذلك قوله تعالى: (**وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب**) كذلك أوصى لكن بالملة لا بالمال، فهذا هو الواجب المتحتم، وعلى من تتأكد الوصية على من ترك خيرا أي على أهل الخير، لأن أقوالهم نافذة في غيرهم، ولمن تكون أحق للوالدين والأقربين فهم أحق بذلك من غيرهم، وبأي شيء يوصى فقال: بالمعروف لا بالمشكوك فيه أو الموهوم، وليس هو إلا الحق، فيوصيهم بدوام مشاهدته، والصبر على طاعته، وما ذكرناه حقا على المتقين، فمن بدله أي المسموع من الوصي، فإنما إثمه على الذين يبدلونه من بعده، وأما هو فقد برئت ذمته بأداء ما وجب عليه حالة مفارقته الدنيا.

لسان الروح

يرى الوصية في حال الموت من لوازم الفَوْتْ، لأنها من المشغلات عن شهود جمال الذات، ألا ترى أنه ﷺ لم يزد حالة النقلة على قوله: «**اللهم الرفيق الأعلى**».

قوله تعالىٰ

يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ، فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا اَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنَ اَيَّامٍ اخَرَ، وَعَلَى الذِينَ

يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامِ مَسَاكِينَ، فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ، وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمُ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، شَهْرُ رَمَضَانَ الذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدىٰ وَالْفُرْقَانِ، فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ، وَمَن كَانَ مَرِيضًا اَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنَ اَيَّامٍ اخَرَ، يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ، وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللهَ عَلَىٰ مَا هَداكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

التـفـسـيـــــر

(**يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ**) أي فرض الله (**عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**) والصوم لغة هو الإمساك مطلقا على أي شيء كان، وفي الشرع هو الإمساك عن شهوتي البطن والفرج بنية يوما كاملا من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ولما كان الصوم غير معتد للنفوس فلن تركن إليه في الغالب، لأنه من أشق التكاليف عليها لما فيه من كسر شهواتها البطنية والفرجية، وليس السعي العام في الغالب إلا عليها، وبهذه المناسبة تستثقل مفروضية الصوم طبعا، ومن حكمته تعالى أن استوثقها به من حيث لا تشعر، وكل هذا يؤخذ من حسن أسلوب القرءان لمن تأمله، وذلك أنه تعالى بعد ما قال: (**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام**) فبالطبع ترتجي النفوس عند وقوع هذا الأمر الشاق عليها، فقال تعالى على طريقة التسلي تسكينا لقلقها (**كَمَا كُتِبَ عَلَى الذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**) من سائر النبيئين. وفي هذا ما ينفس كربتها حيث

تتحقق بعموم البلوىٰ إن كانت تراها بلوى، فكأنه تعالى يقول: لستم أنتم بأول من تقرب إلى الله بكسر شهوتي البطن والفرج. ثم قال: (**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**) أي تتعلمون التقوى، لأنه فيه تدريب النفس وحبسها عن المألوفات، والتقوى لا تتمحض إلا بذلك، ولما كانت النفس تتشوف للعدد المبهم في وجوب الصوم قال تعالى: (**أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ**) أي قلائل، لئلا تتفجع بذكر الشهر، فأعدل تعالى إلى ذكر الأيام بصيغة التقليل، وكانت ثَمَّ نفوس ربما تتعلل بما كالمرض والسفر فقال على سبيل التيسر في الحكم: (**فَمَن كَانَ مِنكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ**) فَلْيَفْطِرْ فلا شيء عليه، وعليه فماذا يفعل فقال: (**فَعِدَّةٌ مِنَ اَيَّامٍ اخَرَ**) حال الصحة والإقامة، ولما أراد تعالى من عموم المؤمنين أن يتلقوا مفروضية الصوم بطيب نفس رحمة منه تعالى (**وَعَلَى الذِينَ يُطِيقُونَهُ**) بمعنى لهم قدرة على العموم، ولكنهم آثروا جانب الفطر عليه فليفطروا، وكأنه قيل: وأي شيء يلزم فقال: (**فِدْيَةُ طَعَامِ مَسَاكِينَ**) وهي مد على اليوم لكل مسكين (**فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا**) بأن زاد على ما وجب عليه من المد على اليوم (**فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ**) عند الله من أن يقتصر على القدر الواجب. ثم قال ومع ذلك (**وَأَن تَصُومُوا**) فالضمير عائد على كل من المريض والمسافر والمطيق، (**خَيْرٌ لَكُمُ إِن كُنتُم تَعْلَمُونَ**) ما للصائم عند الله من الثواب الجزيل، والقدر الجليل.

ثم أقول: إن النفوس لما رجعت هاته الجملة المقررة لمفروضية الصوم تقبلتها بقبول حسن، لأنها وجدت الصوم كلا صوم، وذلك أنها وجدت نفس الصوم فغاية ما هو أيام معدودات،

يحتمل أن تقع فيما بين الثلاثة إلى العشرة أو فيما زاد على ذلك بقليل. ثم أنها لم تدر أهي في السنة أم في العمر، ومع ذلك لا تُؤَدَّى حال المرض والسفر، والداعي الأهم لقبوله بطيب نفس هو التخير بين الصوم والفدية للمطيق. ثم إن هذا الحكم الآخر ما جيء به إلا لمجرد الاستئناس، ولهذا لم يستمر العمل به حتى نسخ، ولما استقر وجوب الصوم في النفوس المتزينة بالإيمان، جاءها تعالى بالبيان فقال: (**شَهْرُ رَمَضَانَ**) أي هو ذلك المعبر عليه بالأيام المعدودة التي أوجب الله صومها على الأمة. ثم وصفه تعالى بما يقتضي تبجيله فقال: (**الذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ**) أي ابتدأ نزول القرءان فيه حالة كونه (**هُدًى لِّلنَّاسِ**) أي أنزله الله هاديا للناس (**وَبَيِّنَاتٍ**) أبين (**مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ**) والمعنى أن القرءان أبين وأهدى من كل بينة، وهذا في أقصى درجة المبالغة في مدحه، وكل هذا مما جَرَّتْ إليه المناسبة المجلوبة لتحسين صوم الشهر تماما في نظر المؤمنين، لأنهم كانوا جميعا يعتبرون كتاب الله ويرونه من أعظم نعم الله عليهم، وليس للأمة قديما وحديثا افتخار إلا به، ومن أجل ذلك ذكره مظروفا ليعتبر الظرف من أجله، فكأنه يقول: إن الشهر الذي افترضت عليكم صومه هو الذي نزل فيه القرءان حالة كونه هدى للناس إلخ. وعليه (**فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ**) حالة كونه مقيما صحيحا (**فَلْيَصُمْهُ**) على التمام، وكأنه تعالى أصفح عن أول الحكم المقرر بقوله: (**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين**) وهو كذلك، لكنه قرر ما قبله، ولهذا جاء به لئلا يتوهم نسخه مع

ما بعده فقال : **(وَمَن كَانَ مَرِيضًا)** مرض يشق معه الصوم وأحرى إذا يخشى به الزيادة **(أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ)** أي متلبسا بسفر يقدر بنحو الأربعة برود فأكثر، دون مسافر الإياب قصد دفعة فليفطر في جميع ذلك، وعليه فماذا يفعل ؟ فقال : **(فَعِدَّةٌ مِنَ آيَامٍ اخَرَ)** يلزمه صيامها من غير شهر رمضان بنية القضاء، ويندب فيها التتابع. ثم قال : **(يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ)** أي السهلة والتخفيف في الأحكام، ومن ذلك أباح لكم الفطر حال المرض والسفر **(وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)** أي المشقة والتشديد في الأحكام، وهذا جاء كالتعليل في إباحة الفطر حال المرض السفر. ثم أتى تعالى بعلة قوله **(فعدة من أيام اخر)** فقال : **(وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ)** أي ليتم الشهر الواجب بقضاء ما فات حال المرض أو السفر. ثم أتى ببعض ما كالعلة في وجوب الصوم فقال : **(وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ)** يوم العيد **(عَلَىٰ مَا هَدَيكُمْ)** إليه من صوم ذلك الشهر المبارك **(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)** فضل الله عليكم إذ هداكم إلى الطاعة والإيمان، وَبَغَّضَ لكم الكفر والعصيان، ويحتمل **(ولعلكم تشكرون)** نعمة الفطر بعدما ذقتم مرارة الصوم.

الحكمة في وجوب الصوم : - فأقول : إن الله تعالى ما استعبدنا بشيء إلا ولنا فيه أبلغ نصيب من المصالح، من لولاه لما اهتدينا إليها إلا به، منها ما يرجع للإنسان في خاصة نفسه، ومنها ما متعلقه النفع العام، أما الذي هو لخاصة الإنسان **فأوله :** كف النفس عن الاسترسال في شهوتي البطن والفرج التي هي معترك عموم الحيوان، لا فرق بين إنسان وبهيمة. **الثاني :** فيها تعليم

وترويض النفس في كفها عما تشتهيه، فعسى يترقى لأن تكون له غلبية عليها. **الثالث :** فيه حِمْيَةٌ من الله للعبد عن الأكل ارتياحا للمعدة كما يحمى الطبيب المريض. **الرابع :** ليذوق ألم الجوع فيشكر الله على لذة الشبع. **الخامس :** ليعرف بذلك حال الجائع إذا وقف له بالباب سائلا. **السادس :** ليستفيد خفة البطن لتنوير الفكر في ذلك الشهر. **السابع :** ليتشبه بالملائكة في الغنى عن الأكل بالتسبيح والتقديس، وهذا بعض مما يعود على الإنسان في خاصة نفسه.

وأما ما هو مشترك بينه وبين غيره فتدريب النفس على الأكل مرة في اليوم توطئة لحصول المجاعة إن كانت، أو انحصار من العدو، حتى إذا أمر الأمير بالأكل مرة في اليوم فيكون ذلك عاديا غير مستبعد في النظر العام، بخلاف ما لو لم يسبق مثله. **وثانيا :** إن الأفكار لابد وأن يلحقها من الكزازة والجمود فهي محتاجة إلى التشحيذ دائما، فجاء شهر رمضان كافلا بذلك لما فيه من الصيام والقيام، وهذا بقطع النظر عن كونه قربة عبدنا الله به، وإلا لاستغنينا بذلك عن ذكر محاسنه، والله أعلم بغيبه وأحكامه.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى : (**يا أيها الذين ءامنوا . . .** إلى قوله : **لعلكم تشكرون**) عشرون حكما :

الأول : علمنا بأن الكفار ليسوا مخاطبين بفروع الشريعة من

قوله: (**يا أيها الذين ءامنوا كتب عليكم الصيام**) لتخصيص المؤمنين بالخطاب.

الثاني: علمنا بمفروضية الصيام وتأكيدها من قوله: (**كتب عليكم الصيام**) والإطناب في بيانها.

الثالث: علمنا بأن الله قد افترض الصوم على من قبلنا من الأمم، بمعنى أنه ليس من خصائص هاته الأمة من قوله: (**كما كتب على الذين من قبلكم**).

الرابع: علمنا بأن الله يريد منا الزيادة عن صوم رمضان من قوله: (**أياما معدودات**) أي قلائل بمعنى ليست كثيرة.

الخامس: علمنا بأن الحكمة في مفروضيته تعليم التقوى من قوله: (**لعلكم تتقون**).

السادس: علمنا بأن المرض يبيح الفطر كيفما كان من قوله: (**فمن كان منكم مريضا**) حيث لم يقيده بشدة.

السابع: علمنا بأن المسافر إذا خرج في وسط النهار مثلا لا يباح له الفطر من قوله: (**أو على سفر**) حيث عبر بعلى أي ملتبسا به.

الثامن: علمنا بأن المسافر والمريض يقضيان ما فاتهم في حال الإقامة والصحة، من قوله: (**فعدة من أيام أخر**).

التاسع: علمنا أن في صدر الإسلام كان الإنسان مخيرا بين الصوم والفدية، من قوله: (**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين**).

العاشر : علمنا بأن الفدية لا تصح ثمنا ولا في غير المسكين، من قوله: (**طعام مساكين**) حسب التنصيص على ذلك.

الحادي عشر : علمنا بأن الزيادة في الفدية على القدر المطلوب مما يندب، من قوله: (**فمن تطوع خيرا فهو خير له**).

الثاني عشر : علمنا بأن الصوم أحسن للمسافر والمريض إن استطاع من الإفطار، من قوله: (**وأن تصوموا خير لكم**).

الثالث عشر : علمنا بأن القرءان ابتدأ نزوله في شهر رمضان من قوله: (**الذي أنزل فيه القرءان**).

الرابع عشر : علمنا بأن الحكمة في نزول القرءان ليهتدى به، وأما من ضل به فلمرض كان فيه كامن تحرك من أجله من قوله: (**هدى للناس**).

الخامس عشر : علمنا أن من رأى هلال رمضان ولم تقبل شهادته، عليه الصوم في نفسه من قوله: (**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**).

السادس عشر : علمنا بأن الله لا يرضى من المسافر أو المريض أن يكلف على نفسه الصوم، بموجب قوله: (**وأن تصوموا خير لكم**) إنما ذلك مع الاستطاعة من قوله: (**يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر**).

السابع عشر : علمنا بأن الحكمة في وجوب القضاء لتكميل عدة الشهر، من قوله: (**ولتكملوا العدة**).

الثامن عشر : علمنا بأن اشتراط العدد في العبادة كالصوم وغيره لا يخلو من سر. من قوله: (**ولتكملوا العدة**) أيضا.

التاسع عشر : علمنا أن التكبير مما يطلب يوم الفطر ، من قوله : **(ولتكبروا الله).**

العشـــرون : علمنا بأن حكمة التكبير في مقابلة الهداية شكرا لله تعالى. من قوله: **(على ما هداكم ولعلكم تشكرون).**

الإشـــــارة

يعتبر الصوم في المقامات الثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان ، أو تقول : الشريعة والطريقة والحقيقة ، ولكل حكم يخصه ، فإذا أكل الصائم بطل صومه في الشريعة ، وإذا غتب مثلا أو أتى ما هو من ذلك القبيل بطل صومه في الطريقة ، وإذا أثبت ما سوى الله بطل صومه في الحقيقة ، لأن الصوم عبارة عن الإمساك ، وكل يمسك بقدر وسعه ، لأن الأكل يغير المعدة ، وما هو كالغتبة يغير القلب ، ورؤية ما سوى الله تطمس البصيرة ، والقائمون بالجميع هم الصائمون حقيقة وقليل ما هم . وبالنظر لما قدمناه من لزوم اعتبار الصوم في المقامات الثلاثة ، جاء تعالى الآن بما يشير لكل منها ، وقدم أهل الشهادة فقال : **(فمن شهد منكم الشهر فليصمه)** أي فمن حصل على مقام المشاهدة فليتعين عليه الصوم على الوجه الأكمل ، ومن كان مريضا ، وهو عبارة عن المحجوب المتقاعد عن طلب الله ، أو على سفر أي سائر في الطريق ، فعدة من أيام أخر ، بمعنى لهم حكم غير حكم أهل المشاهدة .

لســان الــروح

عقد فصلا يذكر فيه أن الصوم من نتائج قوله ﷺ : « **تخلقوا**

بخلق الله» تشبيها بالصمدانية، ولا يصل الإنسان إليه إلا إذا انقطعت عنه سائر المواد الحسية والمعنوية، المنفصلة عنه والمتصلة به، بمعنى يصير لا يمدد شيئا ولا يستمد هو من شيء، فإمساكه عن الشهوات البطنية عبارة عن استمداده من الشيء، وإمساكه عن الشهوات الفرجية عبارة عن استمداد الشيء منه، وهما يقتضيان إما الاتصال وإما الانفصال، وكلاهما محال على ما يقتضيه أزل الأزل.

قوله تعالى

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ، اجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُومِنُواْ بِيَ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ

التفسير

(**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي**) خطابا للنبي ﷺ ولكل ما ربما أن يسأل عن هذا، وفيه تشجيع للسائل أن يسأل، وعليه إذا وقع السوءال بأن قيل: فهل الله قريب منا أم بعيد، فما هو الجواب؟ قال تعالى: (**فَإِنِّي قَرِيبٌ**) والحمل فيه يفيد المبالغة في القرب، قرب لا يحتمل التحديد (**ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**) ومن دلائل قربه منا ورضائه عنا، قوله: (**أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ**) أي إذا سئلني بصفة الاضطرار، وأما من دعاه على ظاهر قلب لا يجيبه ولا يعبأ به، وبالأخص إذا كان بعض غذائه من حرام حسبما هو الغالب في عصرنا، فأنى يجيبه.

وبعدما ذكر أنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه قال:

(**فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي**) عبادي فيما دعوتهم إليه من الإسلام ولوازمه كما أجبت دعاءهم (**وَلْيُومِنُوا بِيَ**) وبقربي منهم حسبما أخبرتهم به، فبتحقيق قربه منهم، يتحقق قربهم مني. وهو معنى قوله: (**لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**) أي يصلون إلى عين الرشاد.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**وإذا سألك عبادي... إلى قوله: لعلهم يرشدون**) تسعة أحكام:

الأول: علمنا بأن السؤال فيما يتعلق بقرب الحق منا أقريب؟ هو مشروع من قوله: (**وإذا سألك عبادي عني**).

الثاني: علمنا بأن السائل عن مثل ذلك يكون له اعتناء من جهة الحق، من إضافة السائلين لنفسه في قوله: (**عبادي**) لأنه لم يقل وإذا سألوك عني، أو ما هو من هذا القبيل.

الثالث: علمنا بأن الجواب حقه أن لا يكون إلا بما يفيد القرب من قوله: (**فإني قريب**).

الرابع: علمنا بأن قرب الحق منا أكثر مما يتخيله الإنسان من حمل الرَّاءِ من قوله: (**قريب**).

الخامس: علمنا بأن قرب الحق منا لا يجوز لأحد أن يقول فيه هو بالعلم أو بغيره، لأنه تعالى قال: (**قريب**) ولم يقل بماذا؟ بل يتبادر من قوله: (**إني**) إنه بذاته، وعلى هذا فلا يجوز القول على الله بغير علم.

السادس: علمنا بأنه واجب على الله أن يجيب دعوة الداعي،

بشرط إذا دعاه على الوجه الذي يرضاه من عبده، من قوله: (**إذا دعاني**).

السابع: علمنا بأن الله يرضى من عباده الاستجابة له من قوله: (**فليستجيبوا لي**) بمعنى كما أستجيب لهم.

الثامن: علمنا بأن الإيمان في قوله: (**وليومنوا بي**) المراد منه الإيمان بقربه منهم، لا الإيمان بوجوده، لأن السائلين كانوا مؤمنين، إنما سألوا عن قرب الله منهم، بدليل قوله: (**وإذا سألك عبادي عني**).

التاسع: علمنا بأن المتحقق بقرب الله منه أو الجاد في طلبه، هو السائر في سبيل الرشاد، من قوله في حق السائلين: (**فليستجيبوا لي وليومنوا بي لعلهم يرشدون**) فكأنه يقول: إنه في أول شوط فليجدوا السير لعلهم يصلون، - والله أعلم.

الإشارة

تفيد أن من لم يسأل عن مقام القرب لا يجوز للمرشد أن يتكلم له فيه، لأنه تعالى علق الإخبار بالقرب عن السؤال، ولهذا كان سر الله لا يناله إلا من جد في طلبه. ثم إن السؤال يختلف باختلاف قريحة السائل؛ فمنهم من يسأل عن قرب الحق منا، ومنهم من يسأل فهل يمكن قربنا منه، وبماذا يكون؟ فالأول يخشى عليه التكليف، والثاني يرجى له التعريف، فالأول يُلْهَىٰ عنه، والثاني يُعْتَنَىٰ به.

لسان الروح

سألته على أن يأتيني بمثال من عند نفسه في كيفية قرب الحق من خلقه، فأجاب قائلا : إن قربه من خلقه كقربه من نفسه، هكذا فلتعرف، وإلا دع الأمر لأهله.

قوله تعالىٰ

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ، هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ، عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ، فَالَـٰنَ بَاشِرُوهُنَّ، وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ، وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ، ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّيْلِ، وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ، تِلْكَ حُدُودُ اللهِ، فَلاَ تَقْرَبُوهَا، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

التفسير

ولما أنهى الكلام مع من يريد السؤال عن قرب الحق منه، استلفت الخطاب لإتمام أحكام الصيام المتقدم في الذكر فقال : (**أُحِلَّ لَكُمْ**) معاشر المؤمنين، بمعنى أُبِيحَ لكم (**لَيْلَةَ الصِّيَام**) أي التي تنوون صيام نهارها (**الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ**) أي الميل والإفاضة إليهن بالجماع وأحرى مقدماته (**هُنَّ**) أي نساؤكم

(**لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ**) معاشر الرجال (**لِبَاسٌ لَّهُنَّ**) وهذا أبلغ تشبيه في تعلق كلا الزوجين بصاحبه، وفيه تنبيه على أن المرأة ستر للرجل وهو ستر لها، فكل يقي صاحبه مما كالفحشاء، وتشير إلى أن المرأة إرادة الرجل، بمعنى هي الفعالة فيه، لأنه ملبوس لها، وهي كذلك ملبوسة له. ولما كان الرجل أكمل عقلا من المرأة تجده يتحفظ على لباسه منها هي عليه.

ثم أتى تعالى بما فيه عتاب للمخاطبين فقال: (**عَلِمَ اللهُ**) منكم قبل تحليل الرفث إلى نسائكم (**أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ**) أي تخونونها وتظلمونها بالإفضاء إلى نسائكم بالجماع ليلة الصيام مع علمكم بأنه محرم عليكم، وهذا كان في صدر الإسلام، أن الرجل محرم عليه أن يباشر زوجته بعد صلاة العشاء أو بعد ما ينام. (**فَتَابَ عَلَيْكُمْ**) مما اقترفتموه من المخالفة. (**وَعَفَا عَنكُمْ**) بنقله لكم من العزيمة إلى الرخصة (**فَالْئنَ**) أي من حين نزول هذا الحكم (**بَاشِرُوهُنَّ**) بالجماع ونحوه في ليال الصيام (**وَابْتَغُوا**) أي واقصدوا (**مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ**) أي أباحه لكم من مباشرة نسائكم، ولا تحرموا ما أحل الله لكم (**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا**) أي توسعوا في سائر المبيحات المتعلقات بالبطن والفرج ليلة الصيام. (**حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ**) وهذه غاية ينعكس فيها المباح محظورا فليحذر الصائم من تجاوز الحد، ويتعين الوقوف قبل حصول الغاية، لأن مجرد نشأتها الدخول في حيز النهار، ولخفائها عبر تعالى بظهور الخيط، وتقدير كلامه حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الليل، فكان الخيط عبارة

عن القدر الجامع بين الليل والنهار المتركب منهما معا، فهو جزء من الزمان لا يتجزأ، يماثله الخيط الهندسي في الأجسام والله أعلم.

وبعد ما بين تعالى مبتدأ الإمساك، بين الآن غايته فقال: (**ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ**) الذي هو الإمساك عن شهوتي البطن والفرج من أول جزء من النهار (**إِلَى**) أول جزء من (**الَّيْلِ**) ويتحقق ذلك بمغيب قرص الشمس ويؤيده ما صح عنه ﷺ من عدة طرق، خلافا لمن اشترط لها مغيب الشفق. ثم استطرد تعالى حكما من أحكام الاعتكاف فقال: (**وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ**) أي النساء، فلا تجامعوهن (**وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ**) لأن الرجل كان يخرج ليلا من معتكفه إلى بيته فيجامع زوجته ثم يعود إلى المسجد بعد الاغتسال، فنهى تعالى عن ذلك، ولئلا يتوهم مشاركة الحكم في مباشرة النساء، وأما كون المباشرة تقع في المسجد نفسه فهي أبعد في الاحتمال لمنافاتها مطلقا. ثم قال: (**تِلْكَ**) أي المنهيات المشار لها (**حُدُودُ اللهِ**) التي حدها لعباده ليقفوا دونها (**فَلاَ تَقْرَبُوهَا**) إن أردتم السلامة في دينكم، وعبر بالقرب سدا للذريعة من التجاوز، قال ﷺ: «**إن لكل ملك حمى، وحمى الله محارمه، فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه**».

ولما تعالى أنهى الكلام على فصل الصوم، وأتى به في أحسن الأساليب فاستلفتنا لحسن البيان لنتخلق بشيء من أخلاقه فقال: (**كَذَٰلِكَ**) أي مثل ما تقدم من الأسلوب (**يُبَيِّنُ اللهُ ءَايَاتِهِ**) أي أحكامه (**لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**) فكأنه تعالى يقول: فإن رمتم معاشر المبالغين التبليغ الذي لا لوم عليكم بعده، فعليكم بحسن

البيان ورقة الأسلوب في تمكين الدعوة من القلوب، ألا ترى كيفية ابتدائه التنصيص على مفروضيات الصوم، فإنه لم يقل فرضنا عليكم صوم شهر أو ما في معنى ذلك، بل ذكره أيام معدودات، ثم ذكر ترخيصه فيه للمريض والمسافر، ثم قال: (**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين**)، ثم ذكر شهر رمضان وأطنب في مدح المنزول فيه قاطع النظر عن كونه مصوما، وكل هذا تعليما لنا، ولتتعلق النفوس بالأحكام بطيب، وإلا كانت ساخطة على الله بذلك، والله سبحانه وتعالى أرفق بعبده من ذلك.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**أحل لكم**... إلى قوله: **لعلهم يتقون**) تسعة عشر حكما:

الأول: علمنا بأن الإفضاء إلى النساء بالجماع ونحوه ليال الصيام كان ممنوعا في صدر الإسلام، من قوله: (**أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم**).

الثاني: علمنا باستهجان ما وقع من بعض الصحابة من مباشرة النساء قبل الإباحة من تعبيره تعالى (**بالرفث**) عن المباشرة لأنه يستعمل فيما لا يستحسن.

الثالث: علمنا بأنه تعالى عَذَرَ المؤمنين في مباشرتهم النساء في ليال الصيام من قوله: (**هن لباس لكم وأنتم لباس لهن**) ومن المعلوم ما كان ألصق شيء بالبدن مثل اللباس يتعذر التوقي منه.

الرابع: علمنا بأن الزوجين كليهما واقٍ لصاحبه من الفحشاء غالبا، ما دام لباسا له.

الخامس: علمنا بأن احتياج الرجل للمرأة ليس بأشد من احتياجها إليه، فكلاهما يتحدان في الملبوس والحاجة إليه واحدة.

السادس: علمنا بأن ما اقترفه بعض الصحابة من مباشرة النساء ليلة الصوم ليس هو من الكبائر، من قوله: (**علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم**) أي تمنعونها من الأجر، وإلا لقال كنتم تختانون الله أو تخونونه.

السابع: علمنا بأن من فعل ذلك قد كانت صدرت منه ندامة وتوبة من قوله: (**فتاب عليكم**) لأن الله لا يتوب على عبده إلا إذا تاب.

الثامن: علمنا بأن مباشرة الرجل امرأته ليلة الصوم هي بإذن من الله صريح. من قوله: (**فالآن باشروهن**).

التاسع: علمنا أن الإذن في مباشرتهن ليلة الصوم جاء مقيدا بأن لا نتجاوز فيه حدود الله، بمعنى يجتنب ما حرم كالحيض والنفاس والإتيان في الدبر يقصد بذلك حصول الولادة، أو كسر الشهوة خشية الوقوع في المحظور مع المحافظة على أدب الجماع، وكل ذلك يستفاد من قوله: (**وابتغوا ما كتب الله لكم**).

العاشر: علمنا بأن الأكل والشراب كانا منهيين بعد صلاة العشاء أو النوم، حسبما تقدم في الجماع من قوله: (**وكلوا واشربوا**).

الحادي عشر: علمنا أن من نزع عن الأكل والجماع مصاحبا

لشروق الفجر لا يبطل صومه، من قوله: (**حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود**).

الثاني عشر: علمنا بجواز تأخير غسل الجنب حتى بعد طلوع الفجر، من انتهاء جواز المباشرة إلى الفجر، وإذا كان كذلك لا يسعه الاغتسال إلا بعد طلوعه.

الثالث عشر: علمنا بوجوب تمام صوم اليوم بعد الشروع فيه وإن كان نفلا، إلا لعارض شرعي. من قوله: (**ثم أتموا الصيام إلى الليل**).

الرابع عشر: علمنا بأن صيام اليوم لا يصح إلا بإدخال جزء من الليل من قوله: (**إلى الليل**) حيث أدخل ذكره في الغاية.

الخامس عشر: علمنا بأن ما ذكره الفقهاء من المفطرات كتعمد القيئ واستعمال الحقنة والصعوط ونحو ذلك هو ملحق بالمفطرات الثلاث المنصوص عليها الآن وهي: الجماع والأكل والشراب، فلن تبلغ مبلغها في القوة كيفما كانت.

السادس عشر: علمنا بأن الجماع مفسد للاعتكاف من قوله: (**ولا تباشروهن وأنتم عاكفون**) لأن النهي عن الشيء في العبادة فعله مفسد لها.

السابع عشر: علمنا بأن الاعتكاف جائز في أي مسجد كان من قوله: (**في المساجد**) حيث ذكرها بصفة الجمع، خلافا لمن قيد صحته في المساجد الثلاثة أو فيما تصح فيه الجمعة.

الثامن عشر: علمنا بأن الصائم أحرى بالتوقي من الوقوع في

المنهيات من غيره من قوله: (**تلك حدود الله فلا تقربوها**) حيث نهاه عن القرب منها فضلا عن التجاوز، لأنه جاء في غير الصوم بعبارة غير هذه كقوله: (**فلا تعتدوها**).

التاسع عشر: علمنا بأن الحكم البين يبعث العبد على التقوى غالبا من قوله: (**كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون**) اللهم اجعلنا من المتقين بمنك وكرمك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين.

الإشـــــــارة

في قوله تعالى: (**أحل لكم...**) إلخ. قد تقدم أن الإمساك يختلف فيما بين الخصوص والعموم، ويتخرج من ذلك إمساك الخصوص، وقد تقدم أنهم يمسكون عما سوى الله في الجملة، فهم خارجون عن الكل حتى عن أنفسهم لا يلتفتون إليها، وإن بعد تصفيتها إلا بإذن الله لهم بذلك، وعليه فيكون في الآية توبيخ لمن رجع لنفسه قبل إذن الله له بذلك، فهو مقصر وإن مع عفو الله عنه، (**خلق الإنسان عجولا**) ولو تثبتوا حتى جاء إذن من الله بقوله: (**فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم**) لكان خيرًا لهم، لأن الإنسان وإن كان مأمورا بالخروج عن نفسه، والإمساك عن شهواتها فلابد من رجوعه إلى ذلك، لكن بإذن من الله لا بشهوة نفسه، ألا ترى أن من جامع أو أكل وشرب قبل الإذن كمن فعل ذلك بعده، فهم مشتركون في اللذائذ مختلفون في المقاصد، وهذا هو الفرق بين أخذ الدنيا في حال غيبته عن الله، وبين من أخذها بالله، موسى - عليه السلام - قيل له: **الق**

العصا، فألقاها. ثم قيل له: خذها فأخذها، فهو يأخذ بالله ويترك بالله، وهذه صفة المنقطعين إلى الله - عليهم رضوانه - وأما مباشرة النفوس والميل إليهن في أخص الحضرات المعبر عنها في المقام العام بالاعتكاف فلا تتأتى، وهي مسقطة للمنزلة إن وقعت، لأن الوقت لا يسعه إلا الله، ولهذا قال تعالى: (**ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله**) ليس لغيره فيها من بقية.

لسان الروح

يقول: إن الاعتكاف في المقام العام لا يتحقق إلا بزمن ومكان، وفي المقام الخاص لا يتحقق إلا بالخروج عليهما، أي لا يصح من صاحبه إلا في حضرة من وراء الزمان والمكان، فلهذا كان لا يصح في الجنة، لأن سقفها عرش الرحمان.

قوله تعالى

وَلَا تَاكُلُوٓاْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى الْحُكَّامِ لِتَاكُلُواْ فَرِيقًا مِّنَ اَمْوَالِ النَّاسِ بِالِاثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ

التفسير

شرع الكتاب الآن في فصل مهم ينهىٰ فيه عن أكل أموال الناس بغير حق فقال: (**وَلَا تَاكُلُوا**) معاشر العباد (**أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم**) بأن ياكل الإنسان مال نفسه وأحرى مال غيره (**بِالْبَاطِلِ**) أي بغير وجه شرعي، ومثال أكل الإنسان مال نفسه

بالباطل، كأن يهلكه في المنهيات شبه الخمر والميسر والزنا والاسراف وما هو من ذلك القبيل. وأما أكله أموال النـاس بالباطل فله طرق عديدة أشهرها الغصب، وأخفاها التوصل إليها من قبيل الخصومة والأحكام، وإليها الإشارة بقوله: (**وَتُدْلُوا بِهَا**) أي ترسلون بها (**إِلَى الحُكَّام**) مثل إرسال الدلو في البئر تفعلون ذلك (**لِتَاكُلُوا فَرِيقًا**) أيَ قسطا (**مِنَ اَمْوَالِ النَّاسِ بِالاِثْمِ**) أي ظلما وجورا (**وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**) أن ما أخذتموه مجرد زور لَا حق لكم فيه، وبالجملة إن المؤمن لا يجوز له أن يتسبب في اختلاس مال الغير بأي وجه من الوجوه، ومن هنا تعلم أن الإسلام كافل بتقرير الأمانة، وحفظ الذمة بين أفراده مهما تمكنت دولته من القلوب.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**ولا تاكلوا أموالكم... إلى قوله: وأنتم تعلمون**) خمسة أحكام:

الأول: علمنا بأن الإنسان ممنوع من أن يأكل مال نفسه بغير الوجه الشرعي، فضلا عن مال الغير من قوله: (**ولا تاكلوا أموالكم**) من حيث الإضافة.

الثاني: علمنا بأن أكل أموال الناس بالوجه الشرعي كالارث والهيبة ونحوهما ليس بممنوع، من تقيد الأكل بالباطل.

الثالث: علمنا بتحريم الرشوة إلى الحكام من قوله: (**وتدلوا بها إلى الحكام لتاكلوا**).

الرابع: علمنا بجواز إعطاء الحاكم ما يتوصل به الإنسان لحق له ضائع من قوله: (**لتاكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم**) فهو مخرج لحق الإنسان.

الخامس: علمنا بأن التحريم المتعلق بأكل أموال الناس هو مقيد بالعلم لا أن يكون بغير علم من قوله: (**وأنتم تعلمون**).

الإشارة

تمنع أهل المقام الخاص من تبذر الحقائق وبثها على غير الوجه الشرعي، وإن كانت الدنانير عزيزة عند أهلها فالحقائق أعز، فالكل يعتبر ماله مالا، والخطاب شامل في قوله: (**ولا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل**) فكل يتقي الله بقدر وسعه، ويفهم على الله بقدر علمه.

لسان الروح

يعتبر من الآية الإلزام على أن يكون الأكل بالحق، لأنه ضد الباطل، والحق هو الله، فإذا كان الأكل به فلا تمتنع بقية الحركات من الإضافة إليه.

قوله تعالىٰ

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الاَهِلَّةِ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَاتُواْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا، وَلَٰكِنِ الْبِرُّ مَنِ اتَّقىٰ، وَاتُواْ الْبُيُوتَ مِنَ اَبْوَابِهَا، وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

التفسير

خطابا لنبيه: (**وَيَسْئَلُونَكَ**) بعض الناس (**عَنِ الاَهِلَّةِ**) جمع هلال يسمى بذلك أول ظهوره، وبعد اليومين يسمى قمرا على ما ورد – والله أعلم –. كان عن سبب زيادته ونقصانه، ولما كان ذلك يستدعي طولا على ما يتضمنه علم الفلك، ومثل ذلك البيان يخرج عن المقصود الأهم من بعثة النبوءة، ولهذا جاء الجواب على مقتضى الظاهر، قال تعالى له: (**قُلْ هِيَ**) أي الأهلة جعلت (**مَوَاقِيتُ**) بالمعنى أوقات (**لِلنَّاسِ**) يعرفون بها أزمنة المعاملة الدنياوية كالصوم (**وَالْحَجِّ**) فإنه تعالى استلفت السائل من التطلع عن أسباب إلى إيضاح ما به الحكمة في خلق الأهلة، وهذا من حسن الإهتمام بحال السائل، فربما كان غير مستعد لحمل الجواب، وهذا مما يزيد في احترام جانب النبوءة في نظر المستيقظين، إذ لو كان الجواب من عند نفسه على ما يزعمون لربما جاء على خلاف الاكتشافات الوقتية المتعلقة بنقصان الهلال وزيادته، والذي زاد في الآية مهابة وجمالا هو ارتباطها بقوله: (**وَلَيْسَ الْبِرُّ**) الذي تسمون به أبرارا هو (**بِأَنْ تَاتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا**) والمعنى بأن تسألوا رسولكم مثل هذا السؤال وتحوجونه إلى بث ما لا يقبل، لأنه لو أخبرهم أن سير الهلال ليس ذلك المشهود في نظرنا، إنما ذلك متوقع من حركة الأرض، وأن الهلال ضوؤه لا يزيد ولا ينقص، فنصفه دائما مقابل للشمس، أو ما هو من هذا القبيل، لبعدت الشقة وتعذرت المسالك، ويكون ذلك خارجا عما أرسل لأجله، فلهذا أتى تعالى بهذه الآية يقول فيها ليس ذلك هو البر، (**وَلَـٰكِنِ الْبِرُّ**) بر

(مَنِ اتَّقَىٰ) الله وسعى فيما يقرب إليه **(وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا)** في كل شيء شيء، فمن رمى أمرا كيفما كان لزمه أن ياتيه من بابه، فكأنه تعالى يقول: فمن أراد فن النجوم أو الحساب أو الشعر أو ما أشبه ذلك فلياته من بابه. وأما محمد ﷺ فقد جاء بالتوحيد وبما يتعلق بأحكام العبيد، فاتبعوه على ما جاءكم به **(وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)** وما ذكرناه هو من أسرار الترتيب في الآي القرآنية، وأما معنى ما نزلت من أجله **الآية** قبل إن العرب كانت قبل الإسلام وفي صدره أيضا إذا أحرم أحدهم بالحج، وأراد أن يدخل بيته يدخلها من ظهورها، وربما يتطيرون من دخول البيوت من أبوابها، فأنزل الله قوله: **(وليس البر...)** إلخ. واضممت لما قبلها لارتباطها بمعناها، وكل يفهم بقدر علمه.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: **(يسألونك عن الاهلة... إلى قوله: لعلكم تفلحون)** خمسة أحكام:

الأول: علمنا بلزوم ملاحظة السائل حال السؤال، وصرفه لما هو الأولى به، إن كان على غير استعداد للجواب، من قوله: **(قل هي مواقيت للناس)** مع أن السؤال كان في نقصان الهلال وزيادته.

الثاني: علمنا بأن الوقوف مع العوائد ليس هو من البر في شيء من قوله: **(وليس البر بأن تاتوا البيوت من ظهورها)**.

الثالث : علمنا بأن التسور على المحل والدخول إليه من غير بابه، ليس هو مما يرضي الله ورسوله من قوله : **(وأتوا البيوت من أبوابها)**.

الرابع : علمنا بأن البر منحصر في التقوى من قوله : **(ولكن البر من اتقى)**.

الخامس : علمنا بأن التقوى ليست بصفة لازمة للمتقي حتى يدعيها لنفسه، فهي لا تتحقق من صاحبها إلا بعد مفارقته البدن، من قوله : **(واتقوا الله لعلكم تفلحون)**.

الإشارة

في قوله : **(يسألونك عن الاهلة)** تستلفت المريد إلى حسن السؤال من مرشده، وحرصه على ما هو الأهم في حال سلوكه، والمعنى أنه لا يشتغل بالبحث عما لا يعنيه، ألا ترى أن السؤال كان من بعض الصحابة عن نقصان الهلال وزيادته ومع ذلك استلفتهم الله لغيره، فكيف بمن يكلف مرشده بأسئلة واهية ومسائل خالية، أو يطلب من مرشده أن يتكلم معه في علوم ليست معرفتها بشرط في صحة الولاية، فكل ذلك من المحظورات في طريق القوم. وأما قوله : **(وليس البر بأن تاتوا البيوت من ظهورها)** فهو يشير إلى من أراد الدخول على الله من غير بابه، كمن يريد أن يَحْصُلَ على سر الخصوصية بدون ما يتنزل لأربابه، قال تعالى لمن أراد الدخول عليه : **(واتوا البيوت من أبوابها)** ولكل مكان باب، ولكل مليك حجاب.

لسان الروح

يقول: إذا كانت الباب في الجسم هي كالجزء منه على ما يقتضيه الفهم، فلم ندر أهي في المعنى كذلك أم غير كذلك؟ وقد اتضحت في رسول الله (**ومن يطيع الرسول، فقد أطاع الله**).

قوله تعالىٰ

وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوَاْ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ، وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ، وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ، وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ، فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، كَذَٰلِكَ جَزَآءُ الْكَافِرِينَ، فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ، فَإِنِ انتَهَوْاْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ، الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ، فَمَنِ اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ، فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ، وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُوَاْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ، وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

التفسير

فهذا أوان شروع الكتاب العزيز في ذكر شيء من أحكام الجهاد، قال تعالى خطابا لنبيه ومن معه من المؤمنين، ويشمل كل متأهل من أمراء الملة في كل عصر مع الإمكان: (**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ**) أي لإعلاء كلمة الدين ونصرة المسلمين (**الذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ**) أي يبتدؤنكم بالقتال، فلا تتسببوا فيه أنتم، وهذا يفهم من المقام. لأنها نزلت في حال القلة وهي صالحة لكل زمان مطابق لما نزلت فيه. (**وَلاَ تَعْتَدُوا**) في حال الجهاد بأن تجاوزا الحد بقتل من لم يقاتل كالصبيان والنساء والشيوخ والرهبان، وما لا أهلية فيه لحمل السلاح. (**إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**) بمثل ذلك الفعل (**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**) أي وجدتموهم، وهذا إغراء منه تعالى، وتشجيع للمؤمنين على عدوهم، وهو راجع لمن فيهم أهلية للقتال، فهؤلاء هم الذين يقتلون حيثما وجدوا (**وَأَخْرِجُوهُم مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ**) سواء بسواء، فإن نزعوكم من الملك فانزعوهم منه، وإن أخرجوكم من دياركم فأخرجوهم، وهي فتنة مبدؤها فعل المشركين مع النبي والصحابة، فقد أخرجوهم من مكة ولهذا قال تعالى: (**وَالْفِتْنَةُ**) التي فتنكم بها المشركون (**أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ**) الذي أصابهم بأيدي المؤمنين. ثم نهى تعالى عن سفك الدم في الحرم الشريف فقال: (**وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**) يعني جميع الحرم أي لا تبتدؤنهم بالقتال فيه (**حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ**) أي في الحرم (**فَإِن قَاتَلُوكُمْ**) بأن بدؤوكم بالحرب (**فَاقْتُلُوهُمْ**) أشد قتال ولا حرج عليكم، (**كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**) أي مثل ذلك القتال

يجزي الله به الكافرين (**فَإِنِ انتَهَوْا**) عن بغيهم وفسادهم وارتدعوا عن شركهم بالله فكفوا عنهم (**فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ**) عما سلف من قبل التوبة (**رَحِيمٌ**) بعبده، فلا يرضى منكم معاشر المؤمنين الإسراف في القتل. ولما ذكر تعالى نفسه بالرحمة ذكر من لولاه لوقفت الحروب تسكين الفتنة والسعي في إخمادها، وهو قوله: (**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ**) أي حتى لا تبقى فتنة قائمة أو كامنة تتوقعونها في الدين ولا في الدنيا (**وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ**) لا لغيره كيفما كان (**فَإِنِ انتَهَوْا**) أي المحاربون خلوا سبيلهم، ولا تعتدوا عليهم (**فَلاَ عُدْوَانَ**) جائزا أو واجبا (**إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ**) منهم لا غير، فلا يؤخذ الكل بالبعض.

ثم قال تعالى: (**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ**) فكأنه يقول: الجزاء من جنس العمل فإن المشركين منعوا النبي ﷺ والمؤمنين من الدخول إلى مكة عام الحديبية في ذي القعدة، وهو من الشهور الحرم، والنبي قصدهم في ذلك الشهر فكان جزاء وفاقا، ثم قال: (**وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ**) أي من انتهك حرمة في جميع الأمور يقتص منه بمثلها، فلما انتهكت قريش حرمة الشهر وصدوا النبي والمؤمنين فيه عن زيارة البيت، انتهك الله حرمتهم فيه، ولهذا قال: (**فَمَنِ اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ**) بقتل أو نهب أو نحو ذلك (**فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ**) إلا إذا كان الاعتداء منه بما حرم عليكم كاللواط والزنا وقتل الأطفال، ومن لا أهلية فيه للقتال فلا تفعلوا، ولهذا قال: (**وَاتَّقُوا اللهَ**) أي في الاعتداء فلا تجاوزوا إلى الإسراف، وإن فعلتم ذلك فإن الله لا ينصركم لقوله: (**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**) الواقفين مع

حدود الله في كل شيء شيء، فهم الذين يمّكن لهم في الأرض.

وبعد ما أمر الله المؤمنين أن يجاهدوا في سبيل الله بأنفسهم استلفتهم لبذل المال في ذلك السبيل، لأنه أجدر بالإعانة على الجهاد فقال: (**وَأَنفِقُوا**) أي من أموالكم (**فِي سَبِيلِ اللهِ**) أي لأجل الجهاد في سبيله (**وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**) بأن تهلكوا جميع أموالكم فإن ذلك فيه هلاك، لأنه مع قلة ذات اليد يحتقركم العدو، فالمال أبلغ حصن في وجه العدو، وفي الآية تنبيه على الحذر في مباشرة الحروب. ثم قال تعالى: (**وَأَحْسِنُوا**) أي في جميع ما تقدم، لكل مقام وما يستحقه من الإحسان لما في الحديث «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، حتى إذا قتلتم فاحسنوا القتلة**» أو كما قال ﷺ: (**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**) فمن تمعن في التنزيل كلما مر على فصيلة من كتاب الله يزداد بها إعجابا، ألا ترى أنه تعالى لما ختم فصل القتال وكان مظنته الغلظة والقساوة، أمر في آخره بالإحسان لعلمه تعالى أن الملك لا يستقيم إلا إذا كانت الشدة يوارها بوازرها الإحسان، وهل توجد قوانين أرضية عند أي قوم تحترم الإنسانية، وتربط الشدة بالإحسان في حالة يتعذر الجمع بينهما كلا! إلا إذا كانت مشتقة من كتاب الله.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**وقاتلوا في سبيل الله... إلى قوله: إن الله يحب المحسنين**) ثلاثة وعشرون حكما:

الأ و ل: علمنا بأن القتال المأذون فيه شرعا هو ما كان لإعلاء كلمة الله لا غير، من قوله: (**في سبيل الله**).

الثاني: علمنا بأن الأمر إذا كان في حال القلة من المدد، وبالجملة أن المسلمين إذا كانوا في حالة الضعف لا يستحسن منهم نشب الحرب مع العدو، من قوله: (**الذين يقاتلونكم**) لأنها نزلت في أول الأمر.

الثالث: علمنا أن من لم يتأت منه القتال كالصبيان والشيوخ والنساء ونحوهم لا يجوز قتلهم من قوله: (**الذين يقاتلونكم**) أيضا، وهؤلاء ليسوا مستعدين للقتال، وحتى لو صدر من أحدهم فهو على سبيل الندور، فلهذا يتعين العفو عنه من القتل عند الظفر.

الرابع: علمنا بجواز قتال من يحاربنا وإن كان مسلما، من قوله: (**الذين يقاتلونكم**) حيث لم يقيدهم بالكافرين ولا بغيرهم.

الخامس: علمنا بوجوب الوقوف مع القوانين الحربية ومنع التعدي في كل شيء شيء، وإن الأمر في ذلك مؤكد من قوله: (**ولا تعتدوا**).

السادس: علمنا بلزوم عقوبة المتعدي بما يستحق، وتتعين على أمير الجيش من قوله: (**إن الله لا يحب المعتدين**).

السابع: علمنا بجواز قتل من يقاتلنا حيثما وجدناه ولو في البيت الحرام، من قوله: (**حيث ثقفتموهم**).

الثامن: علمنا بوجوب اعتبار ما كان بأيدي المسلمين من

الأملاك، وأنـه لا يجوز قطع النظر عن عودتـه من قولـه: **(وأخرجوهم من حيث أخرجوكم)**.

التـاسـع: علمنا بوجوب إخمادنا للفتن بكل طريق، وانها أشد داهية على المجتمع الإنساني من قوله: **(والفتنة أشد من القتل)**.

العاشر: علمنا بتحريم قتل الجاني أو الكافر في الحرم الشريف ما لم يقاتلنا، من قوله: **(ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه)**.

الحادي عشر: علمنا بجواز قتل المتعدي على غيره وإن في المسجد إن لم يأمن ضرره في ذلك الحال. من قوله: **(فإن قاتلوكم فاقتلوهم)** أي فيه.

الثاني عشر: علمنا بوجوب كفنا عن القتال مهما ظهر من العدو ما يدل على انتهائه إن تحققت عدم المكيدة، من قوله: **(فإن انتهوا فإن الله غفور)**.

الثالث عشر: علمنا بوجوب معاملتنا لهم بالرحمة واللين بعد وقوعهم بأيدينا، حيث استلفتنا الحق عند انتهاء الحرب إلى كونه غفورا رحيما.

الرابع عشر: علمنا بوجوب وقوف الجيش على ساق الجد في تمهيد المسالك وبث الأمن بكل وسيلة، ولا يضع لوازم الحرب حتى يأمن كل فتنة من قوله: **(وقاتلوهم حتى لا تكونوا فتنة)**.

الخامس عشر: علمنا بلزوم تقرير أهل الكتاب على دينهم إذا حللنا بأرضهم دون المشركين والدهريين من قوله: **(ويكون الدين لله)** لأن أهل الكتاب ممن يتدينون لله.

السادس عشر: علمنا بأن المتعدي من العدو وبعد أن تضع الحرب أوزارها يحمل عليه بأشد العقوبة، وذلك الحكم يماثله الآن في اصطلاح الوقتيين الحكم العرفي، لأنه يريدان يكدر صفو الأمن، ويؤخذ من قوله: (**فلا عدوان إلا على الظالمين**) حيث عبر بالعدوان يشير إلى شيء من تجاوز الحد في العقوبة.

السابع عشر: علمنا بأن منتهك الحرمة يقتص منه كيفما كان بقدر ما يستحق، من قوله: (**والحرمات قصاص**).

الثامن عشر: علمنا بأن الجزاء في الحروب يكون من جنس العمل، من قوله: (**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم**).

التاسع عشر: علمنا بأن العدو إذا تعدى القوانين الحربية أو انتهك حرمة الشريعة لا نقابله بمثل فعله مهما ظفرنا به من قوله: (**واتقوا الله**) أي في الجزاء، وإن كان العدو لم يتق الله.

العشـــــرون: علمنا بأن المحافظ على القوانين السماوية في الحرب لا يفارقه تأييد الله، من قوله: (**واعلموا أن الله مع المتقين**) أي في حال القتال لأنها ذكرت بصدده.

الواحد والعشرون: علمنا بوجوب بذل المال في الجهاد، كوجوب بذل النفس، وإن قائمته لا تقوم إلا به، من قوله: (**وأنفقوا في سبيل الله**) وإن كان هو أعم فقد أراد به الجهاد، الآن.

الثاني والعشرون: علمنا بلزوم أخذ الحذر في كل شيء، وأن الأمير لا يلقي بجيشه إلى الهلاك، وهكذا كل فرد في نفسه من قوله: (**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**).

الثالث والعشرون : علمنا بوجوب الإحسان إلى الجرحى والأسراء وغيرهما من سائر الضعفاء، من قوله: (**وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**) اللهم أجعلنا من جملتهم يا أرحم الراحمين آمين.

الإشـــــارة

لا تحمل القتال إلى على قتال النفس وأعوانها من الشيطان والدنيا والهوى وأعوانهم، لأنها ترى جهاد النفس أسبق من جهاد الجنس، لأن تلك العصابة هي التي منعت حظنا من الله، ولهذا قال تعالى خطابا للمتوجهين: (**وقاتلوا في سبيل الله**) أي في طريقه (**الذين يقاتلونكم**)، وليس هو إلا ما تقدم.

ثم إن المشتغل بمحاربة نفسه لا ينبغي له أن يتجاوز الحدود بأن يفرط في تضييعها لقوله: (**ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**) ولما كانت دسائس النفس والشيطان قد تخفى على غير البصير، وربما لا يتهم النفس في الطاعة، والشيطان في بعض النصائح، قال تعالى: (**واقتلوهم حيث ثقفتموهم**) ولما كان وارد النفس ربما يقول للذاكر إني ما قتلتك، فكيف تروم قتلي، وحق الجزاء أن يكون من جنس العمل، قال تعالى: (**والفتنة أشد من القتل**) ولا محالة أن النفس هي التي فتنتنا في ديننا فقتلها مشروع بهذا الإعتبار، ومتى ينتهي ميدان المحاربة قال تعالى: (**حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله**) ومع ذلك لا تؤمن مكائد النفس والشيطان، فيتعين على أمير الجيش الذي هو القلب أن لا يأمن من أعدائه ما دام في قيد الحياة.

لسان الروح

لا يعتبر من سائر الحروب إلا مجرد تضارب للأسماء والصفات في لج بحر الذات، والكل بالوسيط، (**والله من ورائهم محيط**).

قوله تعالى

وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لله، فَإِنْ احْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ، وَلاَ تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ، فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا اَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ اَوْ صَدَقَةٍ اَوْ نُسُكٍ، فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَّمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ، فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ اِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ، ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنَ اَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

التفسير

هذا أوان شروع الكتاب في ذكر شيء من أحكام الحج قال تعالى: (**وَأَتِمُّ الْحَجَّ**) أي وجوبا إذا شرعتم فيه ولو كان نفلا، وأحرى الحج الواجب الذي هو مرة في العمر (**وَالْعُمْرَةَ**) كذلك إتمامها واجب بعد الشروع فيها، وإلا فهي سنة من قبل.

ولما كان الإنسان قد يتشوف لوجه الحكمة في مفروضية

الحج ومسنونية العمرة من الدين قال تعالى: (**لِلهِ**) أي افعلها أيها المكلف لله، ولا تبحث عن وجه الحكمة، لأن العقل يتعذر عليه أن يطلع على وجه الحكمة في سائر الأحكام، وقدم تعالى وجوب إتمام الحج والعمرة ليرتب عليهما قوله: (**فَإِنْ أحْصِرْتُمْ**) أي منعتم من إتمام الحج والعمرة بعد الدخول فيهما بسبب عدو أو نحوه (**فَمَا اسْتَيْسَرَ**) أي تيسر (**مِنَ الْهَدْيِ**) يجب عليكم تهدونه أي تذبحونه للفقراء، وهو إما بدنة أو بقرة أو شاة، والذي تيسر من ذلك جائز وبه يقع التحليل. ثم قال: (**وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ**) أي لا تعجلوا بالحلق والتقصير (**حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ**) الذي تهدونه (**مَحِلَّهُ**) وهو الحرم حتى تظنوا أنه بلغه وذبح إن بعثتموه على التقدير، وهذا مع الإمكان، وإلا ذبح بمحل الإحصار كما فعل النبي ﷺ بالحديبية وهي بالحل.

ولما ذكر تعالى الحلق وأن المحرم لا ينبغي له يحلق حتى يبلغ الهدي محله، تشوف المضطر للحلق كالمريض الذي برأسه أذى فقال: (**فَمَن كَانَ مِنكُم مَرِيضًا**) في حال إحرامه مرضا يحوجه إلى الحلق (**أَوْ بِهِ أَذًى مِن رَأْسِهِ**) كالقمل ونحوها فحلق (**فَفِدْيَةٌ**) تجب عليه وهي (**مِن صِيَامٍ**) وقدرها أيام ثلاثة (**أَوْ صَدَقَةٍ**) وهي إطعام ستة مساكين مد لكل مسكين (**أَوْ نُسُكٍ**) والمراد بها ذبح شاة للفقراء ،ثم قال: (**فَإِذَا أَمِنتُمْ**) أي كنتم في حال الأمن فحكم آخر وذلك (**فَمَن تَمَتَّعَ بِـ**) سبب فعل (**الْعُمْرَةِ**) بالمعنى أتى بها الأفاقي في أشهر الحج ليتحلل بعد الفراغ منها، فيستمتع بمحظوات الإحرام، (**إِلَى الْحَجِّ**) أي يبقى متمتعا إلى وقت إحرامه بالحج، وعليه فأي شيء يلزمه؟ قال

تعالى: (**فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ**) وهو شاة يذبحها بعد إحرامه بالحج (**فَمَن لَّمْ يَجِدْ**) الشاة أو ثمنها (**فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ**) يلزمه صيامها (**فِي الْحَجِّ**) أي في حال إحرامه، والأولى أن تكون قبل أيام النحر، وإلا فبعد أيام التشريق، وهذه في الحج (**وَسَبْعَةٍ**) من الأيام تصومونها (**إِذَا رَجَعْتُمْ**) لأهلكم (**تِلْكَ**) الأيام الملفقة بين الحَلِّ والحرم (**عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ**) وفي تفخيم الأيام وتأكيدها بذكرها كاملة ما يسكن فؤاد الفقير الذي لم يجد هديا، لأنه ربما يخلج فؤاده أن يكون حجه ناقصا بسبب عجزه عن الهدي، فذكر له تعالى هاته الجملة لكمال الاعتناء بفعله، فكأنه يقول: تلك عشرة، وأي عشرة كاملة، فسبحانه ما أرفقه بعباده، لأن الملحد يقول: ما فائدة التكرار وليته سكت!

ثم قال: (**ذَٰلِكَ**) أي الحكم المتقدم من لزوم الهدي أو الصوم على المتمتع هو (**لِمَنْ لَمْ يَكُنَ اَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**) وأما هو أي المقيم بمكة فلا هدي عليه إن قدم العمرة على الحج. ولعلك تتشوف لوجه تقييد الحكم بالأفاقي، فأقول: تعين عليه الهدي، لأنه كالمخل بشيء من حجه وهو الإحرام من الميقات المكاني حيث لم يأت به، لما أراد الإحرام بالحج، وأما الحضري فميقات إحرامه البيت، وهو لم يتغير، سواء قدم العمرة أو أخرها، فهو لم تظهر فيه فائدة التمتع، ولما كانت حرمة الحج أعظم الحرمات من جهة كون الحاج محرما وفي البيت الحرام، وفي الشهور الحرم، وكانت محرمات الإحرام كثيرة يحتاج معها إلى خوف شديد من الله، قال تعالى خطابا للمحرمين: (**وَاتَّقُوا اللهَ**) أي خافوه بفعل ما أمركم به، واجتناب ما نهاكم عنه،

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) أي استحضروا بطش الله وشدته، واعلموا أنكم في حضرته وزوار بيته، فيلزمكم من الأدب ما لم يلزم غيركم.

الاستنبـــاط

يستخرج من قوله تعالى: **(وأتموا الحج... إلى قوله: إن الله شديد العقاب)** ثمانية عشر حكما:

الأول: علمنا بوجوب إتمام الحج أو العمرة بعد الدخول فيهما، ولا مندوحة للخروج منهما بعد الشروع من قوله: **(وأتموا الحج والعمرة)**.

الثاني: علمنا بأن الأولى أن لا نسأل عن وجه الحكمة في مشروعية الحج. من قوله: **(لله)** أي افعلهما لله ولا تبحث.

الثالث: علمنا بأن العمرة قارنة الحج ولم تبلغ مبلغه، من اقترانها به وتقدمه عليها.

الرابع: علمنا بأن الحج مظنة الإحصار، وأن طرقه قل أن تأمن حكمة الله، من قوله: **(فإن احصرتم)**.

الخامس: علمنا بأن المنحصر عن إتمام الحج يتعين عليه الهدي للتحليل بلا بدل، حيث لم يذكر بدله، فهو لازم له، وإن إلى بلاده.

السادس: علمنا بأن الهدي المأمور به هو مخير فيه بين البدنة والبقرة والشاة من قوله: **(فما استيسر من الهدي)**.

السابع: علمنا بأن الحلق مؤخر ما تأخر الهدي من قوله: (**ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدي محله**).

الثامن: علمنا بأنه متى أمكننا إرسال الهدي لأن يذبح في الحرم كان أولى من قوله: (**حتى يبلغ الهدي محله**).

التاسع: علمنا بأن المريض المضطر لحلق الرأس حكمه غير حكم الصحيح من قوله: (**فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه**).

العاشر: علمنا بأن المضطر للحلق إذا وقع منه في حال الإحرام تتعين عليه الفدية من قوله: (**ففدية من صيام أو صدقة أو نسك**).

الحادي عشر: علمنا بأن الصيام في فدية الحلق أولى من تصدره أولا، وزيادة أن الذي يتأذى بسبب عدم الحلق المترفه لا الفقير، فلهذا قدم الصوم ليلا يتهاون، لأن الصوم أشق به، بخلاف لو قدمت الصدقة فتكون أهون عليه.

الثاني عشر: علمنا بأن الله يريد من زائر البيت في الشهور الحرم أن يقدم الإحرام بالحج على العمرة من ترتب الهدي على المتمتع.

الثالث عشر: علمنا بلزوم تأخير الهدي إلى حال إحرامه بالحج، من قوله: (**إلى الحج فما استيسر من الهدي**) حيث أوصله بالحج ولم يذكره عقب العمرة.

الرابع عشر: علمنا بأن من لم يجد الهدي أو لم يجد ثمنه في الحكم سواء، كلاهما يشمله قوله: (**فمن لم يجد فصيام**).

الخامس عشر: علمنا بوجوب تفرق الصوم بين الحل والحرم من قوله: (**ثلاثة أيامٍ في الحج وسبعة إذا رجعتم**).

السادس عشر: علمنا بأن البدل الذي هو الصوم وقع موقع المبدل الذي هو الهدي من تفخيمه تعالى للعشرة أيام بقوله: (**تلك عشرة كاملة**).

السابع عشر: علمنا أن حكم المتمتع المتقدم هو خاص بغير المكي من قوله: (**ذلك لمن لم يكن أهله حاضري**).

الثامن عشر: علمنا بأن الله يريد من المحرم بالحج أو العمرة أن لا يتهاون بشيء من أنواع المناسك، وذلك يفهم من ذكره تعالى نفسه آخر الفصل بكونه شديد العقاب.

الإشـــــارة

تفهم من قوله: (**وأتموا الحج والعمرة لله**) أي أتوا بهما على الوجه التام، وذلك لا يتأتى إلا لمن كان إبراهيمي المقام فابتلاه (**ربه بكلمات فأتمهن**) لأن الحج حج المقاصد، فمن زوار للبيت ومن زوار لرب البيت.

ثم إن الإنسان المطلوب بفريضة الحج هو عبارة عن جسم وروح وقلب، ومن المعلوم أن حج الأجسام بانفراده عن حج الأرواح والقلوب هو غير تام في الحقيقة، وإن تم في الصورة، ولهذا قال تعالى: (**وأتموا الحج والعمرة لله**) أي لا للبيت، لأنها من الظروف، وزيارة الله لا تحصل للعبد إلا بالانسلاخ عن الظروف الزمانية والمكانية، وذلك متعذر عن العموم، ولهذا

قال: (**فإن أحصرتم**) أي قيدتكم الظروف واستصعبتم النفوذ منها (**فما استيسر من الهدي**) أي قدموا بين يدي نجواكم صدقة، ولا صدقة أقرب ولا هدي أنسب من بذل النفس، وإن كانت عزيزة فالمبذول من أجله أعز.

لسان الروح

يرى تمام المعنى في قوله: (**وأتموا الحج والعمرة لله**) عند اللام الأول من قوله: (لله) وهو أقرب مسلك من الإسم، لأن فيه ضمير المتكلم بانفراده، وليس بين المخاطب والمخاطب واسطة، بخلافه في تمام الإسم على ما يقتضيه الالتفات، والغيبة مظنة الانفصال، وهي من أمحل المحال.

قوله تعالى

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ، فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ، وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ، وَتَزَوَّدُواْ، فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ، وَاتَّقُونِ يَآ أُوْلِي الأَلْبَابِ

التفسير

(**الْحَجُّ**) أي زمانه الذي ينعقد فيه هو (**أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ**) عند العرب كانوا يعرفونها قبل الإسلام، وهي شوال وذو القعدة والعشر الأوائل من ذي الحجة، فالإحرام قبلها لا يصح، وقيل يصح مع الكراهة أو التحريم، وعليه (**فَمَن فَرَضَ**) أي أوجب

على نفسه (**فِيهِنَّ**) أي في تلك الأشهر (**الْحَجَّ**) بحيث نوى الدخول فيه فليكن ببال أنه (**فَلاَ رَفَثَ**) والمراد به الجماع وما هو من لوازمه (**وَلاَ فُسُوقَ**) والمراد به المعاصي كيفما تنوعت (**وَلاَ جِدَالَ**) والمراد به المخاصمة بأنواعها، وأحرى كونها في الدين، وكل ذلك لا يكون شيء منه (**فِي الْحَجِّ**) والمراد به في حال الإحرام، غير أن الجماع مفسد للحج ويصح في الباقيين مع عدم الثواب والله أعلم.

ولعلك تقول: ما وجه إدخال الجماع المرغب فيه شرعا، والجدال المحلل مع الفسق المنكور شرعا وطبعا في نص النهي؟ فأقول: إن الجماع هو مرغب فيه في أوقات العبادة، وأما في حال الصلاة أو الصوم أو الإحرام فيكون معصية، فيتحد مع الفسوق بهذا الاعتبار، لأنه مظنة الغفلة عن الله غالبا. وأما الجدال فهو أصل لكل عداوة وخلاف بين أفراد المسلمين، ألا ترى أن أصل كل تفرقة بين الأمة سببها الجدال، وبهذه المناسبة نهى تعالى عنه في الحج، لأنه مجتمع العالم الإسلامي، وحكمة مشروعية الحج، منها تصحيح الروابط وتحريك لسلسلة المودة حسبما سيأتي - إن شاء الله -، وإذا فتحت باب المجادلة ما بين المسلمين مع ما هم عليه من اختلاف المذاهب في العقائد وغيرها، تنكسر القلوب لا محالة، وينعكس الشيء لضده، سبحان من نزل الشرع وأسس مبناه.

ثم قال تعالى صافحا عن عيوب المؤمنين (**وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ**) في أيام حجكم، والمراد به ما خرج عن الرفث والفسوق والجدال. (**يَعْلَمْهُ اللهُ**) فكأنه تعالى نظر المحرمين نظرة من لم

يصدر منه ذنب البتة حيث قال : (**وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ**) مع أنه يعلم خيرهم وشرهم. ثم قال تعالى مخاطبا لزوار البيت (**وَتَزَوَّدُوا**) إن أردتم السفر، وفيه نهي على أن يسافر الحاج بدون زاد لما في ذلك من المضار، منها أن السفر بدون زاد مظنة الضياع، ومنها يُلْجِئ صاحبه إلى أكل أموال الناس والإضرار بهم، ومنها أن الحاج يقصد أهل الحرم لينفق على ضعفائهم، وعلى الأقل أن لا يكون عيلة عليهم، ولا يخفى ما يحصل من الضيق في الحرم الشريف للجانبين الزائر والمزار، ولهذا قال تعالى: (**وتزودوا**) ولما كان الزاد المحتاج إليه زوار البيت غير منحصر فيما به قوام البدن، بل يحتاج إلى الزاد من الصبر وحسن الخلق، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة، وكان لفظ التزود شاملا، قال: (**فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ**) من ذلك جميعا (**التَّقْوىٰ**) فيمن تزودها لا يخشى على نفسه في أي سفر كان، دنياوي أو أخراوي ولهذا قال: (**وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ**) أي يا أهل العقول، فإن التقوى أعز شيء في الوجود.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**الحج أشهر معلومات... إلى قوله: يا أولي الالباب**) تسعة أحكام:

الأول: علمنا بأن الإحرام بالحج لا يجوز في غير الشهور الحرم من قوله: (**الحج أشهر معلومات**).

الثاني: علمنا بأن الحج فرض معلق على المكلف، فإن التزمه

وقع عليه من قوله : (**فمن فرض فيهن الحج**) أي فرضه على نفسه وإلا كان مفروضا عليه من الله.

الثالث : علمنا بأنه لا شيء من المباحات يتضمن فعله وجود الغفلة عن الله من الجماع، وإلا لما خصص بالتحريم حال الإحرام من المباحات.

الرابع : علمنا بأن إسم الفسوق في الحج هو أعم منه في غيره لدخول محظوات الإحرام فيه بدليل ذكره (**وما تفعلوا من خير يعلمه الله**) عقب الرفث والفسوق والجدال، فكأنه يقول : لم يبق بعد تحاشي الثلاثة إلا فعل الخير.

الخامس : علمنا بأن الجدال جائز ما لم يتعد أو يخشى ضرره من تحريمه بالحج، وما ذلك إلا لخشية انتشار الفتنة والله أعلم .

السادس : علمنا بأن الله يريد منا بث أنواع الخير وبذل المعروف مطلقا، أي كيفما كان من قوله : (**وما تفعلوا من خير**) ذكره منكرا.

السابع : علمنا بأن الله لا يريد من المسافر أن يجنح إلى التوكل بزعمه مع قدرته على اتخاذ الزاد، بل حقه أن يتزود، ويزود غيره من قوله : (**وتزودوا**) فإذا كان هذا أمره لمن قصد بيته، فكيف بمن قصد مصالح نفسه.

الثامن : علمنا أن من لم يجد زادا تكفيه التقوى زادا إن تحققها من نفسه، من قوله : (**فإن خير الزاد التقوى**) دنيا وأخرى.

التاسع : علمنا بأن (**أولوا الألباب**) أي أهل العقول السليمة هم

المطلوبون أن يتقوا الله لذاته من قوله: (**واتقون يا أولي الالباب**) وأما من سواهم يتقون النار، ولهذا خاطبهم بقوله: (**فاتقوا النار**) في غير هذا الباب.

الإشـــــارة

ترى الحج هو عبارة عن مقام يصل إليه السائر إلى الله يتعذر عليه فيه أفعال المباحات، فضلا عن المحظورات بسبب ما يطرقه من الهيبة والجلال، ولهذا قال: (**فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج**) وهذا ليس بنهي، وإنما هو خبر بما يقتضيه المقام، فالحياء من الله يمنع صاحبه مما هو كالجماع، وحتى لو أراده، بطبعه يحول الحق بينه وبين قصده، ويقع بصره على الحق قبل أن يقع بصره على زوجه، و (**همت به وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه**) ومن هذا القبيل ما روي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: « **أتاني رسول الله في ليلة حتى مس جلده جلدي ثم قال لي: ذريني أتعبد لربي، فقام إلى القربة...** » إلخ الحديث. فما منعه من المباشرة إلاَّ ما هو من ذلك القبيل.

وأما الفسوق هو من باب أولى أن لا يتيسر في مثل ذلك الحال. وكذلك الجدال هو غير متيسر لصاحب هذا المقام، لكونه يسمع من الله، ويفهم عن الله، وأي شيء يواجه به الله؟ وبالجملة، هذا المقام ما يصدر من صاحبه إلا ما هو خير بالجبلية في ذلك المقام، ولهذا قال: (**وما تفعلوا من خير يعلمه الله**) إذ لو كان يصدر من صاحبه شر لقال: وما تفعلوه يعلمه الله

أو ما في معناه، ولما كانت نفوس المتوجهين تتشوف لنيل هذا المقام، وللجد في طلبه، دلهم تعالى على ما هو الأنفع لهم فقال: (**وتزودوا، فإن خير الزاد التقوى، واتقون يا أولي الالباب**).

لسان الروح

يقول: لما كان الخطاب في قوله تعالى: (**واتقون**) متعلقا بأولي الالباب، وهم أقرب العباد من ربهم، حذفت ياء المتكلم لضيق المقام في المعنى (**فكان قاب قوسين أو أدنى**).

قوله تعالىٰ

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّنْ رَّبِكُمْ، فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ، ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيثُ أَفَاضَ النَّاسُ، وَاسْتَغْفِرُواْ اللهَ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوَ اَشَدَّ ذِكْراً

التفسير

ربما يتوهم منع التجارة للمحرم في حال إحرامه لأنها مظنة الجدال، والحق يقول: (**ولا جدال في الحج**) زيادة أن ممازجتها للعبادة مستبعدة لما يترتب عليها من الغفلة عن التلبية ونحوها، ولولا إذن الله فيها لما تجاسر أحد أن يقدم عليها في حال

الإحرام، ومن أجل ذلك رفع تعالى الإيهام بقوله: (**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ**) أي فلا إثم عليكم إن أردتم (**أَن تَبْتَغُواْ**) أي تطلبوا في حال إحرامكم (**فَضْلاً**) أي سَعَةً ورزقا (**مِن رَّبِّكُمْ**) بتعاطي التجارة أو الصناعة أيام الموسم، وكانت الجاهلية ترى ذلك ممتنعا، حتى أنهم يقيمون أسواقهم أيام الحج. ولما جاء الإسلام بالنفع العام رخص الشارع بجواز التجارة للمحرم ليتسع نطاق العمران الذي هو أهم مقاصده ﷺ لقوله: «**الجالب لأسواقنا كالمجاهد في سبيل الله**» وبالأخص في ذلك الموسم الذي هو مجتمع العموم في العالم الإسلامي، فتعطيل التجارة فيه مما يقضي بالتقهقر، وقطع المواصلة بين أفراد الأمة في أنحاء البسيطة.

ثم قال: (**فَإِذَا أَفَضْتُم**) تشبيه للحجاج بفيض الماء لكثرتهم وتراكمهم أي إذا دفعتم (**مِنْ عَرَفَاتٍ**) بعد الوقوف بها إلى المبيت بالمزدلفة (**فَاذْكُرُوا اللّهَ**) ذكرا يليق بجلاله (**عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ**) حال المرور به وقت التوجه لمنًى، وهو جبل شرع الوقوف عنده للذكر والدعاء، وقد وقف النبي ﷺ يدعوا من عند صلاة الصبح إلى الإسفار. ثم كرر تعالى الأمر بالذكر لأهميته في ذا المقام فقال: (**وَاذْكُرُوهُ**) أي الله تعالى ذكرا متواليا، والمعنى مرتبط بما قبله والله أعلم. فكأنه يقول: اذكروا الله واذكروه، وهكذا كلما انقطع الذكر يبتدىء على التوالي (**كَمَا هَدَاكُمْ**) بالإسلام الهداية المتوالية على ما تتضمنه خصاله، فيلزمكم ذكر متوال شكرا يعادل نعمة الهداية المتوالية (**وَإِن كُنتُم مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ**) أي من قبل الإسلام المفهوم من

قوله: (**كما هداكم**) ولا يصلح أن يكون الضمير راجعا إلى الحج لانتقاء الضلال من قبله بالإسلام.

ثم أخذ تعالى يبين في كيفية الارتحال من المشعر الحرام فقال: (**ثُمَّ أَفِيضُواْ**) أي لمنًى لأجل ذبح الهدي ورمي الجمرات، ولتكن إفاضتكم (**مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ**) قال المفسرون: يعني بذلك إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - ومن حج معهما، أي اتبعوا سبيلهم في الدفاع إلى منًى، ولا تسلكوا طريقا غير طريقهم، وكل ذلك محافظة من أن يختل نظام الجمع في المسير، ويحتمل أن يكون نهيا من أن تسير كل شرذمة بانفرادها بحيث تتأخر عن الدفع مع السواد الأعظم، أو تقصد طريقا غير طريقه، فيكون ذلك هو المنهي عنه، لأنه مظنة عدم الأمن على المتخلف، زيادة على ما يلزم من اختلال نظام الجمع، وهذا التأويل هو اللائق بالحال، فلا يبعد أن يكون هو المراد به - والله أعلم -.

ولما كان المحرم لا يخلو من التقصير من جهة أداء مناسك حجه، أو من صدور إساءة منه في حضرة الله ورسوله، قال تعالى: (**وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ**) أي بعد أداء ما افترض عليكم مما يمكن أن يكون من التقصير حسبما تقدم، تجدونه غفورا من أجل (**إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**) أي من نعته وصفته غفور رحيم، فمغفرته وَقْفٌ على من يستغفره، وأما رحمته فربما تتعدىٰ حتى إلى من لم يستغفره، لأنها وسعت كل شيء. ثم قال: (**فإِذَا قَضَيْتُم مَنَاسِكَكُمْ**) أي فرغتم وتحللتم منها (**فَاذْكُرُوا اللهَ**) وبالغوا في ذكره (**كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ**) لأن العرب كانت همتهم

متعلقة بأنسابهم فلا يتنافسون إلا في ذلك، فاستلفتهم تعالى لأن يجعلوا ذكره بدل ذكر ءابائهم، وينزلونه في مقابلتهم سواء بسواء، فإن كان ذكرهم لآبائهم باللسان فيذكرونه باللسان، وإن كان على سبيل الافتخار فالافتخار بالله أولى، وهكذا طلب الله من العباد أن يذكروه كذكرهم آباءهم (**أَوَ اشَدَّ ذِكْرًا**) إن استطاعوا، لأن الله لا ينزل ذكره منزلة ذكر المخلوق، إنما ذكر ذلك تعالى تنزلا منه لمجرد تزحزهم عن ذكر آباءهم إلى ذكره.

الاستنباط

يستخرج من قوله تعالى: (**ليس عليكم جناح... إلى قوله: أو أشد ذكرا**) خمسة عشر حكما:

الأول: علمنا أن من قصد في حجه أن يتجر فحجه صحيح، من قوله: (**ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم**).

الثاني: علمنا بأن أفضل الكسب كسب المتجر الصدوق، من تعبيره تعالى عنه بالفضل هنا، وفي عدة آيات.

الثالث: علمنا بأن الله يريد من الأمة توسيع التجارة ونشر أسبابها، من ترخيصه فيها في وقت منعت فيه عدة لوازم من المباحات.

الرابع: علمنا بأن الآية نزلت تنبيها عن المستقبل، ما تصل إليه الأمة من كثرة السواد، من قوله: (**فإذا أفضتم**) لأن في حالة نزولها لم تبلغ الأمة إلى حال الفياض كما هي عليه الآن.

الخامس: علمنا بأن الاستقرار بعرفة الذي هو الركن المعبر عنه بالوقوف، كان كالمعلوم بالضرورة عند القوم، (**فإذا أفضتم من عرفات**) حيث لم يذكر لهم الوقوف إنما ذكر الإفاضة منه، ولا شك أنها فرع عن حصول الاستقرار به، وإلا لا تتأتى الإفاضة منه.

السادس: علمنا بأن الوقوف عند المشعر الحرام ليس بواجب لذاته، إنما هو ظرف لوقوع الذكر فيه، فالذكر هو الواجب، لأنه هو مكان يجب ذكر الله عند المرور به، كالميقات للإحرام من قوله: (**فاذكروا الله عند المشعر الحرام**) فالأمر جاء متسلطا على الذكر لا على الوقوف.

السابع: علمنا بأن الذكر المطلوب به في ذلك المقام ليست له صفة مخصوصة ولا حد معلوم، إنما كل يذكر على قدر حاله، وحسب مقامه ذكرا وتذكرا.

الثامن: علمنا بأن الذكر المطلوب به في ذلك المحل هو واقع موقع الشكر لله في مقابلة نعمة الهداية من قوله: (**واذكروه كما هداكم**).

التاسع: علمنا بأن الحاج ينبغي له أن يرى نفسه من الضآلين قبل حلوله بذلك المقام الشريف، ومن المعلوم تأخير فريضة الحج إلى ذلك الوقت هي من الضلالة، ليكون ذكره عند المشعر شكرا لتلك النعمة العظيمة من قوله: (**وإن كنتم من قبله لمن الضآلين**) ليلا تفوته بركة الخطاب.

العاشر: علمنا بأن الإنسان يجب عليه أن ينخرط فى الجم

الغفير في حال المسير لأداء مناسك الحج، من قوله : (**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس**).

الحادي عشر : علمنا بأن صيغة الاستغفار من الواجبات في جزء من أيام الحج من قوله : (**واستغفروا الله**) حيث نص على ذلك بصيغته خلال الحج.

الثاني عشر : علمنا بأنه يجب على المحرم أن يذكر الله ذكرا محققا بنية أنه فرغ من مناسكه، وأن الله أَمَرَهُ بذكره إذا فرغ، من قوله : (**فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله**).

الثالث عشر : علمنا بأن الذكر المطلوب به في ذلك المحل، الأولى أن يكون جماعة مهما تمكن ذلك، من قوله : (**كذكركم ءاباءكم**) ولا يحصل التشبيه التام إلا بذلك، ولا شك أن المخاطبين كانوا يذكرون ءاباءهم في الجموع وبالجهر أيضا.

الرابع عشر : علمنا بأن الله لا يريد من عباده أن يذكروه عن ظهر قلب، بل يريد منهم المبالغة والاستغراق إلى أن يصيروا مستهترين بذكره، من قوله : (**أو أشد ذكرا**).

الخامس عشر : علمنا بأن قوله : (**واذكروه**) عقب (**فاذكروا الله عند المشعر الحرام**) يصح أن يكون دليلا في مشروعية ذكر اسم الهوية المعبر عنه عند القوم باسم الصدر، لاحتمال أن يكون المراد بتلك الصفة نفسها، أي اذكروه، «ه، ه، »، حسبما عليه حالة المنتسبين الآن، ولو كان مجرد ضمير راجع لما قبله، من قوله : (**فاذكروا الله عند المشعر الحرام**) لاكتفى عنه بقوله : (**كما هداكم**) - والله أعلم -.

الإشـــــارة

ولما كانت أقوال أكابر العارفين قديما وحديثا صريحة في أن طلب الجزاء على الأعمال في طريق الله يعد من شرك الأغراض، وأن المتوجه لا ينبغي له أن يقصد بعمله إلا وجه الله، أي لا طمعا في الجنة ولا خوفا من النار، وهذا المشرب أبعد من ذوق المبتدئين، ولذلك قال تعالى ترخيصا لهم وترويحا لقلوبهم: (**ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا**) أي تطلبوا ثوابا من ربكم على أعمالكم، فكأن ذلك لا يؤثر نقصانا في إرادة المبتدئين.

ثم أقول: قد تقدم ما يفيد أن الحج هو عبارة عن مرتبة يصل إليها العارف في طريق الله يتعذر الإفصاح عنها، وبالأخص المحل المشار إليه بعرفات، فإنه عبارة عن حضرة تكل فيها الحركات، وتخشع فيها الأصوات، حتى يكون ترك العمل فيها هو العمل، ولهذا عبر الشارع عن هذا الركن بالوقوف، بمعنى حده الوقوف، وبهذه المناسبة لم ينبه فيه تعالى عن ذكر ولا عمل، لصحة انطواء العامل في وجود المعمول له، إنما نبه عما يفعل بعده فقال: (**فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله**) أي بدل من ذكركم لا إله إلا الله. لأنه ذكر السائرين لا الواصلين، لأنهم يرون النفي في ذلك المقام من باب تحصيل الحاصل لما هم عليه من الاستغراق، ولهذا تجد أغلب أهل الطائفة معظم اشتغالهم قولهم: «الله، الله». قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ثم من بعد استهتارهم في الإسم المفرد ينتقلون إلى اسم الهوية المسمى عندهم باسم الصدر، حسبما رتبه الحق لهم بعد ما قال: (**فاذكروا الله**) قال: (**واذكروه**) أي بهذه الصيغة «ه، ه، ه»، إلى آخره. ثم رتب

عليهم تلك الكيفية في الذكر شكرا لما وصلوا إليه، لقوله: (**كما هداكم وإن كنتم من قبله**) أي قبل الإستغراق في الذكر على تلك الكيفية (**لمن الضالين**)، ومن المعلوم أن الإنسان كيفما كان في حال الحجاب هو من الضالين، ولما قرر تعالى الغاية من مقصد القوم، أشار بكيفية العمل بعد الفراغ منه، فلزم العارف أن يسير على مذهب أهل السنة والجماعة فقال: (**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس**) ولهذا تجد أكابر العارفين متمذهبين بمذهب أهل السنة، قائلين بأقوالهم مع أن فيهم من هو أعظم قدرا من مذهبه؛ وكل ذلك محافظة منهم على قوله: (**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، واستغفروا الله، إن الله غفور رحيم**).

لسان الروح

يقول: ولما كان طلب الإنسان لجانب الألوهية مظنة توهم الجناح لرفعة قدرها وعلو شأنها، حتى يتخيل كأن الوصول إليها من المحال، قال تعالى تشجيعا لأفراد الطالبين (**ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم**) لا من الدنيا ولا من الآخرة أي حظا منه تعرفونه به، فإن ذلك ممكن جائز لا لوم فيه، يتعين على المربوب أن يقصده من ربه.

قوله تعالى

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ، وَمِنْهُم مَّنْ يَّقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا

حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ، وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ، وَاذْكُرُواْ اللهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ، فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلآَ إِثْمَ عَلَيْهِ، وَمَن تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ، وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

التفسير

وبعد ما ذكر تعالى المناسك أخذ يبين في شيء من أغراض زوار الحرم الشريف فقال: (**فَمِنَ**) بعض (**النَّاسِ مَنْ يَقُولُ**) في دعائه مهما سأل، كان نص سؤاله: (**رَبَّنَا**) أي اللهم يا ربنا (**ءاتِنَا فِي الدُّنْيا**) فكأنه يقول: إن كانت لنا دعوة مستجابة اجعلها لنا في الدنيا، ويذكر ما في رغبته قاطع النظر عن الآخرة بالمرة، وهو قوله: (**وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ**) أي نصيب يتمناه حتى يسأل عنه، وعلى هذا تجد عامة الخلق لا يسألون في المواطن العظام إلا ما يتعلق بمصالح دنياهم (**وَمِنْهُم مَنْ يَّقُولُ**) في حال سؤالهم (**رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً**) أي شيئا مستحسنا كان يراه، فكل على قدر علمه وعلو همته، غير أَنَّهُ لا يسأل في الدنيا إلا حسنة (**وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً**) كذلك على قدر همته، أي الشيء الذي كان يراه حسنا، ومن سؤال ذلك الصنف أيضا قوله: (**وَقِنَا عَذابَ النَّارِ**) في الدنيا قنا أسبابها وفي الآخرة عذابها. قال تعالى: (**أُوْلَـٰئِكَ**) الصنفين المشار إليهما (**لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ**) أي اكتسبوه بدعائهم

وابتهالهم، لأن الله وعد عباده الإجابة، وبالأخص في ذلك المقام الجليل، وإن كانوا مقصرين ومسيئين في قولهم: (**ربنا ءاتنا في الدنيا**) وهذا على حد قوله: (**من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نوتيه منها، وما له في الآخرة من نصيب**) والله أعلم.

ثم قال: (**وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**) أي شديد السرعة في محاسبة الخلق وإن مع كثرتهم وتباين أعمالهم، جاء في الحديث: «**إن الله يحاسب الخلق في قدر حلب ناقة**» ثم استلفتنا تعالى لإتمام ما بقي من المناسك فقال: (**وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ**) والمراد الأيام الثلاثة التي يقيمها الحجاج بمنىً لذبح القربان ورمي الجمرات، وكانت معلومة عند العرب مشروعة، إنما ألزمهم الله بالذكر فيها، والمراد بالذكر المتحتم هو التكبير عند رمي الجمرات مع كل حصى، وعقب الصلوات، وعند الذبائح، وبالجملة، إن الإقامة بمنىً مقررة لأجل الذكر، لا للهو، فليذكر الحاج ما استطاع خلال الأيام الثلاثة (**فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ**) بمعنى عجله شيء عن إقامة اليوم الثالث، (**فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**) في اقتصاره على يومين لكن ما لم يطلع عليه فجر اليوم الثالث، وإلا تعين عليه الرمي (**وَمَن تَأَخَّرَ**) بأن زاد عن الأيام الثلاثة لمصلحة اقتضاها نظره (**فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**) في ذلك التأخير، وهذا الترخيص من جهة التعجيل والتأخير هو (**لِمَنِ اتَّقَىٰ**) لا للمتهاون بتحديد الأيام الثلاثة كأن يقول: أي فائدة في المكث أو التحديد؟ ثم قال: (**وَاتَّقُوا اللهَ**) معاشر العباد عموما (**وَاعْلَمُوا**) علما يقينا (**أَنَّكُمْ**) ولابد (**إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**) فيجازي كل أحد بما يستحقه.

الاستـنبــــاط

يستخرج من قوله تعالىٰ: (**ومن الناس من يقول... إلى قوله: أنكم إليه تحشرون**) عشرة أحكام:

الأ و ل: علمنا بأن المقتصر على طلب الدنيا من الله يكون عاصيا بطلبه، من قوله: (**ومن الناس من يقول ربنا ءاتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق**) لأنه ذكره كالمتعجب من فعله.

الثـانـي: علمنا بجواز سؤال الدنيا من الله لكن لا بانفرادها، بل بسؤال الآخرة معها، من قوله: (**ومن الناس من يقول ربنا ءاتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**).

الثـالـث: علمنا بمطلوبية تغليب مهمات الآخرة على الدنيا من سؤاله من الدنيا أمرا واحدا، ومن الآخرة أمرين؛ الحسنة والوقاية من النار.

الـرابـع: علمنا بأن الحسنة المبهمة في نص السؤال، الأولى من تفسيرها أن تصرف للعلم، لأن بالعلم يحصل خير الدنيا والآخرة لما ورد «**إن الناس يحتاجون لعلمائهم في الآخرة كما يحتاجون لهم في الدنيا**».

الخـامـس: علمنا بصحة رجوع الإشارة لصنفين من قوله: (**أولئك لهم نصيب مما كسبوا**) حيث ذكر النصيب بصيغة التحقير.

السـادس: علمنا بأن محاسبته تعالى لعباده يوم القيامة لم تخطر كيفيتها ببال، من قوله: (**والله سريع الحساب**) فكيفما تخيلنا وجه السرعة فالأمر من وراء ذلك.

السابع: علمنا بأن أيام منًى هي مجرد ظرف لذكر الله، فالمكث فيها بدون ذكر ليس من القربات، من قوله: (**واذكروا الله في أيام معدودات**).

الثامن: علمنا بأن الإنسان لا يجوز له أن يعجل بمجرد اختيار منه بدون ما يعجله شيء، من قوله: (**فمن تعجل**) وإلا لجاء به محذوف التاء.

التاسع: علمنا بأن التأخير في قوله: (**ومن تأخر**) ليس المراد به تأخرا لإتمام الثلاثة أيام كما قيل، وإنما المراد تأخر لليوم الرابع، وإلا لما جاء التعبير بنفي الجناح على التأخر، لأنه فعل ما هو المطلوب.

العاشر: علمنا بأن الرخصة في التعجيل والتأخير هي للمتقي الذي دعاه داعٍ، لا لمن قصد التلاعب ونحوه، والله أعلم بغيبه.

الإشارة

وبعد ما أوصى تعالى إلى سير السائلين وهمم العارفين إلى أين تصل، وبماذا تتعلق فيما سبق، استدرك كالمتعجب أقوامًا أخذوا من ضعف الهمة أوفر نصيب بالنسبة للخصوص، فقال: (**ومن الناس من يقول ربنا ءاتنا في الدنيا، وما لهم في الآخرة من خلاق**) والمعنى أن سعيهم ومطلوبهم منحصر في الدنيا لا يألون جهدهم في طلبها، وهذا الصنف هو الذي قال فيه ﷺ: «**تعس عبد الدنيا**».

الصنف الثاني هو الذي يسعى في طلب الدنيا وطلب الآخرة

معا، ويتوقى عذاب النار، وهذا مقصر أيضا حيث انحصر مطلوبه في مخلوق، وكان الأولى له أن يطلب ما وراء ذلك، أي حظه من الله، ولهذا قال تعالى: (**أولئك لهم نصيب مما كسبوا**) فذكر ما لهم بصيغة التحقير، بمعنى نصيب قليل بالنسبة لما فاتهم. وَثَمَّ صنفان سكت عنهم التنزيل في هذا الباب، لأنه ذكر ما قبلها بصيغة الإستعجاب. الصنف الأول منهما لا يسأل إلا الآخرة، لا يلتفت إلى الدنيا البتة، وهم زهاد الأمة المنقطعون عن اللذائذ جملة، وهم في غاية رفع الهمة بالنسبة لمن قبلهما. وفي التقصير بالنسبة لمن بعدهما وهم الرافضون للخلق جملة، فلا يسألون دنيا ولا أخرى إلا دوام ما هم عليه من التنعم برؤية جمال الحق، ومن أعجب ما يبلغ إليه هذا الصنف أن يشارك أهل الدنيا في دنياهم، وأهل الآخرة في أخراهم، وهو في جميع ذلك لا يتنعم إلا بالله.

ثم أشار تعالى للسائرين بالمحافظة على أنفاسهم، وعلى أن الحياة عبارة عن أيام قلائل فقال: (**واذكروا الله في أيام معدودات**) لأن الحياة محدودة وأيامها معدودة، والمعدود سريع النفوذ. ومن العجب أن الإنسان قد يتفكر في أجل نفسه ولم يخر مغشيا عليه، ألا ترى أن أجل الدنيا في نفسه قليل، وأجله هو منها أقل من ذلك القليل، وما بقي له منه هو أقل من قليل القليل، وذلك يستفاد من قوله: (**في أيام معدودات**) فعلى العاقل أن لا يبذرها، لأن التبذير في الكثير مذموم، فما بالك إذا كان في القليل.

لسـان الـروح

يقول في قوله: (**ومن الناس من يقول ربنا ءاتنا في الدنيا حسنة**) أي معرفة (**وفي الآخرة**) معرفة، وقنا عذاب نار القطيعة وسدل الحجاب، أولائك لهم نصيب في العاجل مما اكتسبوه بطلبهم، (**والله سريع الحساب**) أي نوال من احتسب عليه شيء.

قـولـه تـعـالـىٰ

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُّعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعىٰ فِي الاَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالاِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ، وَلَبِيسَ الْمِهَادُ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللهِ، وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَاد

التفسير

وبعد ما ذكر تعالى الصنفين فيما مضى المشار لأولهم بقوله: (**ومن الناس من يقول ربنا ءاتنا في الدنيا...**) شرع الآن في بيان صنفين آخرين فقال في الأول بصفة الذم، مخاطبا لنبيه وكل مؤمن بالقرآن: (**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) أي فيما يظهر لكونه أمكن فيما يتعلق بالحياة الدنيا (**وَيُشْهِدُ اللهَ عَلىٰ مَا فِي قَلْبِهِ**) بأنه موافق لظاهره، ويستشهد

ويبرهن على ذلك. (**وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ**) أي أشد الجدال في إقامة الحجة على مثل ذلك، وهذه شهادة من الله له على أنه عالم اللسان قليل الحياء (**وَإِذَا تَوَلَّىٰ**) وأدبر عمن كان يستشهد له على ما في قلبه (**سَعىٰ فِي الاَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا**) أي يتسبب ليتوصل للفساد فيها كيفما كان، ومن جملة ذلك: (**وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ**) أي الزرع وما في معناه (**وَالنَّسْلَ**) أي صغار الحيوان المؤكل. وبالجملة هو ساع ليفسد في الارض (**وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ**) أي الفعل الذي لا ينتفع به فاعله في الغالب إنما هو مجرد تضييع. (**وَإِذَا قِيلَ لَهُ**) أي لمن ذلك فعله (**اتَّقِ**) أي خف (**اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ**) أي الانفة والكبرياء (**بِالإِثْمِ**) أي لا موجب لتعززه إلا الإثم الذي هو ساع فيه. قال تعالى: (**فَحَسْبُهُ**) أي جزاؤه (**جَهَنَّمُ وَلَبِيسَ الْمِهَادُ**) مهاده الذي مهده لنفسه بما ارتكبه من الإثم.

ثم أخذ تعالى في بيان الصنف الثاني فقال: (**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّشْرِي نَفْسَهُ**) أي يبذلها مع عزها في مثل الجهاد ونحوه، ويفعل ذلك (**ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ**) لا غير، فهو ساع فيما يرضى الله ببذل كل ما في وسعه ولو بإلقاء نفسه في النار، وبسبب ما يفعله هذا الصنف بنفسه من عدم مبالاته فيما يرضى الله ورسوله، يستوجب رأفة الله به وعطفه عليه. ولهذا قال بصدد وصفه بذلك: (**وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ**) أي الذين يبذلون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله.

الاستنبــــــاط

يستخرج من قوله تعالى: (**ومن الناس من يعجبك قوله...** إلى قوله: **رؤوف بالعباد**) عشرة أحكام:

الأول: علمنا بأن حذاقة العقول إذا كانت متعلقة بمجرد مصالح الدنيا ليست بشيء إذا لم ترتبط بمصالح الآخرة من قوله: (**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا**) حيث ذكرها تعالى بصفة الذم.

الثاني: علمنا بوجوب الإحتراز ممن لم يُعْلَمْ صدقه، ولو كان يشهد الله على ما في قلبه إلاَّ بعد التطبيق بين القول والفعل.

الثالث: علمنا بأن شدة المجادلة ليست بمحمودة، وتعد خصاما من قوله: (**وهو ألدُّ الخصام**) حيث ذكرها في مقابلة الذم.

الرابع: علمنا بأن إلقاء الشبه بين المؤمنين وبث الفتنة يعد من الفساد في الارض، ولا يخفى ما ينشأ على ذلك، بحيث لا فساد أفسد منه.

الخامس: علمنا بأن السعي في إهلاك الحرث ونحوه كالأشجار وغيرها من الفواكه لا يحسن من فاعله، ولو في وقت الحروب ما لم تتضح فائدته، فيكون فسادا، والله لا يحب الفساد.

السادس: علمنا بلزوم المحافظة على إبقاء نسل الحيوان المؤكل من أن يهلك، ويدخل في المنع إتلاف ما كبيض الطيور وأفراخها التي لا فائدة في اقتناصها، ويتخرج على ذلك ما قررته بعض القوانين الملوكية من منع الاصطياد زمن تنسل الحيوان برا

وبحرا، فيكون له مستند من الشرع، وكل ذلك يستفاد مما ذمت الآية في مهلك النسل.

السابع: علمنا بأن هذا الفساد الممتنع في هذه الآية ليس هو مختصا بأموال المسلمين ولا بغيرهم، لعدم تقيده وشمول قوله: (**إن الله لا يحب الفساد**) مطلقا.

الثامن: علمنا بأنه مما يرضي الله إصلاح الأرض بما كالفواكه والغراسة وتسوية الطرق، وتوسيع نطاق العمران، وتمهيد المسالك، وبث الأمن، وما هو من هذا القبيل، لأنه من الإصلاح في الأرض، وهو مقابل الفساد الذي لا يحبه.

التاسع: علمنا بأن الإنسان كيفما كان في علو المنصب إذا قيل له: اتقِ الله، ينبغي له لا يأنف، وإلا كان ممن إذا قيل له: (**اتقِ الله أخذته العزة بالإثم، فحسبه جهنم، ولبيس المهاد**).

العاشر: علمنا أن من هان نفسه أي بذلها في مرضاة الله، إنما اشتراها في الحقيقة مما كانت مرتهنة فيه من المتابعة الخلقية والحقية من قوله: (**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله**)، حيث عبر عن البيع بالشراء، فعلمنا أنه اشتراها.

الإشـــــارة

في قوله: (**ومن الناس**) هذا خطاب منه تعالى للمقام الخاص، يحذره من أقوام في الطريق لا خلاق لهم، يعجبك قولهم وبما أعطوا من الفصاحة وتنسيق الألفاظ، وإظهار بعض الحقائق، وشدة الجدال في إقامة الحجج لقوله: (**وهو ألدُّ

الخصام، **وإذا تولىٰ**) أي انفصل من حضرة التذكير وحزب الموحدين، (**سعى في الأرض ليفسد فيها**) بإظهار الشبه بين الموحدين، (**ويهلك الحرث والنسل**) عبارة عن إفساد عقائد المبتدئين وعوام الموحدين، (**وإذا قيل له**) ممن أهله الله لنصح العباد: (**اتقِ الله، أخذته العزة بالإثم**) فهو دائما ألد الخصام، (**فحسبه جهنم**)، أي كفاه جهنم القطيعة الذي هو فيها، (**ولبيس المهاد**).

لسان الروح

في قوله: (**ومن الناس من يشري نفسه**) وقال: والمعنى أنه يشري نفسه بنفسه، وإذا صح أن الثمن ليس له لزم أن يكون المثمن ليس هو إليه، لانعدام المشترى بانعدام المشترى به، فهو على كل حال صفر اليدين، لله ما أعطى وله ما أخذ.



الخاتمة

تم - بحمد الله وعونه - إعداد هذا التفسير النفيس، وإخراجه في طبعة ثانية مصححة ومحققة عن الأصول المخطوطة للزاوية الكبرى بمستغانم، بعد أن ظل مجهولا مدة طويلة.

تفسير لم يجد الزمان بمثله، تناول فيه الأستاذ الكبير، والمربي الشهير الشيخ «أحمد بن مصطفى العلاوي» المستغانمي - قدس الله سره - تفسير كتاب الله العزيز بمنهج فريد ومسلك غريبٍ، لم يسلكه سابق ولا لاحق، فسر فيه الآي على أربعة أوجه: ظاهر وباطن، وحد ومطلع، أتى فيه بالعجب العجاب، متبحرا في أسرار القرآن، مستنبطا ما يقتضيه علم الإشارة عملا بقوله ﷺ: **«القرآن لا تنقضي عجائبه»**.

